قصـــة

سـقـوط ١٥ إمبراطورية عبر التاريخ

بكر محمد إبراهيم

الناشر

مركز الراية للنشر والاعلام

اسم الكتاب : قصة سقوط ١٥ إمبراطورية عبر التاريخ

بقلـــم : بكر محمد إبراهيم

الطبعة : الأولى ٢٠٠٤

الناشر : مركز الراية للنشر والأعلام

فكرة الكتاب : للناشر أحمد فكرى .

رقم الإيداع : ٢٠٠٤/٩٧٤١

الترقيم الدولى

I.S.B.N. : 977 - 354 -045 - 6

المقدمة

الحمد لله يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ، بيده الخير وهو على كل شئ قدير .

والصلاة والسلام على سيدنا محمد البشير النذير .

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا ند ولا نظير ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الصادق الوعد الأمين .

وبعـــد ،،،

فهذا كتاب عن إمبراطوريات سقطت وما كان من شأنها فى التاريخ ومنها إمبراطورية فارس والروم ، ويسجل الكتاب الفتوحات الإسلامية فى بلاد فارس والروم وبلاد الشام ومصر وإفريقية .

كما يؤرخ الكتاب لكثير من المدن التى فتحت وما دار من قتال دام وحروب طاحنة بين المسلمين والروم والفرس من ناحية وما دار بين المسلمين والفرنجة من ناحية أخرى .

ويؤرخ الكتاب لبعض فتوحات العرب المسلمين فى الأندلس وقبل ذلك يستعرض حروب خالد بن الوليد والمثنى بن حارثة وعياض بن غنم وغيرهم من أبطال العرب .

ويتعرض للخلفاء الراشدين الذين سيروا جيوش الفتح أبو بكر وعمر وعثمان -رضى الله عنهم-.

وما كان من عزل خالد بن الوليد وتوليه أبى عبيدة بن الجراح فى خلافة عمر بن الخطاب .

كما يتعرض لتاريخ تيمور لنك واحتلاله لبلاد الشام والعراق ، كما يتعرض لبعض أحداث التاريخ المعاصر ومنها تاريخ عيدى أمين فى أوغندا وتاريخ نيريرى وحسين حبرى ويختم الكتاب بسقوط بغداد والقبض على طه ياسين رمضان كما يتعرض لسيرة بوش رئيس الولايات المتحدة وغزوه للعراق .

فالكتاب موسوعى يتناول تاريخ إمبراطوريات وغزوات وحروب وفتوح .

نفع الله به والحمد لله أولا وآخراً ...

المؤلف

بكر محمد إبراهيم

عضو اتحاد الكتاب

سياسة العرب الدينية
وغزو الإسلام السلمى للعالم القديم

إذا كان خروج العرب من القفر، ومن غمر البداوة، إلى حياة الظفر الباهر، وإقدامهم فى قلة من العدد ونقص فى الموارد والأهبة، على غزو دولتين من أعظم دول العالم القديم، وأشدها منعة، وأوفرها أهبة وموارد، هما الدولتان الفارسية والرومانية، وإقامتهم فى أقل من قرن دولة عظيمة شامخة فوق أنقاض ما هدموا من صروح العالم القديم وغنموا من أقطاره :

إذا كان ذلك ظاهرة مدهشة من ظواهر التاريخ، فإن ظفر الإسلام بالأديان القديمة، وإجتياحه للشعوب المفتوحة بسرعة خارقة، ظاهرة من أغرب ظواهر التاريخ أيضاً. وإذا كان ظفر العرب يرجع من بعض الوجوه إلى ظروف وعوامل خارجة عن إرادتهم وتدبيرهم، فكذلك يرجع ظفر الإسلام من بعض الوجوه إلى ظروف الشعوب المفتوحة، وإلى أحوال المجتمعات الجدديدة، التى انضوت تحت لواء الإسلام، وإلى خواصها النفسية والاجتماعية.

ليس فى صحف الدعوة الإسلامية شىء من تلك السير والمطاردات الدموية، التى اقترنت بظهور معظم الأديان القديمة، والتى نراها ماثلة بالأخص فى عصور النصرانية الأولى. وقد انتشرت الدعوة الإسلامية بوسائلها السلمية الخاصة، وكان ظفرها أعظم ما سجل تاريخ الأديان والعقائد.

يقول المؤرخ فون جوت شميت : «إن الإقبال العام على اعتناق دين جديد على أثر فتح أجنبى، أمر لا يكاد يعرفه العصر القديم، ولكن الإسلام يقف وحيداً فى هذا الفوز».

ويقول دوزى : «إن هذه الظاهرة تبدو لأول وهلة لغزاً غريباً، ولاسيما متى علمنا أن الدين الجديد لم يفرض فرضاً على أحد». والواقع أن الدعوة الإسلامية

قامت منذ البداية على مبدأ التسامح واحترام العقائد والضمائر، خصوصاً إزاء اليهود والنصارى أعنى أهل الكتب التى يقر الإسلام قدسيتها.

وكانت النصرانية واليهودية فى الوقت الذى ظهر فيه النبى العربى، ووثب الإسلام من الصحراء، هما دين السواد فى كثير من البلاد التى فتحها العرب.

فكانت الجزية، هى كل ما فرضه الدين الجديد على غير المسلمين، للاحتفاظ بحرية عقائدهم وشعائرهم. وكان هذا الامتياز مقصوراً على اليهود والنصارى بادئ ذى بدء، ولكنه لم يلبث أن امتد فى زمن النبى ذاته إلى أبناء أديان أخرى مثل قبائل البحرين وسوادهم من الزرادشتية.

وفى عهد عثمان ثالث الخلفاء، امتد هذا الامتياز إلى بربر إفريقية التى فتحت فى عهده، وشبه البربر باليهود والنصارى والزرادشتية فى التمتع بحرية الاعتقاد والشعائر نظير الجزية. والظاهر أن الوثنية كانت ماتزال تسود يومئذ قبائل البربر.

وكانت الوثنية بلا ريب دين البربر قبل الفتح الرومانى، ولكن رومة فرضت النصرانية منذ الفتح على البربر، فغلبت على سكان إفريقية منذ القرن الرابع. والظاهر أيضاً أن كثيراً من هذه القبائل كانت لعهد الفتح الإسلامى تدين باليهودية.

وعلى أى حال فقد شملت سياسة التسامح الدينى كل الشعوب المفتوحة، وكانت منها مجتمعات كثيرة تدين بالشعائر الوثنية.

يقول العلامة جولدسهر : «سار الإسلام، لكى يصبح قوة عالمية، على سياسة بارعة. ففى العصور الأولى لم يكن اعتناقه أمراً محتوماً، فإن المؤمنين بمذاهب التوحيد، أو الذين يستمدون شرائعهم من كتب منزلة كاليهود والنصارى والزرادشتية، كان فى وسعهم متى دفعوا ضريبة الرأس (الجزية)، أن

يتمتعوا بحرية الشعائر وحماية الدولة الإسلامية، ولم يكن واجب الإسلام أن ينفذ إلى أعماق أرواحهم، وإنما كان يقصد إلى سيادتهم الخارجية. بل لقد ذهب الإسلام فى هذه السياسة إلى حدود بعيدة، ففى الهند مثلا كانت الشعائر القديمة تقام فى الهياكل والمعابد، فى ظل الحكم الإسلامى. وينوه دوزى بأهمية هذا التسامح فى حديثه عن فتح الأنلس ويقول : «لم تكن حال النصارى فى ظل الحكم الإسلامى مما يدعو إلى كثير من الشكوى بالنسبة لما كانت عليه من قبل. أضف إلى ذلك أن العرب كانوا يتحلون بكثير من التسامح، فلم يرهقوا أحداً فى شئون الدين.. ولم يغمط النصارى للعرب هذا الفضل، بل حمدوا للفاتحين تسامحهم وعدلهم، وآثروا حكمهم على حكم الجرمان والفرنج». والخلاصة أن التسامح الدينى كان أصلا ثابتاً من أصول السياسة الإسلامية، يرجع إلى عصر النبى ذاته، وقد دفع فيما بعد إلى حدود، لعلها جاوزت ماكان يراه النبى وخلفاؤه الأوائل.

هذا التسامح وإن كان نسبياً معلقاً على افتداء الحرية الدينية بالجزية، إلا إنه كان ظاهرة جديدة فى عصور سودت صحفها سير الاضطهاد الدينى، وفيها كانت تضطرم الخلافات والمعارك الدينية، فلا تخمد إلا فى سيول من الدماء، وكانت الدولة تملى دينها على الشعوب، سيدة كانت أو مسودة، ولا تقنع بالإيمان والشعائر اللفظية، بل تدفع العسف إلى أعمق ظروف الحياة الخاصة، فضلا عن الحياة العامة.

وقد عصفت هذه السياسة بمنعة الدولة الرومانية الشرقية أيما عصف، وقوضت من هيكلها الإجتماعى أيما تقويض، وكانت لها أيضا آثارها المخربة الهدامة فى الدولة الفارسية. أما الدولة الإسلامية فقد عرفت منذ نشأتها قيمة التسامح، واستطاعت أن تغزو به قلوب الشعوب والطوائف. التى أضناها عسف المطاردة الدينية فى ظل العهد القديم، وكانت فضلا عن الاضطهاد الدينى تنوه

بأعباء الضرائب والمغارم الفادحة، ونزعات السلب والمصادرة، التى ترتكب غالباً باسم الدين.

تقدمت الدولة الإسلامية إذن إلى الشعوب المفتوحة بمزيتين أو نعمتين لم تعرفهما فى عهد الحكم السابق . الأول نعمة التسامح والحرية الدينية، والثانية نعمة الضرائب العادلة المعتدلة، التى تفرض طبقاً لأصول وحدود معينة وقد كان لهذا التسامح، وهذه القناعة، أيما أثر فى تذليل سبل الفتح أمام العرب، وفى أغتنامهم لعطف الشعوب المفتوحة، بل فى اغتنام معاونتها الفعلية فى الوقوف إلى جانبهم فى وجه الدولة الرومانية فى كثير من المواطن.

أليس لنا أن نتساءل بعد ذلك : كيف ذاع الإسلام بسرعة خارقة بين الشعوب المفتوحة ؟ ولماذا آثرت هذه الشعوب التى منحت حرية الإعتقاد والضمائر أن تنزل عن أديانها وعقائدها لتعتنق دين الحكومة الجديدة" وكيف استطاعت السياسة الإسلامية فى كثير من التسامح والرفق، أن توجد فى أقل من قرن أمماً إسلامية عظيمة فى فارس والشام ومصر وإفريقية واسبانيا ؟

كانت هذه الظاهرة العجيبة نتيجة لعدة عوامل سياسية واقتصادية واجتماعية، أملت على حكومة الخلفاء سياستها نحو رعاياها الجدد، وكان للأطماع الشخصية، والحرص على المكانة الاجتماعية، فى خلقها نصيب أيضاً، بل سنرى أن حدوثها بتلك السرعة لم يكن دائماً متفقاً مع مصالح الخلافة المادية.

ذلك أن تسامح الحكومة الإسلامية، كان قاصرا على حرية الضمائر والشعائر، ولم يكن يشمل فى حياة الفرد، كل مظاهرها الاجتماعية والمدنية.

وكان عمر بن الخطاب ثانى الخلفاء، أول من صاغ هذه السياسة نحو الدميين (غير المسلمين) فى تشريع وأوامر خاصة، كانت مصدر هذا النوع من

التشريع فى الدول الإسلامية، وكانت تختلف باختلاف الظروف ليناً وشدة. وخلاصتها أنه لا يسمح للذميين ببناء كنائس أو بيع جديدة، أو إعادة بناء ما تهدم منها، أو يرفعوا الصلبان فوق الكنائس، أو يظهروا كتبهم المقدسة فى الطرق أو الأماكن العامة، وألا يرفعوا أصواتهم بالترتيل فى الكنائس إذا كانت واقعة فى حى إسلامى، وألا يوقدوا الشموع، وأن يلزموا السكينة فى الجنائز إذا مرت بأحياء إسلامية، وألا يحاولوا تنصير مسلم، أو يحولوا دون إسلام نصرانى، وأن يحافظوا على مراسيم الخضوع والاحترام للمسلمين فى المواكب والمحافل العامة، كألا يجلسوا فى حضرة مسلم إلا إذا أذنوا، وألا يلبسوا أزياء المسلمين، بل يتخذوا أزياء وألواناً خاصة، كذا كان يحظر عليهم أن يتسموا بالأسماء العربية، أو ينقشوا الأحرف العربية على أختامهم، أو يستعملوا السروج أو يحملوا السلاح أو يسترقوا مسلماً.

ومما كتبه عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص فاتح مصر وأول حكامها من المسلمين بشأن الذميين : «أن تختم فى رقاب أهل الذمة بالرصاص، ويظهروا مناطقهم، ويجزوا نواصيهم، ويركبوا على الأكف عرضاً، ولا يضربوا الجزية إلا على من جرت عليه الموسى، ولا يضربوها على النساء ولا على الولدان، ولا يدعوهم يتشبهون بالمسلمين فى لبوسهم»[1].

كانت هذه التفرقة الرسمية تخلق من الطوائف غير المسلمة فى ظل الدولة الإسلامية مجتمعاً آخر، ذا حياة ونفسية ونظم اجتماعية خاصة، تنظر إليه

(١) فى كل مجتمع تكون للأغلبية ميزة على الأقلية وكانت الحكومات الأوروبية تشن حروب إبادة واغتيالات وتطهير عرقى ضد الأقليات المسلمة ، وما حدث فى البوسنة والهرسك وكوسوفا فى هذه الأيام والأعوام السابقة دليل على هذا ، ولكن المسلمين لم يفعلوا مثل هذا وقديما كانت محاكم التفتيش فى الأندلس (أسبانيا) تحرق المسلمين وتصادر أملاكهم ، وتفرض على من بقى على قيد الحياة الدخول فى النصرانية

الحكومة الإسلامية، وينظر إليه المسلمون بعين غير تلك التى ينظرون بها إلى أبناء دينهم. وكانت هذه الأحكام الخاصة بغير المسلمين تطبق فى العصور الأولى فى رفق ولين، وكان حكام النواحى والسلطات المحلية أكثر تسامحاً ورفقاً فى تطبيقها من السلطة المركزية.

وكثيراً ما عقد الذميون مع حكام النواحى معاهدات محلية للتخلص من هذه الأغلال والفوارق الإجتماعية المهينة. ومع ذلك فقد كان مركز الذميين من النصارى واليهود، فى الدول الإسلامية، دائماً منحطاً من الوجهة الاجتماعية، وهو يشبه من وجوه كثيرة مركز اليهود فى الأمم الأوروبية فى العصور الوسطى، بل فى عصرنا هذا فى بعض الأمم التى تضطرم أحياناً بنزعة الخصومة السامية.

وكانت وطأة هذه التفرقة تشتد بالذميين، ولا سيما النصارى فى كثير من المآزق والأزمات السياسية، وقد تنقلب أحياناً إلى مطاردة عنيفة تسام فيها الكنيسة، والنصارى ألواناً من القمع والاضطهاد والذلة. وكان الذميون فوق ذلك موضع التوجس والريب من السلطات الحاكمة، وقلما كانت الحكومات الإسلامية الأولى تجيزهم إلى وظائف الدولة، اللهم إلا أعمال المحاسبة والجباية حيث كانت لهم فيها براعة خاصة، أو ترفيهم إلى مراتب النفوذ والثقة، أو تعهد إليهم بالمهام الخطيرة، أو تأتمنهم على مصلحة ذات شأن.

فليس غريباً إذاً أن يتوق الذميون فى تلك العصور، إلى التحرر من أعباء هذا النظام ووصماته، وأن يؤثر الأذكياء والطامعون منهم، أغتنام كل ما ينعم به المسلم من المزايا الاجتماعية والاقتصادية باعتناق الإسلام، وأن يشقوا لأنفسهم إلى الحياة سبلا طيبة باهرة بالإندماج فى المجتمع الإسلامى، وأن يتمتعوا خلال ذلك كله بنعمة الحرية الفكرية، التى كانت من أسمى ظواهر الحياة الإسلامية.

ولم يكن دخول الذمى فى الإسلام يفضى دائماً لأول وهلة، إلى تمتعه بكل ما يتمتع به المسلم من الحقوق والمزايا. بيد أن اعتناق الإسلام كان أول خطوة فى تحرره من الأعباء المرهقة والتقاليد المزرية والعرف المؤذى. وإذا كان الجيل الأول من الذميين الداخلين فى الإسلام يلقى صعاباً فى سبيل الإندماج التام فى المجتمع الإسلامى، أو الفوز العاجل بكل ما ينعم به المسلم المؤثل من صنوف التجلة والإيثار، أو اغتنام عطف السلطات الحاكمة وثقتها، فقد كان الزمن وحده كفيلا بمحو هذه التقاليد وإزالة هذه التفرقة، وإدماج أبناء الوطن الواحد فى مجتمع واحد.

وكان تعاقب الأجيال والذرية وحده سبيلا إلى النسيان، ورفع أبناء الذين أسلموا إلى صف المسلمين القدماء، هذا إلى أن عقبهم كانوا ينتحلون الأنساب العربية، فيرجعون ألقابهم وأنسابهم إلى أصل من الأصول العربية المعروفة، لكى يقضوا بذلك على آخر الآثار والذكريات التى قد تشوب مركزهم الاجتماعى، بعد أن دخلوا فى حظيرة الإسلام، وغدوا مسلمين خلص أوفياء.

وقد كان فوز الإسلام فى الشام ومصر، أسرع وأيسر منه فى أى بلد آخر من البلاد المفتوحة. وكانت النصرانية قد سادت مصر والشام لعهد الفتح الإسلامى، ولكنها فرضت عليهما بالنار والسيف، وسرى الخلاف غير بعيد إلى أصولها ومبادئها، فاضطربت أسسها ووهنت عقائدها، وتعددت الطوائف والمذاهب، واضطرمت بينها الخصومات، واشتد العسف والإرهاق، فسادت الفوضى السياسية والاجتماعية.

ولم يكن فى أصول الإسلام ما يحفظ القلوب المؤمنة، وكانت خصومته للعقيدة النصرانية رفيقة لينة. وكان فوز العرب فى اجتياح العالم القديم بسرعة مدهشة آية قوته ورجحان دعوته، كما أن ما قارنت به سياسة الفاتحين من ضروب العدالة والرفق والعفة والزهد، كان حجة ناهضة على جور الحكومات النصرانية فى تلك العصور.

وعلى أن الكنيسة لم تكن رمزاً صحيحاً لمثل العدالة والإخاء. ألم تكن هذه كلها شواهد قاطعة عميقة الأثر على أن الدين الجديد أجدر بالاتباع، وأنه دين الحق ؟ كان طبيعياً أن تطبع هذه الظواهر روح التفكير فى هذا العصر، وكان الإيمان بالمعجزات سلاحاً مسموماً ارتد إلى صدر الكنيسة، فإنه لم تحدث معجزة ترد عادية الإسلام عن النصرانية، ولم تنقض الصواعق على تلك الجيوش المظفرة، التى اجتاحت سواد العالم القديم فى زهاء جيل فقط.

وكذا كان ظفر الإسلام سريعاً فى باقى الأمم المفتوحة. وفى ذلك يقول الفيلسوف فون شليجل : «نستطيع أن نبحث دين العرب الجديد وفتوحهم على ضوء هجرة جديدة للأمم، فإن قسما كبيراً من الأمة العربية هاجر إلى أسبنيا. وأحدثت هذه الهجرة العربية فى آسيا وإفريقية انقلاباً خطيراً فى السلطان واللغة والخلال والأنظمة السياسية، أعظم وأشد من ذلك الذى أحدثته غزوات القبائل الجرمانية فى أوربا».

ولكن هل كان إنتشار الإسلام بتلك السرعة الخارقة بين أبناء الشعوب المفتوحة متفقا دائماً مع سياسة الخلافة ومثلها ولا سيما بعد أن استحالت إلى ملك سياسى؟ الظاهر أنه لم يكن كذلك فى كثير من الأحيان، بل لقد كان بالعكس يضر بمصالحها المادية أكبر الضرر، حتى أنها منذ العصر الأول -عصر الدعوة والفتوة الدينية- لم تكن تشجع هذه السياسة. ولذلك تعليل ظاهر. فقد كانت موارد الحكومة الإسلامية من الجزية والمغارم المختلفة التى تفرض على الذميين، عظيمة فادحة، وكانت هذه الموارد تتأثر كلما حدثت وثبة عامة من شعب مفتوح لاعتناق الإسلام.

ولم يكن هذا الأثر عظيما بادئ ذى بدء، لأن أغلبية الشعوب المفتوحة لبثت حيناً تؤثر التمتع بمنحة الجزية - أجل منحة الجزية أو نعمتها بالقياس إلى ما كانوا يلقون من الحكومات الذاهبة - للاحتفاظ بدين الآباء والأجداد، وإقامة الشعائر القومية.

هذا إلى أن الثروات الطائلة التى كانت تفيض على خزائن الحكومة الإسلامية من تركات الحكومات المغلوبة وأسلابها، وأموال الأمراء والحكام والقادة والزعماء المغلوبين، وفدى الأسرى، كانت أكثر من أن تعوض على الخلافة فى عصرها الأول، ما كانت تخسره من آن لآخر بإقبال جمهور الذميين على اعتناق الإسلام، تحرراً من الجزية وما إليها من الفروض والأعباء.

ونستطيع أن نكون فكرة عن موارد الخلافة من الجزية ومختلف المغارم والثروات التى كانت تحصل من البلاد المفتوحة، بما تذكره الرواية العربية فى فتح مصر، من أنه لما صالح عمرو بن العاص القبط على أن يدفع كل رجل منهم جزية قدرها ديناران، بلغ من وجبت عليهم الجزية السنوية ستة آلاف ألف نفس أو ثمانية آلاف ألف على رواية أخرى، ليس فيهم امرأة ولا شيخ ولا صبى. فكان دخل الخلافة من ذلك اثنى عشر مليون أو ستة عشر مليون دينار فى العام.

وثمة رقم آخر هو أن قرى مصر أحصيت من أجل الجزية، فوجدت أكثر من عشرة آلاف قرية لم يحص فى أصغر قرية منها أقل من خمسمائة رجل وجبت عليهم الجزية، وما تذكره الرواية العربية عما حصله العرب عند فتح الأندلس من الثروات والذخائر والمغانم الهائلة، وما تذكره غير ذلك فى سير معظم الفتوحات العربية.

وقد كانت الجزية نوعين، جزية على رؤس الرجال، وجزية تفرض جملة على أهل القرية، وتحصل منها جملة باعتبارها وحدة مستقلة، فمن هلك دون وارث عادت أرضه إلى القرية فى جملة ما عليها من الجزية.

وقد يكون هذا النوع أحياناً كالغرامة الحربية تفرض على مدينة ثائرة أو مفتوحة أو تقتضى كأثر لمعاهدة الصلح، غير أن تطبيقه بهذه الصورة لم يكن عاماً، ولا يقع إلا فى ظروف خاصة. أما جزية الرجال فكانت ضريبة دائمة على

رأس البالغين، بيد أنها لم تكن محددة ولا مضبوطة بنسب وقيود معينة، بل كانت تجبى طبقا لظروف الأشخاص والزمان من يسر وضيق.

فيروى لنا ابن عبد الحكم مثلا، أن عمر بن الخطاب كان يأخذ ممن صالحه من المعاهدين ما سمى على نفسه، لا يضع من ذلك شيئاً ولا يزيد عليه، ومن نزل منهم على الجزية ولم يسم شيئاً يؤديه نظر عمر فى أمره، فإذا احتاجوا خفف عنهم، وان استغنوا زاد عليهم بقدر استغنائهم.

ثم يروى أن صاحب إخنا قدم على عمرو بن العاص فقال له أخبرنا ما على أحدنا من الجزية فيصير لها، فقال عمرو وهو يشير إلى ركن كنيسة لو أعطيتنى من الأرض إلى السقف ما أخبرتك ما عليك، إنما أنتم خزانة لنا إن كثر علينا كثرنا عليكم، وإن خفف عنا خففنا عنكم. ولم تكن الجزية تقف عند القدر المفروض من المال، بل كانت تتعدى ذلك إلى جباية مقادير أخرى من الحنطة والزيت والعسل والثياب، ويلحق بذلك إضافة الذميين للمسلمين أياماً معينة.

على أن توزيع هذه المغارم وطرق جبايتها، كانت تقرن فى معظم الأحوال بالاعتدال والرفق، فقد رأيت أنها لم تكن تفرض على الصبية والنساء والشيوخ، وكان يراعى فى التقدير والتحصيل أن يخرج الذميون قبل كل شىء من غلة أرضهم ما يكفى لتعهد كنائسهم ومرافقهم ومؤنهم، وكان الرفق يتعدى إلى الإمهال فى أداء الخراج، فقد حدث مثلا أن عمراً تأخر فى تقديم خراج مصر فى الميعاد المحدد، فكتب إليه عُمر يعزره ويؤنبه ويقول : «أما بعد، فقد عجبت من كثرة كتبى إليك فى إبطائك بالخراج وكتابك إلى ببنيات الطرق. وقد علمت أنى لست أرضى منك إلا بالحق البين، ولم أقدمك إلى مصر أجعلها لك طعمة ولا لقومك، ولكنى وجهتك لما رجوت من توفيرك الخراج، وحسن سياستك، فإذا أتاك كتابى هذا فاحمل الخراج، فإنما هو فىء المسلمين».

فكتب إليه عمرو : «أما بعد، فقد أتانى كتاب أمير المؤمنين يستبطئنى فى الخراج، ويزعم أنى أحيد عن الحق وأنكب عن الطريق، وإنى والله ما أرغب عن صالح ما تعلم، ولكن أهل الأرض استنظرونى إلى أن تدرك غلتهم، فنظرت للمسلمين، فكان الرفق بهم خيراً من أن يخرق بهم فيصيروا إلى بيع ما لاغنى عنه والسلام».

فلما اتسعت الفتوحات الإسلامية، زادت نفقات الدولة والجيش زيادة كبيرة واشتدت حاجة الخلافة إلى المال، فلم يك مما يتفق مع حاجتها ومصالحها المادية أن تشجع سياسة تؤدى إلى نضوب خزائنها واضطراب دخلها، ولو أدت هذه السياسة إلى ذيوع دين الدولة، وزادت فى عدد المسلمين. وفى الوقت الذى غدت فيه الطوائف غير المسلمة، أشد شعوراً بانحطاطها الإجتماعى، وأخذت تجنح إلى التحرر من أغلال التشريع والأحكام الخاصة، باعتناق دين الدولة، أخذت الخلافة تنظر إلى مواردها بعين الجزع.

ولما بلغ تناقص الجزية أقصاه، رأت الخلافة أن تفرضها حتى على من اعتنق الإسلام من الذميين. وكان أول من فرض الجزية على من أسلم من أهل الذمة، الحجاج بن يوسف الثقفى عامل العراق. ثم أمر عبد الملك بن مروان حاكم مصر بجبايتها ممن أسلم من المصريين.

فاعترض على ذلك بعض رجال ديوانه وخاطبه أحدهم بقوله : «أعيذك بالله أيها الأمير أن تكون أول من سن ذلك بمصر، فوالله إن أهل الذمة ليتحملون جزية من ترهب منهم، فكيف نضعها على من أسلم منهم» فتركهم عند ذلك. وكان عمر بن عبد العزيز أشد خلفاء بنى أمية ورعاً وحماسة لفكرة ذيوع الإسلام، فرفع الجزية عمن أسلم من الذميين فى كافة أنحاء الدولة، وسوى بينهم وبين المسلمين الخلص، ومما يؤثر عنه فى ذلك أنه كتب إلى حيان بن شريح عامل مصر «أن تضع الجزية عمن أسلم من أهل الذمة.

فإن الله تبارك وتعالى قال :

﴿ فَإِذا انسلخ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ واحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاة وَآتَوُا الزَّكَاة فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ ﴾ [التوبة]

فكتب إليه شريح يراجعه فى ذلك ويقول : «إن الإسلام قد أضر بالجزية» وإن خزائن الحكومة قد نضبت مواردها .

فكتب إليه عمر بن عبد العزيز يؤنبه ويعزره ويقول له : «فضع الجزية عمن أسلم قبح الله رأيك، فإن الله بعث محمداً ﷺ هادياً ولم يبعثه جابياً، ولعمرى لعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم الإسلام على يديه»

وهكذا لبثت الخلافة حيناً تتردد بين السياستين، حتى تم الإندماج بفعل الزمن، وتحولت معظم الشعوب المحكومة إلى كتل مسلمة، ليس فيها من غير المسلمين سوى أقليات ضئيلة، فزالت فوارق الدين بحكم الظروف، وأضحى التمييز عسيراً بل مستحيلا بين المسلم العريق والمسلم الحادث، وتضاءلت أهمية الجزية كسبيل للإيراد، واستعاضت الخلافة بما كسبته من عصبية وقوة معنوية، عما خسرته من المصالح المادية.

وهكذا أسفرت هذه السياسة السلمية المستنيرة التى سنتها حكومة الخلفاء نحو رعاياها الجدد، عن اغتنام تأييدهم أولا عن طريق التسامح الدينى، ثم مؤازرتهم المادية عن طريق الجزية، ثم ضمهم أخيراً إلى حظيرة الإسلام، واغتنام مؤازرتهم الروحية والمادية معاً. وهكذا يبدو أن ذيوع الإسلام بسرعة شاملة لم يكن دائماً متفقاً مع سياسة الخلافة، وأنه كان فى وقت ما ضاراً بمصالحها المادية

إن فى ذلك ما يفسر حقيقة تاريخية مدهشة ينكرها ويشوهها معظم كتاب الغرب الذين يتحدثون عن الإسلام، ووسائل نشره وعوامل رسوخه، وفيه ما يوضح لنا كيف استطاعت حكومة الخلفاء أن تكون فى وقت واحد حكومة مطلقة (أوتوقراطية تمعن فى الاستئثار بالسلطة)، وأداة لينة رفيقة تغلب النزعات الديمقراطيةوالحرة.

هذا كله فيما يتعلق بانتشار الإسلام فى عصوره الأولى. فلنر الآن كيف انتشر الإسلام فى العصور الوسطى، والعصر الحديث، فى سائر أنحاء العالم القديم، وفى أقاصى أركانه.

لقد امتدت الإمبراطورية الإسلامية الكبرى، منذ أواخر القرن الأول للهجرة من السند شرقاً حتى المغرب وشواطئ المحيط الأطلنطى غرباً، ومن جبال البرنيه وأواسط آسيا شمالا، حتى الصحراء الإفريقية الكبرى، وبحر العرب جنوباً، ولبثت زهاء أربعة قرون تحتفظ بهذه الحدود المترامية، وذلك بالرغم مما كان يمزقها فى الداخل أحياناً من تطورات وانقلابات مختلفة.

ولم يكن الفتح هو الوسيلة الوحيدة لانتشار الإسلام. ذلك أن الإسلام قد انتشر دون غزو ودون سيف، فى كثير من الأنحاء القاصية التى لم يصل إليها الفاتحون المسلمون قط. ونظرة عابرة إلى خريطة العالم الإسلامى، تؤيد هذه الحقيقة. ففى الصين، وفى منغوليا، ومنشوريا، والهند الصينية، وفى جزائر الهند الشرقية (اندونيسيا) وفى بلاد الملايو، وفى جزائر الفلبين، وفى بورنيو : فى سائر هذه البقاع النائية من الشرق الأقصى، تقوم مجتمعات إسلامية قوية يبلغ تعدادها أكثر من مائة مليون من الأنفس.

وفى القسم الغربى من العالم القديم فى شرقى إفريقية، وفى مدغشقر، وزنجبار وموزنبيق، ودار السلام، وفى روديسيا، وفى بلاد النيجر، وسيراليون،

وساحل الذهب، وليبريا، والكونغو، وفى قلب الصحراء الكبرى، وفى غيرها من بقاع القارة الإفريقية الوسطى والجنوبية، تقوم ذلك مجتمعات إسلامية كبيرة، يبلغ مجموعها نحو خمسين مليوناً من الأنفس.

ومن الواضح أن ذيوع الإسلام فى هذه المناطق النائية لم يكن نتيجة فتح ما. ذلك أن الفاتحين امسلمين لم يصلوا قط إلى هذه المناطق فى أى عصر من العصور، وإنما توجد وراء ذيوع الإسلام فى تلك المناطق النائية، قصة من أعجب قصص الغزو السلمى فى التاريخ.

افتتح المسلمون آسيا الوسطى أو بلاد ما وراء النهر، وهى التى تعرف اليوم بتركستان الروسية، فى عصر مبكر فى القرن الثامن الميلادى، ووصلت فتوحاتهم إلى مدينة كشغر فى غربى الصين. وأخذ التجار والمستعمرون المسلمون من ذلك الحين، يقصدون إلى مختلف أنحاء الصين الشمالية والشرقية، حاملين معهم تعاليم الإسلام، يبثونها أينما استقروا.

ووصل الإسلام بمضى الزمن إلى منغوليا ومنشوريا على أيدى هؤلاء الغزاة السلميين. وكذا انتشر الإسلام فى أواسط الصين وجنوبها، حتى أن الرحالة الشهير ابن بطوطة الطنجى، حينما نفذ إلى جنوب الصين فى أواسط القرن الرابع عشر الميلادى، رأى كثيراً من المسلمين فى مختلف المدن التى زارها. ويوجد اليوم فى القارة الصينية زهاء خمسين مليون مسلم، منتشرين فى أنحائها الجنوبية والوسطى والشمالية حتى منشوريا.

وانتشر الإسلام فى الهند عقب افتتاح المسلمين للسند فى أوائل القرن الثامن الميلادى، ثم امتدت الفتوحات الإسلامية بعد ذلك إلى الجنوب والشرق، وذاع فى قلب القارة الهندية، وكان كثير من هذه الأنحاء الهندية فى العصور الوسطى، تحت حكم حكومات مسلمة. واتجه التجار والمستعمرون المسلمون من

الهند نحو الشرق، إلى جزائر الهند الشرقية. وكانت سومطرة منذ القرن السابع الميلادى مملكة هندية حتى القرن الثالث عشر، حينما دخلها المستعمرون المسلمون ، وبثوا فيها دعوة الإسلام. ثم دخلوا شبه جزيرة الملايو، وعبروا منها إلى جاوة، وكانت تدين يومئذ بالدين البرهمى، فنشروا فيها الإسلام.

ولما زار ابن بطوطة هذه الجزائر فى أواسط القرن الرابع عشر، ألفى بها عدة إمارات مسلمة. وقصد المستعمرون المسلمون إلى جزائر الهند الشرقية النائية، واستقروا فى جزيرة بورنيو وجزائر الفلبين، وكان الإسلام ينتشر أينما استقروا . وقامت بتلك الجزائر مجتمعات وحكومات إسلامية، قبل أن يسيطر عليها الاستعمار الهولندى فى القرن السادس عشر. ويوجد اليوم فى جزائر الهند الشرقية نحو ستين مليون مسلم.

وتوجد وراء انتشار الإسلام فى قلب إفريقية، وفى غربها قصة مماثلة. فنحن نعرف أن العرب افتتحوا شمال إفريقية فى أواخر القرن السابع الميلادى، بعد مقاومة عنيفة من جانب القبائل البربرية، وانتهى الأمر بمعظم هذه القبائل إلى اعتناق الإسلام.

وفى أواخر القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) كانت طوائف من الأعراب من بنى هلال وبنى سليم وبنى رياح وغيرهم، ممن قدموا إلى مصر، أيام المعز لدين الله الفاطمى فى ركب القرامطة، قد نزحت من مصر إلي افريقية، وأخذت تتجول فى أنحائها، وتغير على البوادى الوسطى والجنوبية. ووصلت هذه القبائل العربية فى غاراتها حتى قلب الصحراء الكبرى، وإلى حوض نهر النيجر، ونشرت تعاليم الإسلام بين القبائل السودانية النائية، وفى مملكة مالى السوداء، الواقعة فى شمال نهر النيجر، وهى التى يذكرها ابن بطوطة فى رحلاته، ويصف أحوالها وأحوال المناطق المتاخمة لها، وذلك حينما زارها فى سنة ١٣٥٣م، وكان الإسلام قد غلب على معظم أهلها.

ثم وصلت تعاليم الإسلام بعد ذلك إلى السنغال وغيرها من المناطق المجاورة على يد الرواد والتجار المغاربة، وكانت قد انتشرت شمالا فى منطقة موريتانيا منذ القرن الحادى عشر، على يد القبائل المرابطية المتحمسة من لمتونة وغيرها، ونفذ الرواد المسلمون بعد ذلك إلى أشانتى وغرب افريقية، بحثاً عن الذهب، وهناك انتشر الإسلام على يدهم أينما حلوا.

وأخذ الإسلام ينتشر فى شرقى إفريقية منذ القرن الثامن الميلادى على يد بعض المستعمرين العرب، والتجار المسلمين الذين قدموا إلى تلك الأنحاء من ثغور الخليج العربى، وإلى ثغور إفريقية الشرقية وجزائرها، ونظموا العلائق والمعاملات التجارية مع جزيرة مدغشقر وسواحل الصومال. وممبسة، وجزيرة زنجبار، وموزنبيق، ونمت بعثاتهم التجارية تباعاً، ونفذت غرباً إلى روديسيا، التى كانت فى بعض العصور، مملكة سوداء قوية مستقلة.

وكان لانتشار الإسلام بين القبائل السوداء فى مختلف أنحاء القارة الإفريقية آثار طيبة، فقد حررهم من كثير من الرسوم والخرافات الوثنية المثيرة، ورفع مستوى حياتهم من الناحيتين المادية والأدبية.

هذا وقد لبث الإسلام قروناً يسيطر على معظم أنحاء شبه الجزيرة الإسبانية، ويبث فيها أضواء حضارته الرفيعة على يد الأمة الأندلسية المجيدة. فلما شاء القدر أن تطوى صفحة الأندلس والإسلام من اسبانيا، كان الإسلام ينفذ إلى أنحاء القارة الأوربية من مداخل أخرى. فنراه فى القرن الثالث عشر الميلادى، ينفذ إلى جنوبى أوربا وشرقها على يد غزوات التتار لشرقى روسيا، ودفع التتار بعد ذلك غزواتهم إلى بلاد القوقاز وشبه جزيرة القرم، ووصلوا فى تقدمهم حتى مشارف بولونيا.

ولما افتتح الترك العثمانيون قسطنطينية، ودفعوا غزواتهم إلى قلب البلقان وحوض الدانوب، وبولونيا والبوكرين، كانت الدعوة الإسلامية تنتشر فى تلك

الأنحاء مع هذه الغزوات. بيد أن انتشارها كان محدوداً، ولا يتناسب مع اتساع نطاق الفتوحات العثمانية فى أوربا، بل ولا مع استقرار سلطان الترك العثمانيين فى تلك الأنحاء مدى قرون. والسبب فى ذلك يرجع قبل كل شىء إلى طابع العنف والتخريب، الذى تميزت به الفتوحات العثمانية، وكراهية الشعوب المفتوحة لأن تعتنق دين أولئك الغزاة البرابرة، ويرجع أيضاً إلى أن الحكم العثمانى كانت تنقصه دائماً العناصر الإنشائية للحضارة.

ومن ثم فإنا نجد اليوم فى بلاد البلقان نحو خمسة ملايين مسلم فقط، من ثلاثين مليوناً، مع العلم بأن بلاد البلقان لبثت تحت سيطرة الحكم العثمانى نحو أربعة قرون. وكذلك لا نجد فى المجر وبولونيا ولتوانيا وفنلندة، سوى طوائف مسلمة صغيرة لاتعدو بضعة آلاف.

ونلاحظ أخيرا ما تبديه العقيدة الإسلامية من حيوية وقوة معنوية مدهشة، فى كونها تنتشر فى عصرنا فى عدة من البلاد الغربية العظمى، ذات الحضارات المؤثلة، مثل ألمانيا وانجلترا والنمسا والولايات المتحدة الأمريكية، وذلك دون أن تخدمها أية دعاية أو حركة تبشيرية منظمة. وذلك أن الإسلام يدعو لنفسه ويغزو هذه العقول المستنيرة التى تقبل على اعتناقه، ببساطة مبادئه وديمقراطيته، وتسامحه المؤثر.

حصار العرب لقسطنطينية

سنة ٣٢ و ٤٨ و ٩٩ هـ

٦٥٣ و ٦٦٨ و ٧١٧ م

وثب العرب وثبتهم الأولى بالدولة الرومانية ، فانتزعوا منها الشام ومصر وإفريقيا، ثم نفذوا إلى هضاب آسيا الصغرى، فاجتاحوا الولايات الرومانية الجنوبية، ولم يمض ربع قرن على بدء هذه الحياة الظافرة حتى اقترب العرب من أسوار قسطنطينية عاصمة الدولة الشرقية. ولم يقف تيار الفتح سوى فترة قصيرة شغل العرب خلالها بالفتنة والحروب الداخلية. فلما انقضت الفتنة، عاد العرب إلى استئناف الغزو والفتح فى ظل الدولة الأموية الفتية، فتوغلوا فى أقطار الدولة الشرقية حتى مياه البسفور، وتوغلوا فى إفريقية غرباً حتى شاطئ المحيط، ثم جازوا إلى اسبانيا، فاقتحموا غرب أوربا حتى قلب فرنسا وضفاف اللوار.

غير أن الإسلام وصل فى ظل الدولة الأموية أيضاً إلى ذروة مجده الحربى، ثم خبا تيار ظفره، وكانت ثمة كلمة فصل بينه وبين النصرانية فى المشرق والمغرب. فأما فى المشرق فقد ارتد أمام أسوار قسطنطنية التى رأى أن يجوز منها إلى أوربا بادئ ذى بدء. وأما فى المغرب فقد ارتد أدراجه فى سهول تور وبواتييه، وفتح من غرب أوربا باسبانيا. ولبث فيها قروناً يغالب النصرانية وتغالبه.

كان فتح قسطنطينية مشروع الخلافة الأول، لاقتحام الغرب وسحق النصرانية فى مهادها. وكانت الدولة الشرقية بلا ريب حصن أوربا ومعقل النصرانية فى المشرق. وقد أثخن العرب لأول وثبتهم فى أراضى الدولة الشرقية،

وانتزعوا أهم أقطارها، وتوغلوا فى آسيا الصغرى على مقربة من عاصمتها، فكان فتح قسطنطنية غاية طبيعية لهذه الفتوح.

على أن الرواية الإسلامية تسبغ على هذا المشروع صبغة دينية تستمد من أقوال تنسب إلى النبى ذاته، وهنالك أكثر من حديث يذكر فيه فتح العرب لقسطنطنية، من ذلك الحديث الآتى : «لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق أو بدابق، فيخرج إليهم جيش من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذ، فإذا تصافوا قالت الروم، خلوا بيننا وبين الذين سبوا منا نقاتلهم، فيقول المسلمون لا والله لا نخلى بينكم وبين إخواننا، فيقاتلونهم فيهزم ثلث لا يتوب الله عليهم أبداً، ويقتل ثلث أفضل الشهداء عند الله، ويفتح الثلث لا يفتنون أبداً فيفتحون قسطنطنية... الخ». ومهما كان مبلغ هذه الأحاديث، من الصحة فإنها عنوان ما تسبغه الرواية الإسلامية على مشروع فتح قسطنطنية من لون دينى خاص.

وكانت أول محاولة قام بها العرب لفتح قسطنطنية فى أواخر سنة ٣٢هـ (٦٥٣م) فى خلافة عثمان، فقصدها من البر جيش بقيادة معاوية بن أبى سفيان حاكم الشام يومئذ، واخترق آسيا الصغرى حتى ضفاف البسفور، ويقول لنا ثيوفانس، مؤرخ الدولة البيزنطية، إن أسطولا عربياً بقيادة بُسر بن أرطاة سار فى الوقت نفسه من طرابلس صوب قسطنطينية وهزم الأسطول الرومانى بقيادة الإمبراطور قسطانس الثانى تجاه جبل فينقية (فينكس)، وهلك من الرومان زهاء عشرين ألف، ولكن الأسطول الإسلامى لم يستطع بعدما أصابه من الخسائر أن يسير إلى قسطنطنية فارتد أدراجه. ويضع ثيوفانس تاريخ الحملة، فى سبتمبر سنة ٦٥٣م (صفر سنة ٣٢) متفقا بذلك مع الرواية العربية تقريبا.

وفى سنة ٤٤هـ (٦٦٤م) كانت الحملة الثانية. وكانت الخلافة قد صارت يومئذ إلى معاوية بن أبى سفيان، وقامت الدولة الأموية فى دمشق. وكان استئناف الغزو والفتح إحدى وسائل الزعيم الظافر لتحويل الأنظار عن ظفره،

واشتغال القادة والزعماء الذين يخشى بأسهم عن منافسته ومناوأته، فكانت إعادة الكرة على قسطنطنية واستئناف غزو إفريقية. وكانت الحملة بقيادة عبد الرحمن بن خالد ابن الوليد، فاخترق هضاب الأناضول حتى برجاموس (برجان على مقربة من قسطنطنية، وقاد أمير البحر بُسر بن أرطأة الأسطول حتى مياه المرمرة، ولكن الشتاء دخل قبل أن يتمكن المسلمون من تنفيذ مشروعهم، فقضوا الشتاء فى الأناضول، وقنعوا بالغارات المحلية، ولم يتقدموا فى تلك المرة أيضاً لحصار قسطنطينية.

غير أنه لم تمض أعوام قلائل حتى كان معاوية قد أتم أهبته لافتتاح عاصمة الدولة الشرقية. وكان معاوية قد خبر بنفسه مفاوز آسيا الصغرى ومسالكها، وعاث فيها بقواته أكثر من مرة، ووقف على أحوال الدولة الشرقية ومبلغ ما انتهت إليه من الإنحلال والضعف. فحشد فى تلك المرة أعظم قواته، وحشد أسطولا ضخماً فى ثغور مصر والشام، وبعث طليعة قواته بقيادة فضالة بن عبيد الأنصارى، فاخترق الأناضول (سنة ٤٨هـ-٦٦٨م) وافتتح حصونها حتى خليقدونه. وفى العام التالى (٤٩هـ- ٦٦٩م) سار إلى قسطنطينية جيش ضخم بقيادة سفيان بن عوف ومعه يزيد بن معاوية وجماعة من أكابر الصحابة والأنصار، منهم عبد الله بن عباس،، وابن عمر، وابن الزبير، وأبو أيوب الأنصارى. وسار الأسطول بقيادة أمير البحر بسر بن أرطاه واخترق مضيق هيليس (الدردنيل) دون مقاومة، ونقل الجيش إلى الشاطئ الأوربى بالقرب من قصر هيدومون على قيد أميال قليلة من عاصمة الدولة الشرقية.

وتختلف الرواية البيزنطية، كما تختلف الرواية العربية فى تاريخ هذا الحصار الشهير، فيقول ثيوفانس إن العرب بدأوا زحفهم على قسطنطنية فى خريف سنة ٦٦٦م (٤٦هـ)، وتقول رواية أخرى إن بدأ الحصار كان فى ربيع سنة ٦٦٨م (٤٨هـ) أو فى ربيع سنة ٦٧٢م (٥٣ هـ). والمرجح على أى حال أن

العرب كانوا تحت أسوار قسطنطينية منذ سنة ٥٠ هـ (٦٧٠م). وكان الجالس على عرش الدولة الشرقية يومئذ الإمبراطور قسطنطين الرابع، وكان قد وقف على أنباء هذه الغزوة منذ إعدادها، واستعد لردها بكل ما وسعت وسائل الدفاع.

وهكذا بدأ العرب أعظم معاركهم البحرية بمحاصرة قسطنطينية، فطوقوها من البر والبحر بصفوف كثيفة من السفن والجند، ولبثوا عدة أيام من الفجر إلى المساء يهاجمون واجهتها الشرقية حتى القرن الذهبى دون أن يظفروا بالدنو من أسوارها وأبراجها المنيعة.

والواقع أن المسلمين أخطئوا تقدير منعة قسطنطينية، ومنعة وسائل الدفاع الرومانية، وما أثاره الخطر الداهم فى أنفس الرومانيين من الشجاعة والاستبسال فى الدفاع عن حاضرتهم وآخر معاقلهم، والذود عن دينهم ومدينتهم، وهالهم جلد العدو وصبره، وراعهم بالأخص فتك النار اليونانية بسفنهم وصفوفهم وعنادهم.

وكان اليونانيون قد وقفوا على سرها قبل ذلك بقليل فكانت لديهم أنجع وسائل الدفاع. ولما لحق الإعياء صفوف المسلمين من تلك الهجمات العقيمة، تحولوا إلى نهب ضفاف البروبونتس (المرمه الأسيوية) والأوربية، وبعد أن استمروا فى حصار المدينة بحرا من أبريل إلى سبتمبر، ارتدوا عند اقتراب الشتاء إلى جزيرة كيزكوس الواقعة على قيد ثمانين ميلا من قسطنطينية حيث أنشئوا مراكزهم العامة، فقضوا بها الشتاء.

غير أنهم عاودوا الحصار فى صيف العام التالى، وعاودوا الارتداد فى الشتاء إلى كيزكوس. واستمروا كذلك يعاودون حصار قسطنطينية كل صيف، ويرتدون عنها كل شتاء ستة أو سبعة أعوام متوالية قبل أن يؤمنوا بفشل محاولتهم، أو يفكروا فى العدول عن مشروعهم الضخم.

ولكن الجهود المتوالية أضعفت قواهم واستنفدت جلدهم، وفقدوا كثيرا من رجالهم وسفنهم ومؤنهم ودوابهم، وعصف الفشل المستمر بحماستهم، وسرى المرض والاختلال إلى صفوفهم. فقرروا الانسحاب العام فى النهاية (سنة ٦٧٨م-٥٨هـ). واخترق الجيش الأناضول نحو الجنوب بعد أن مزقت صفوفه بالحصار والمطاردة.

وأغرقت العواصف كثيرا من سفن الأسطول حين ارتداده، وفقد العرب فى تلك المعارك المشهودة زهاء ثلاثين ألف مقاتل، وقتل عدة من الزعماء، منهم الصحابى الشهير أبو أيوب الأنصارى الذى قتل ودفن تحت أسوار قسطنطينية فى الهجوم الأول أو الثانى (سنة ٥١ أو ٥٢هـ). وقيل إن قبره اكتشف بعد ذلك بثمانية قرون حينما فتح الترك العثمانيون قسطنطينية سنة ١٤٥٣م، واعتبر هذا الاكتشاف حادثا دينياً كبيراً.

وكانت حوادث هذا الحصار المشهود، وما لقى العرب فيه من الفشل، وما أصاب قواتهم وأهباتهم الزاخرة من التمزق، عوامل أحيت هيبة الحرب الرومانية فى الشرق والغرب، وأسبلت سحابة مؤقتة على مجد العرب، فعاد الخليفة الأموى (معاوية) إلى التفاهم مع الإمبراطور الرومانى، وعقد الصلح بين الفريقين مدى أربعين عاما.

ولكن الخلافة كانت ترمى بغزو قسطنطينية إلى أكثر من الاستيلاء على عاصمة الدولة الشرقية. وكانت غايتهاأجل خطراً وأبعد مدى. فقد كانت ترى أن تجوز قسطنطينية إلى الغرب، وأن تحمل دعوة الإسلام إلى أمم النصرانية، وأن تفرض عليها سيادته.

فلما ارتدت جيوشها أمام أسوار قسطنطينية، شقت إلى الغرب وإلى النصرانية طريقاً آخر، فجازت جيوشها إلى اسبانيا بعد أن اجتاحت شمال افريقية، وافتتحت مملكة القوط النصرانية، واقتحمت جبال البرنيه إلى غاليس، وفكر موسى بن نصير منظم هذا الفتح أن يخترق أوربا النصرانية من المغرب إلى المشرق، وأن يصل إلى دمشق من طريق قسطنطينية، فيحقق بذلك مشروع الخلافة فى القضاء على النصرانية والدولة الشرقية معاً. ولكن تردد الخلافة وتفرق الكلمة قضياً على ذلك الحلم البديع، فوقف تيار الفتح الإسلامى عند جنوب فرنسا.

غير أن السياسة الأموية لبثت ترعى مشروعها فى غزو قسطنطينية واقتحام أوربا عن طريق الدولة الشرقية. ففى سنة ٩٦هـ (٧١٥م) تولى الخلافة سليمان ابن عبد الملك وكانت الدولة الأموية قد وصلت عندئذ إلى ذروة قوتها وبأسها ومجدها الحربى.

وكانت الدولة الشرقية قد انتهت بالعكس إلى شر ضروب الإنحلال والضعف والفوضى، وغدا عرشها فريسة هينة تتناويه عواصف الولاية والعزل بسرعة، حتى عزل من قياصرتها ستة فى نحو عشرين عاماً فقط، واقتحم البلغار والصقالبة أقاليمها الشمالية وأشرفوا على أسوار العاصمة.

واقتحم العرب آسيا الصغرى وامتدت غزواتهم إلى ضفاف البسفور. وكانت قسطنطينية حينما ارتقى سليمان عرش الخلافة، مسرحا للثورة والحرب الأهلية، وقد تعاقب على عرشها ثلاثة من القياصرة الغاصبين فى ستة أعوام فقط، أولهم أنستاسيوس الثانى (نسطاس)، انتزع العرش سنة ٧١١م، ثم خلفه المتغلب عليه تيودسيوس الثالث (تيدوس)، ثم ليون الثالث (إليون) الذى انتزع العرش فى أوائل سنة ٧١٧م.

رأى سليمان بن عبد الملك منذ ولايته أن ما تحوزه الدولة الشرقية من عوامل الضعف والإنحلال مما يشجع على استئناف الكرة على قسطنطينية. ويقال إن بعض الفقهاء حدثوه بأن الذى يفتتح قسطنطينية إسمه اسم نبى، ولم يكن فى خلفاء بنى أمية من ينطبق عليه هذا الوصف غيره. وهنا أيضا نلمس فى الرواية العربية قصد التنويه بالصبغة الدينية لهذا المشروع. وحشد سليمان قوات عظيمة فى البر والبحر، وزودها بمقادير هائلة من المؤن والذخائر والعدد وآلات الحصار لحرب الشتاء والصيف. وسار سليمان إلى دابق، وانتدب أخاه مسلمة بن عبد الملك لقيادة الحملة، وأمره ألا يبرح قسطنطينية حتى يفتحها أو يأتيه أمره.

فسار مسلمة فى أوائل سنة ٩٨هـ (سبتمبر أو اكتوبر سنة ٧١٦م) مخترقا هضاب الأناضول، وافتتح عدة من مدن العدو وحصونه، ثم قصد عمورية (أموريوم) قاعدة الأناضول فحاصرها. وكان حاكمها والمدافع عنها ليون الأسورى أو فى الرواية العربية ليون أو إليون المرعشى.

وكان ليون جندياً مغامراً وافر الذكاء والجرأة، وكان يتطلع إلى عرش قسطنطينية ويدبر أمره لانتزاعه من صاحبه الإمبراطور تيودسيوس الثالث، فتفاهم مع مسلمة على خطة وشروط تختلف فى تصويرها الروايات المختلفة.

فتقول الرواية العربية إن ليون تعهد لمسلمة بأن يرشده ويعاونه فى فتح قسطنطينية، وإنه قطع من قبل مثل هذا العهد لسليمان بن عبد الملك، وأغراه بإعداد الحملة وأقنعه بسهولة المشروع.

وتقول الرواية البيزنطية إن ليون عاون العرب بالإرشاد والنصح، ولكنه لم يقصد قط أن يسلمهم قسطنطينية، وإنما أراد أن يمهد الطريق لنفسه بإضعاف قوات الدولة وشغلها برد الفاتحين. واستطاع ليون فى الواقع أن ينتهز الفرصة لنفسه فنادى بنفسه قيصراً فى عمورية، ثم سار على رأس قواته صوب

قسطنطينية، وهزم الجيش الذى بعثه تيودسيوس لقتاله، فنزل الإمبراطور عن عرشه وارتد إلى أحد الأديار، ودخل ليون قسطنطينية بجيشه الظافر، وتوج إمبراطوراً للدولة الرومانية باسم ليون الثالث فى مارس سنة ٧١٧م.

وسار مسلمة بجيشه الزاخر إلى قسطنطينية فى ربيع هذا العام (أواخر سنة ٩٨ هـ-٧١٧م)، وسار الأسطول إلى مياه المرمره، وأظهر سليمان منتهى العزم والأهبة، فأمد أخاه بقوات أخرى.

وأخذ يحشد المدد فى جميع الجهات والثغور. واستولى مسلمة على برجاموس (برجان)، ثم أشرف على قسطنطينية فى قوة من أكبر وأعظم القوى التى جردها الإسلام على النصرانية.

وتقدر الرواية البيزنطية جيش مسلمة وحده بثمانين ألف مقاتل، وتقدر ما اجتمع للعرب تحت أسوار قسطنطينية فى البر والبحر بمائة وثمانين ألف.

وعبر مسلمة البحر عند أبيدوس (أبدس) حيث التقى بالأسطول العربى، ثم نقل جيشه إلى ضفة الدردنيل (الهيليس) الأوربية، وسار على ضفاف المرمره حتى قسطنطينية، وطوقها من البر والبحر بقوات كثيفة، ونصب عليها المجانيق الضخمة.

وحاول المسلمون بادئ ذى بدء أن يقتحموا المدينة بالهجوم والمفاجأة، ولكنهم أخفقوا بعد عدة جهود ومحاولات عنيفة، وردتهم مناعة الأسوار، ومهارة المهندسين البيزنطيين، ووفرة آلات الدفاع من قاذفات النار اليونانية والأحجار،

فعول مسلمة عندئذ على أخذها بالحصار الصارم المستمر، فشدد من حولها الضغط، وقطع جميع علائقها من البر، وحفر حول معسكره خندقاً عميقاً، وأقام حوله سداً منيعاً، وأطلق سريات من الجند لإتلاف المزارع والمروج القريبة، واقتناص جميع الأقوات التى يمكن أن تتسرب إلى المدينة المحصورة. وقطع الأسطول علائق المدينة من البحر.

وكان هذا أعظم أسطول حشده العرب، بل لعله أعظم قوة بحرية استطاعت أن تحشدها دولة إسلامية، وقد بلغت سفنه طبقا للرواية البيزنطية، ألفا وثمانمائة سفينة كبيرة للحرب والنقل. ورأى أمير البحر سليمان بن معاد الأنطاكى أن يقسم الأسطول إلى قسمين كبيرين، رابط أولهما على الشاطئ الأسيوى فى ثغرى أتربيوس وأنتيموس ليقطع سير الأقوات الواردة من بحر الأرخبيل(إيجه).

واحتل الآخر ساحل البسفور الأوربى تجاه لسان غلطه ليقطع كل صلة للمدينة بثغور البحر الأسود ولا سيما شرمسون وطرابزون. ووقعت أول معركة بحرية حينما سار أسطول الشاطئ الأوربى إلى مرافئه، فقد عصفت به الريح والموج عصفاً هائلا، فاصطدمت السفن بعضها ببعض.

وانتهز البيزنطيون هذه الفرصة فوجهوا إليها النار اليونانية، فأحرقوا بعضها ودفعوا البعض الآخر إلى أسفل السور، فاعتزم أمير البحر أن ينتقم لتلك الهزيمة الجزئية بنصر كامل. فحشد أمنع سفنه وزودها بسريات من خيرة جنده شجاعة وأهبة، وزحف على أسوار المدينة وبذل جهداً عنيفاً لاقتحامها، ولكن ليون كان على قدم الحذر والأهبة، فرد الهاجمين بسيل من النار الحامية، وسحب سليمان أسطوله المرابط فى الشاطئ الأوربى إلى خليج سوستنيان.

بدأ المسلمون حصارهم الثانى لقسطنطينية فى ١٥ أغسطس سنة ٧١٧م (ثانى المحرم سنة ٩٩) أى قبل دخول الشتاء بقليل. واستعد مسلمة لحصار صارم طويل الأمد، فجمع حوله المؤن حتى صارت كالجبال، وأنشأ لجنده أسراباً وبيوتاً من الخشب. وكان مسلمة رغم جرأته وشجاعته عاجزاً قليل الخبرة بفنون الحرب، كثير الإيمان، سريع الاغترار، ولم يكن بين معاونيه قواد من الطراز الأول.

والظاهر أنه كان يعتمد على تسليم سريع من جانب البيزنطيين، وأنه خدع بما كان يبذله له ليون الثالث من الوعود، وقد كان ليون كلما اشتد الحصار يلجأ إلى مفاوضة مسلمة ومصانعته، فتخف وطأة الحصار وتتسرب المؤن إلى المدينة.

وتقول الرواية العربية إن ليون تعهد فعلا بأن يسلمه المدينة، وخزائن الروم، وكل الذخائر، وأن يتولى ملكه باسم الخليفة، وأن يدفع الجزية. ولكن لا ريب أن ليون لم يبذل مثل هذه الوعود إلا نفاقاً وغدراً واكتسابا للوقت.

ولم تمض أسابيع قلائل على بدء الحصار حتى توفى الخليفة سليمان بن عبد الملك (١٠ صفر سنة ٩٩) قبل أن يستطيع إمداد مسلمة، ثم دخل الشتاء بقره، وكان شديداً قاسياً، فلبثت الأنحاء المجاورة للمدينة عدة أسابيع مغطاة بالثلج والجليد، وذهب كثير من خيرة الجند المحاصرين ضحية البرد وأهواله، ونفقت معظم الخيل والدواب، وعصفت ندرة الأقوات والسعى إلى تحصيلها، بنظام الصفوف، ودب الخلل إلى الأسطول بموت أميره سليمان.

أما البيزنطيون فقضوا الشتاء داخل الأسوار فى أمن وسلام. وفى الربيع التالى قدم إلى مسلمة أسطول ضخم يحمل الأقوات من الاسكندرية فدخل البفسور ورسا فى كالوس أرجوس.

ثم جاء فى أثره أسطول آخر من افريقية ورسا فى شاطئ بتنيا (شرقى المرمره). وكان معظم بحارة هذه السفن القادمة من الاسكندرية وافريقية من النصارى المرتزقة، فراعتهم حال المعسكر الإسلامى وخشوا عاقبة إنحلاله وضعفه، فتآمر كثير منهم على الفرار، واستقلوا القوارب تحت جنح الظلام، ودخلوا المدينة وقصوا على الإمبراطور حقيقة الحال فى معسكر المسلمين، وما نزل بهم من الشدائد والصعاب.

فعجل ليون بانتهاز الفرصة ودفع إلى خارج الميناء بقسم من سفنه مزود بقاذفات النار، فانقض على سفن المسلمين وأوقع فيها الاضطراب والخلل، وأحرق بعضها وأسر البعض الآخر، وجنح كثير منها إلى الشاطئ.

وبدلت الحال عندئذ، فحل الضيق والقحط بمعسكر المسلمين، بينما تنفس المحصورون الصعداء، ولكن مسلمة استمر فى حصار المدينة براً، وألح فى ذلك حتى مزقت سراياه، وعمت المجاعة، والقحط، واستنفدت جميع المؤن والدواب.

ولقى الجند أروع الشدائد والأهوال «وأكلوا الدواب والجلود وأصول الشجر والورق وكل شىء غير التراب». ثم وصلت أوامر الخليفة الجديد (عمر بن عبد العزيز) برفع الحصار والعودة. فقرر مسلمة الإنسحاب، ونقل بقية جيشه إلى الشاطئ الأسيوى على بقية أسطوله، ورفع العرب حصارهم الثانى عن قسطنطينية فى ١٥ أغسطس سنة ٧١٨م (ثانى عشر المحرم سنة مائة) بعد أن حطمت أمام أسوارها قوة من أضخم وأعظم القوى التى استطاع الإسلام أن يجردها على النصرانية. وارتدت بقية الجيش جنوباً إلى دمشق. وأما بقية الأسطول فدهمتها العواصف الثائرة فى بحر الأرخبيل وفرقتها، وانقض اليونانيون فى الجزائر على وحداتها فأغرقوا كثيراً منها، حتى قيل بأنه لم يعد من أسطول مسلمة الضخم إلى ثغور الشام سوى سفن قلائل.

وهكذا ارتد الإسلام أما أسوار قسطنطينية فى حملتيه العظيمتين، وأخفقت الخلافة فى مشروعها الضخم، وقضى على آمالها فى اقتحام الغرب من طريق المشرق.

ويرجع هذا الإخفاق إلى أسباب عدة : منها حداثة عهد العرب بالمعارك البحرية، وقسوة الإقليم إلى درجة لم يعتدها جند الجنوب الذين نشئوا فى أقاليم الشام ومصر وافريقية، ويرجع بالأخص إلى براعة البيزنطيين فى أساليب الدفاع عن الحصون والمدن المحصورة، وإلى حذقهم فى استعمال النار اليونانية. وكان

فن الحرب لا يزال فى الدولة الشرقية محتفظاً بتفوقه رغم ذلك الإنحلال الذى سرى إلى جميع نواحى حياتها الاجتماعية والاقتصادية، هذا إلى منعة أسوار قسطنطينية ووفرة وسائل الدفاع والآلات التى زودت بها لرد الغزاة.

كان هذا الإخفاق حاسماً فى تاريخ الإسلام، عميق الأثر فى مصايره، وكان حصار قسطنطينية أعظم مجهود بذله الإسلام ليحمل لواءه إلى أمم الغرب فى وقت كان يسودها فيه التفرق والضعف، وتتنازع الوثنية والنصرانية سيادتها الروحية.

ولم يكن توغل العرب فى سهول فرنسا حتى ضفاف اللوار بعد ذلك بقليل (سنة ١١٤هـ-٧٣٢م) مقروناً بنفس الأهبة والخطورة، ولا بنفس العزم والإصرار التى اقترنت بها حملات قسطنينية، وإن كان هذا التوغل قد تم تنفيذاً لنفس السياسة، وتحقيقاً لنفس الغاية التى قصدت الخلافة إلى تحقيقها.

ولم تحاول الخلافة بعد ذلك أن تعمل جادة لافتتاح قسطنطينية، وإن كانت جيوشها قد اقتربت بعد ذلك غير مرة من عاصمة الدولة الشرقية ووقعت أشهر هذه الغزوات أيام الخليفة المهدى حيث سار ولده هارون الرشيد فى صيف سنة ١٦٥هـ (٧٨٣م) غازياً لأراضى الدولة البيزنطية، واخترق هضاب الأناضول حتى أشرف على ضفاف البسفور الآسيوية، وعسكر فوق تلال خريسبوليس (اسكوتارى) فى مواجهة قسطنطينية.

وكان على عرش القياصرة يومئذ طفل هو قسطنطين السادس، ومقاليد الحكم بيد أمه الإمبراطورة إيرينى (رينى)[1]، وهزم المسلمون البيزنطيين هزيمة شديدة، واضطرت إيرينى أن تعقد الصلح وأن تتعهد بدفع جزية سنوية. ولم يحاول المسلمون فى هذه المرة أن يضربوا الحصار حول قسطنطينية بالرغم من وقوفهم تحت أسوارها، مما يدل على أن الخلافة لم تعد عندئذ تداعب مشروعها القديم فى افتتاحها.

ولو ظفر العرب بالاستيلاء على قسطنطينية لتغيرت مصاير أوربا ومصاير التاريخ، ولنشأت فى أوربا أمم غير الأمم، وقام دين غير النصرانية، ولكان مرجحاً أن يسود الإسلام والعربية أمم الشمال. واجتمعت أمم الشمال على ضفاف نهر اللوار لترد سيل الإسلام والعرب. وسنرى كيف يهتف مؤرخو الغرب بخلاص أوربا والنصرانية من قبضة الإسلام فى موقعة تور (بلاط الشهداء). وبينا يقول لنا جيبون «إن حوادث هذه الموقعة قد أنقذت أسلافنا البريطانيين وجيراننا الغاليين من نير القرآن المدنى والدينى، واستبقت لبهاء رومة وجلالها، وأخرت استعباد قسطنطينية، وشدت بأزر النصرانية، وأوقعت بأعدائها بذور التفرق والإنحلال، إذا بالمؤرخ فنلى يرى بالعكس أن خلاص أوربا والنصرانية كان أمام أسوار قسطنينية وعلى يد ليون الثالث، ويقول لنا : «إن أثرة الكتاب الغاليين قد عظمت من شأن تغلب كارل مارتل على حملة ناهبة من عرب اسبانيا، وصورته كانتصار باهر، ونسبت خلاص أوربا من نير العرب إلى شجاعة الفرنج، فى حين أن حجاباً ألقى على عبقرية ليون الثالث وعزمه، مع أنه نشأ جندياً يبحث وراء طالعه ولم يكد يجلس على العرش حتى أحبط خطط الفتح التى أنفق الوليد وسليمان طويلا فى تدبيرها».

وعلى أى حال فقد كانت قسطنطينية معقل النصرانية من المشرق، وكانت ضفاف اللوار مرد الفتوح العربية فى غرب أوربا، وأمام أسوار قسطنطينية وعلى ضفاف اللوار، كانت رجعة الإسلام وخلاص النصرانية، وكانت كلمة الفصل فى مصاير الإسلام والنصرانية.

بلاط الشهداء

١١٤هـ- ٧٣٢م

فى أواخر أكتوبر سنة ١٩٣٢، كان قد انقضى ألف ومائتا عام كاملة على حادث كان له أعظم الآثار وأبعدها فى تاريخ الإسلام والنصرانية، بل كان كلمة الفصل الحاسمة فى مصاير الإسلام والنصرانية.

هذا الحادث الجلل، هو موقعة بلاط الشهداء التى تعرف فى التواريخ الفرنجية بموقعة «تور أو بواتييه»، والتى نشبت بين العرب والفرنج فى سهول فرنسا على ضفاف نهر اللوار، فى اكتوبر سنة ٧٣٢م.

وقد مضى على بلاط الشهداء أكثر من ألف ومائتى عام، وتغير وجه التاريخ، ومحيت آثار الإسلام من غرب أوربا ومن الأندلس منذ أكثر من أربعة قرون ونصف. ومع ذلك فإن ذكريات بلاط الشهداء ما زالت حية فى الغرب، وما زالت وقائعها وآثارها التاريخية موضع التقدير والتأمل من جانب المؤرخ الغربى. وكان انقضاء الألف ومائتى عام على حدوثها، ذكرى جديدة نظمت من أجلها الاحتفالات فى فرنسا، وكانت مثار تأملات وتعليقات جديدة، تدور كلها حول الصيحة التاريخية القديمة :

لو لم يُرد العرب والإسلام، فى سهول تور، لما كانت ثمة أوربا نصرانية، بل لعله ما بقيت نصرانية على الإطلاق، ولكان الإسلام اليوم يسود أوربا، وكانت أوربا الشمالية تموج اليوم بأبناء الشعوب السامية، ذوى العيون الدعج والشعور السود، بدلا من الشعوب الآرية ذوى الشقرة والعيون الزرقاء.

وهذا الحادث الجلل، وهذه الذكريات والتأملات، هى موضوعنا فى هذا الفصل. وسنعنى بشرح مقدماته وتفاصيله على ضوء أوثق المصادر العربية

والغربية، وسيرى القارئ بعد إذ يتلو هذه التفاصيل، أن التاريخ الإسلامى كله، قد لا يقدم إلينا حادثا له من الخطورة والأهمية وبعد الأثر، ما لموقعة بلاط الشهداء.

افتتح العرب اسبانيا، وغنموا ملك القوط فى سنة (٩١-٩٢هـ) (٧١٠-٧١١م) على يد الفاتحين العظيمين طارق بن زياد وموسى بن نصير، فى عهد الوليد بن عبد الملك : وأوضحت اسبانيا من ذلك التاريخ كمصر وافريقية، ولاية من ولايات الخلافة الأموية، وتعاقب عليها الولاة من قبل الخليفة الأموى، ينظمون شئونها، ويدفعون الغزوات الإسلامية إلى ما وراء جبال البرنيه، فلم تمض عشرون عاماً على افتتاح الأندلس، حتى استطاع العرب أن يجتاحوا ولايات فرنسا الجنوبية، وأن يبسطوا سلطانهم على سهو ل الرون وأن يتقدموا بعيداً فى قلب فرنسا.

ولكن اسبانيا المسلمة على حداثة عهدها، لم تلبث أن اضطرمت بالفتن والمنازعات الداخلية. ولم تلبث النصرانية أن أفاقت من صدمتها الأولى، وتأهبت للنضال والمقاومة، ولقي العرب بعد فورة الظفر التى اجتاحت جنوب فرنسا، هزيمتهم الأولى فى موقعة تولوشة (تولوز) فى ذى الحجة سنة ١٠٢هـ (يونيه سنة ٧٢٢م) وقتل أميرهم وقائدهم السمح بن مالك، فارتدوا إلى سبتمانيا بعد أن فقدوا زهرة جندهم، وسقط منهم عدة من الزعماء الأكابر.

وقطعت الأندلس بعد ذلك زهاء عشرة أعوام من الاضطراب والفوضى، وخبت ثورة الفتح وشغل الولاة بالشئون والمنازعات الداخلية، حتى عين عبد الرحمن ابن عبد الله الغافقى والياً للأندلس فى صفر سنة ١١٣هـ (ابريل سنة ٧٣١م).

ولسنا نعرف كثيراً عن سيرة الغافقى الأولى، ولكنا نعرف أنه من التابعين

الذين دخلوا الأندلس، ثم نراه بعد ذلك من زعماء الثمانية وكبار الجند، ونراه فى سنة ١٠٢هـ، على أثر موقعة تولوشة ومقتل السمح بن مالك، يتولى قيادة الجيش وإمارة الأندلس باختيار الزعماء والقادة مدى أشهر، ثم لا نسمع عنه بعد ذلك، حتى تولى إمارة الأندلس للمرة الثانية من قبل الخليفة فى سنة ١١٣هـ.

على أن الذى لا ريب فيه هو أن عبد الرحمن الغافقى كان جندياً عظيما، ظهرت مواهبه الحربية فى غزوات غاليس، وحاكماً قديراً، بارعاً فى شئون الحكم والإدارة، ومصلحاً مستنيراً يضطرم رغبة فى الإصلاح.

بل كان بلا ريب أعظم ولاة الأندلس وأقدرهم جميعاً. وتجمع الرواية الإسلامية على تقديره والتنويه برفيع خلاله، والإشادة بعدله وحلمه وتقواه، فرحبت الأندلس قاطبة بتعيينه، وأحبه الجند لعدله ورفقه ولينه، وجمعت هيبته كلمة القبائل، فتراضت مضر وحمير، وساد الوئام نوعاً فى الإدارة والجيش، واستقبلت الأندلس عهداً جديداً.

وبدأ عبد الرحمن ولايته بزيارة الأقاليم المختلفة، فنظم شئونها وعهد بادارتها إلى ذوى الكفاية والعدل، وقمع الفتن والمظالم ما استطاع، ورد إلى النصارى كنائسهم وأملاكهم المغصوبة، وعدل نظام الضرائب وفرضها على الجميع بالعدل والمساواة، وقضي صدر ولايته فى إصلاح الإدارة وتدارك ما سرى إليها فى عهد أسلافه من عوامل الاضطراب والخلل، وعنى بإصلاح الجيش وتنظيمه عناية خاصة، فحشد الصفوف من مختلف الولايات، وأنشأ فرقاً جديدة مختارة من فرسان البربر بإشراف نخبة من الضباط العرب، وحصن القواعد والثغور والشمالية، وتأهب لإخماد كل نزعة إلى الخروج والثورة.

وكانت الثورة توشك أن تنقض فى الواقع فى الشمال، وبطلها فى تلك المرة زعيم مسلم هو حاكم الولايات الشمالية، وهو الذى تسميه الرواية العربية «منوسة» والإفرنجية Munuza أو Munez .

وقد كان منوسة فيما يبدو من زعما البربر الذين دخلوا الأندلس عند الفتح من طارق. وقد عين فيما بعد حاكما لولايات البرنيه وسبتمانيا .

وقد كان الخلاف يضطرم منذ الفتح بين العرب والبربر وكان البربر يحقدون على العرب إذ يرون أنهم قاموا بمعظم أعباء الفتح، واستأثر العرب دونهم بالمغانم الكبيرة ومناصب الرياسة.

وكان منوسة كثير الأطماع شديد التعصب لبنى جنسه، وكان يطمع أن يفوز بولاية الأندلس أو بالتغلب عليها بصورة من الصور، ومن ثم فقد أخذ يترقب الفرص للخروج والثورة.

وكان أثناء غاراته أو رحلاته فى أكوتين قد اتصل بأميرها الدوق أودو وتفاهم معه. وكان الدوق مذ رأى خطر الفتح الإسلامى يهدد ملكه يسعى إلى مهادنة المسلمين، وقد فاوضهم فعلا منذ اقتحموا أراضيه، فانتهز كارل مارتل محافظ القصر الفرنجى هذه الفرصة لإعلان الحرب على الدوق، وكان يخشى نفوذه واستقلاله، وغزا أكوتين مرتين وهزم الدوق، فكان أودو في الواقع بين نارين، يخشى الفرنج من الشمال، والعرب من الجنوب. وكانت جيوش كارل مارتل تهدده وتعيث فى أرضه (سنة ٧٣١م) فى نفس الوقت الذى سعى فيه منوسة لمحالفته والاستعانة به على تنفيذ مشروعه فى الخروج على حكومة الأندلس، والاستقلال بحكم الولايات الشمالية. فرحب الدوق بهذا التحالف وقدم ابنته الحسناء لامبجيا عروساً لمنوسة. وفى بعض الروايات أن منوسة أسر إبنة الدوق فى بعض غاراته على أكوتين ثم هام بها حباً وتزوج بها .

وعلى أى حال فقد وثقت المصاهرة عرى التحالف بين الدوق والزعيم المسلم. ورأى منوسة كتماناً لمشروعه أن يسبغ على هذا الاتفاق صفة هدنة عقدت بينه وبين الفرنج.

ولكن عبد الرحمن ارتاب فى أمر الثائر ونياته، وأبى إقرار الهدنة التى عقدها، وأرسل إلى الشمال جيشاً بقيادة ابن زيان للتحقق والتحوط لسلامة الولايات الشمالية، ففر منوسة من مقامه بمدينة الباب الواقعة على البرنيه إلى شعب الجبال الداخلية، فطارده ابن زيان من صخرة إلى صخرة حتى أخذ وقتل مدافعا عن نفسه، وأسرت زوجه لامبجيا وأرسلت إلى بلاط دمشق حيث زوجت هنالك من أمير مسلم.

ولما رأى أودو ما حل بحليفه، واستشعر الخطر الداهم ، تأهب للدفاع عن مملكته، وبدأ الفرنج والقوط فى الولايات الشمالية بالتحرك لمهاجمة المواقع الإسلامية. وكان عبد الرحمن يتوق إلى الانتقام لمقتل السمح وهزيمة المسلمين عند أسوار تولوشة، ويتخذ العدة منذ بدء ولايته لاجتياح مملكة الفرنج كلها.

فلما رأى الخطر محدقاً بالولايات الشمالية لم ير بدأ من السير إلى الشمال قبل أن يستكمل كل أهبته. على أنه استطاع أن يجمع أعظم جيش سيره المسلمون إلى غاليس (فرنسا) منذ الفتح.

وفى أوائل سنة ٧٣٢م (أوائل سنة ١١٤هـ) سار عبد الرحمن إلى الشمال مخترقاً أراجوان (الثغر الأعلى) ونافار (بلاد البشكنس) ودخل فرنسا فى ربيع سنة ٧٣٢م، وزحف توا على مدينة أرل الواقعة على نهر الرون لتخلفها عن أداء الجزية، واستولى عليها بعد معركة عنيفة نشبت على ضفاف النهر بينه وبين قوات الدوق أودو. ثم زحف غرباً وعبر نهر الجارون.

وانقض المسلمون كالسيل على ولاية أكوتين يثخنون فى مدنها وضياعها،

فحاول أودو أن يقف زحفهم، والتقى الفريقان على ضفاف الدردون فهزم الدوق هزيمة فادحة ومزق جيشه شر ممزق.

قال إيزيدور الباجى : «والله وحده يعلم كم قتل فى تلك الموقعة من النصارى». وطارد عبد الرحمن الدوق حتى عاصمته بوردو (بردال) واستولى عليها بعد حصار قصير، وفر الدوق فى نفر من صحبه إلى الشمال، وسقطت أكوتين كلها فى يد المسلمين.

ثم ارتد عبد الرحمن نحو الرون مرة أخرى، واخترق الجيش الإسلامى برجونية، واستولى على ليون وبيزانصون، ووصل سرياته حتى صانص التى تبعد عن باريس نحو مائة ميل فقط. وارتد عبد الرحمن بعد ذلك غرباً إلى ضفاف اللوار ليتم فتح هذه المنطقة ثم يقصد إلى عاصمة الفرنج وتم هذا السير الباهر وافتتح نصف فرنسا الجنوبى كله من الشرق إلى الغرب فى بضعة أشهر فقط.

قال إدوارد جيبون : «وامتد خط الظفر مدى ألف ميل من صخرة طارق إلى ضفاف اللوار. وقد كان اقتحام مثل هذه المسافة يحمل العرب إلى حدود بولونيا وربى إيقوسيا. فليس الرين بأمنع من النيل أو الفرات، ولعل أسطولا عربياً كان يصل إلى منصب التيمز دون معركة بحرية، بل وربما كانت أحكام القرآن تدرس الآن فى معاهد أكسفورد، وربما كانت منابرها تؤيد لمحمد صدق الوحى والرسالة».

أجل كان اللقاء الحاسم بين الإسلام والنصرانية، والشرق والغرب، على وشك الوقوع. وكان اجتياح الإسلام للعالم القديم سريعاً مدهشاً، فإنه لم يمض على وفاة النبى العربى نصف قرن، حتى سحق العرب دولة الفرس الشامخة، واستولوا على معظم أقطار الدولة الرومانية الشرقية من الشام إلى أقاصى المغرب.

وقامت دولة الخلافة قوية راسخة الدعائم فيما بين السند شرقا والمحيط غرباً، وامتدت شمالا حتى قلب آسيا الصغرى. وكانت سياسة الفتح الإسلامى مذ توطدت دولة الإسلام، ترمى إلى غاية أبعد من ضم الأقطار وبسطة السلطان والملك. فقد كان الإسلام يواجه فى الأقطار التى افتتحها من العالم القديم، أنظمة راسخة مدنية واجتماعية تقوم على أصول وثنية أو نصرانية سادت أقطار الدورلة الرومانية منذ القرن الرابع.

فكان على الخلافة أن تهدم هذا الصرح القديم، وأن تقيم فوق أنقاضه فى الأمم المفتوحة نظما حديثة، تستمد روحها من الإسلام، وأن تذلل النصرانية لصولة الإسلام، سواء بنشر الإسلام بين الشعوب المفتوحة، أو باخضاعها من الوجهة المدنية والاجتماعية لنفوذ الإسلام وسلطانه.

وكان هذا الصراع بين الإسلام والنصرانية قصير الأمد فى الشام ومصر وافريقية، فلم يمض نصف قرن حتى غمر الإسلام هذه الأمم بسيادته ونفوذه، وقامت فيها مجتمعات إسلامية قوية شاملة، وغاضت الأنظمة والأديان القديمة. ثم دفعت الخلافة فتوحها إلى أقاصى آسيا الصغرى من المشرق، وجازت إلى اسبانيا من المغرب.

فأما فى المشرق فقد حاول الإسلام أن ينفذ إلى الغرب من طريق قسطنطينية، وبعثت الخلافة جيوشها وأساطيلها الزاخرة إلى عاصمة الدولة الشرقية مراراً، وحاصرتها مرتين كما قدمنا.

وكانت قوى الخلافة فى كل مرة تبدى فى محاصرة قسطنطينية غاية الإصرار والعزم والجلد، ولكنها فشلت فى المرتين، وارتدت عن أسوار قسطنينية منهوكة خائرة، وأخفق مشروع الخلافة فى فتح الغرب من تلك الناحية. ولقى الإسلام هزيمته الحاسمة فى المشرق أمام أسوار بيزنطية.

وقامت الدولة الشرقية فى وجه الإسلام حصناً منيعاً يحمى النصرانية من غزوه وسلطانه. ولكن جيوش الإسلام جازت إلى الغرب من طريق اسبانيا، وأشرفت من هضاب البرنيه على باقى أمم أوربا النصرانية، ولولا تردد الخلافة وخلاف الزعماء ، لاستطاع موسى بن نصير أن ينفذ مشروعه فى اختراق أوربا من المشرق إلى المغرب والوصول إلى دار الخلافة بطريق قسطنطينية، ولكان من المرجح أن تلقى النصرانية ضربتها القاضية يومئذ، وأن يسود الإسلام أمم الشمال كما ساد أمم الجنوب. ولكن الفكرة قبرت فى مهدها لتوجس الخلافة وترددها.

على أن الفتوح التى قام بها ولاة الأندلس بعد ذلك فى جنوى فرنسا كانت طوراً آخر من أطوار ذلك الصراع بين الإسلام والنصرانية. فقد كانت مملكة الفرنج أعظم ممالك الغرب والشمال يومئذ، وكانت تقوم فى الغرب بحماية النصرانية، على نحو ما كانت الدولة الرومانية فى الشرق. بل كانت مهمتها فى هذه الحماية أشق وأصعب، إذ بينما كان الإسلام يهدد النصرانية من الجنوب، كانت القبائل الوثنية الجرمانية تهددها من الشمال والشرق.

وكانت الغزوات الإسلامية تقف فى المبدأ عند سبتمانيا ومدنها، ولكنها امتدت بعدئذ إلى أكوتين وضفاف الجارون، ثم امتدت إلى شمال الرون، وولاية برجونية وشملت نصف فرنسا الجنوبى كله، وبذا بدا الخطر الإسلامى على مصير الفرنج والنصرانية قوياً ساطعاً، وبدت طوالع ذلك الصراع الحاسم، الذى يجب أن يتأهب لخوضه الفرنج والنصرانية كلها.

كانت المعركة فى سهول فرنسا إذاً بين الإسلام والنصرانية. بيد أنها كانت من الجانب الآخر بين غزاة الدولة الرومانية والمتنافسين فى اجتناء تراثها. كانت بين العرب الذين اجتاحوا أملاك الدولة الرومانية فى المشرق والجنوب، وبين الفرنج الذين حلوا فى ألمانيا وغاليس (فرنسا). والفرنج هم شعبة من أولئك

البربر الذين غزوا رومة وتقاسموا تراثها من وندال وقوط وآلان وشوابيين، فكان ذلك اللقاء بين العرب والفرنج فى سهول فرنسا، أكبر من نزاع محلى على غزو مدينة أو ولاية بعينها : كان هذا النزاع فى الواقع أبعد ما يكون مدى وأثراً، إذ كان محوره تراث الدولة الرومانية العريض الشاسع، الذى فاز العرب منه بأكبر غنم، ثم أرادوا أن ينتزعوا ما بقى منه بأيدى منافسيهم غزاة الدولة الرومانية من الشمال.

وكانت هذه السهول الشمالية التى قدر أن تشهد موقعة الفصل بين غزاة الدولة الرومانية، تضم مجتمعاً متنافراً لم تستقر بعد قواعده ونظمه على أسس مدنية. ذلك أن القبائل الجرمانية التى عبرت نهر الرين وقضت على سلطان رومة فى البلاد المفتوحة، وكانت مزيجاً مضطربا من الغزاة الظمأى إلى تراث رومة من الثروة والنعماء.

وكان القوط قد اجتاحوا شمالى إيطاليا منذ القرن الخامس، وحلوا فى جنوب غاليس واسبانيا. ولكن هذه الممالك البربرية لم تكن تحمل عناصر البقاء والاستقرار، فلم يمض زهاء قرن آخر حتى غزا الفرنج فرنسا، وانتزعوا نصفها الشمالى من يد حاكمه الرومانى المستقل بأمره، وانتزعوا نصفها الجنوبى من القوط، وحلت فى غاليس سلطة جديدة ومجتمع جديد.

وكان الغزاة فى كل مرة يقيمون ملكهم على القوة وحدها، ويقتسمون السلطة فى نوع من الإقطاع، فلا يمضى وقت طويل حتى تقوم فى القطر المفتوح عدة إمارات محلية، ولم يعن الغزاة بإقامة مجتمع متماسك ذى نظم سياسية واجتماعية ثابتة، ولم يعنوا بالأخص أن يندمجوا برعاياهم الجدد.

فكان سكان البلاد المفتوحة من الرومان والغاليين الذين لبثوا قروناً يخضعون لسلطان رومة، ما تزال تسود فيهم لغة رومة، وحضارتها، ولكن

القبائل الجرمانية الغازية كانت تستأثر بالحكم والرياسة، وتكون وحدها مجتمعاً منعزلا، لبثت تسوده الخشونة والبداوة أحقاباً، قبل أن يتأثر بمدنية رومة وتراثها الفكرى والاجتماعى .

وكان اعتناق الفرنج للنصرانية منذ عصر كلوفيس، أكبر عامل فى تطور هذه القبائل وتهذيب عقليتها الوثنية وتقاليدها الوحشية. ثم كان استقرارها بعد حين فى الأرض المفتوحة، وتوطد سلطانها، وتمتعها بالنعماء والثراء بعد طول المغامرة والتجول وشظف العيش، وحرصها على حياة الدعة والرخاء، عوامل قوية فى إنحلال عصبيتها الحربية، وفتور شغفها بالغزو، وإذكاء رغبتها فى الاستعمار والبقاء.

وهكذا كانت القبائل الجرمانية التى عبرت الرين تحت لواء الفرنج واستقرت فى غاليس، قد تطورت فى أوائل القرن الثامن إلى مجتمع مستقر متماسك، ولم تكن غاليس. قد استحالت عندئذ إلى فرنسا، ولكن جذور فرنسا المستقبلة كانت قد وضعت، وهيئت الأسباب والعوامل لنشوء الأمة الفرنسية . بيد أن هذا المجتمع رغم تمتعه بنوع من الاستقرار والتماسك، كان وقت أن نفذ العرب إلى فرنسا فريسة الإنحلال والتفكك.

وكان الخلاف يمزقه كما بينا. وكانت أكوتين وباقى فرنسا الجنوبية فى أيدى جماعة من الأمراء والزعماء المحليين، الذين انتهزوا ضعف السلطة المركزية فاستقلوا بما فى أيديهم من الأقاليم والمدن.

ثم كانت القبائل الجرمانية الوثنية فيما وراء الرين من جهة أخرى، تحاول اقتحام النهر من آن لآخر وتهدد بالقضاء على مملكة الفرنج. فكان الفرنج يشغلون برد هذه المحاولات، ويقتحمون النهر بين آونة وأخرى لدرء هذا الخطر ولإرغام القبائل الوثنية على اعتناق النصرانية.

فكانت المسألة الدينية أيضاً عاملا قوياً فى هذا النضال، الذى يضطرم بين قبائل وعشائر تجمعها صلة الجنس والنسب. ولم ينقذ مملكة الفرنج من ذلك الخطر سوى خلاف القبائل الوثنية وتنافسها وتفرق كلمتها.

هكذا كانت مملكة الفرنج والمجتمع الفرنجى فى أوائل القرن الثامن أعنى حينما نفذ تيار الفتح الإسلامى من اسبانيا إلى جنوب فرنسا. وكان قد مضى منذ وفاة النبى العربى إلى عهد هذا اللقاء الحاسم بين الإسلام والنصرانية (سنة ٧٣٢م) مائة عام فقط.

ولكن الغرب كانوا خلال هذا القرن قد افتتحوا جميع الأمم الواقعة بين السند شرقاً والمحيط غرباً، واكتسحوا العالم القديم فى وابل مدهش من الظفر الباهر، واستولوا على جميع أقطار الدولة الرومانية الجنوبية من الشام إلى أقاصى المغرب واسبانيا، وعبروا البرنيه إلى أواسط فرنسا، هذا بينما أنفقت القبائل الجرمانية الشمالية أكثر من ثلاثة قرون فى افتتاح أقطار الدولة الشمالية ومحاولة الاستقرار فيها.

وبينا قامت الدولة الإسلامية ثابتة وطيدة الدعائم، وقامت فى جميع أقطار الخلافة حكومات محلية قوية، ومجتمعات إسلامية مستنيرة، وجيوش غازية منظمة، إذا بمعظم القبائل الجرمانية غزاة رومة من الشمال، ما يزال إذا استثنينا مملكة الفرنج، على حاله من البداوة والتجوال والتفرق.

وكان الفرنج هم قادة القبائل الجرمانية فى هذا الصراع الذى نشب فى سهول فرنسا، وأذن طوره الحاسم بعبور المسلمين إلى فرنسا فى ربيع سنة ٧٣٢م. وكان سيل الفتح الإسلامى ينذر باجتياح فرنسا منذ عشرين عاماً، أعنى مذ عبر المسلمون جبال البرنيه بقيادة موسى بن نصير لأول مرة واستولوا على سبتمانيا، ثم اقتحموا بعد ذلك وادى الرون وأكوتين أكثر من مرة. ولكن مملكة الفرنج كانت يومئذ تشغل بالمعارك الداخلية، وتقتتل حول السلطان

والرياسة، حتى ظفر كارل مارتل بمنصب محافظ القصر، وأنفق أعواماً أخرى فى توطيد سلطانه.

بينما كان خصمه ومنافسه أودو أمير أكوتين يتلقى وحده ضربات العرب. فلما استفحل خطر الفتح الإسلامى وانساب نحو الشمال حتى برجونية. فزع الفرنج وهبت القبائل الجرمانية فى اوستراسيا لتذود عن سلطانها وكيانها.

وكان الخطر على الفرنج والنصرانية داهماً حقيقياً فى تلك المرة ، لأن المسلمين عبروا البرنيه عندئذ فى أكبر جيش حشد، وأتم أهبة اتخذت منذ الفتح وكان على رأس الجيش الإسلامى قائد وافر الهمة والشجاعة والبراعة هو عبد الرحمن الغافقى، وهو أعظم جندى مسلم عبر البرنيه. وكان قد ظهر ببراعته فى القيادة منذ موقعة تولوشة، حيث استطاع إنقاذ الجيش الإسلامى من المطاردة عقب هزيمته ومقتل قائده السمح، والارتداد إلى سبتمانيا.

وتبالغ الرواية الفرنجية فى تقدير جيش عبد الرحمن وأهبته فتقدره بأربع مائة ألف مقاتل، هذا غير جموع حاشدة أخرى صحبها لاستعمار الأرض المفتوحة. وهو قول ظاهر المبالغة. وتقدره بعض الروايات العربية بسبعين أو ثمانين ألف مقاتل، وهو أقرب إلى الحقيقة والمعقول.

بل لقد أثارت هذه الغزوة الإسلامية الشهيرة وهذا الجيش الضخم، خيال الشاعر الأوربى الحديث، فنرى الشاعر الإنجليزى سوذى يقول فى منظومته عن ردريك آخر ملوك القوط :

«جمع لا يحصى.

من شأم وبربر وعرب وروم خوارج،

وفرس وقبط وتتر عصبة واحدة.

يجمعها إيمان هائم راسخ الفتوة،

وحمية مضطرمة، وأخوة مروعة.

ولم يك الزعماء ،

أقل ثقة بالنصر، وقد شمخوا بطول ظفر.

يتيهون بتلك القوة الجارفة،

التى أيقنوا أنها كما اندفعت،

حيثما كانوا بلا منازع، ستندفع ظافرة إلى الأمام.

حتى يصبح الغرب المغلوب كالشرق،

يطأطئ الرأس إجلالا لاسم محمد.

وينهض الحاج من أقاصى المنجمد.

ليطأ بأقدام الإيمان، الرمال المحرقة،

المنتثرة فوق صحر العرب وأراضى مكة الصلدة».

ونفذ عبد الرحمن فى جيشه الزاخر إلى فرنسا كما قدمنا فى ربيع سنة ٧٣٢م (أوائل سنة ١١٤هـ) واقتحم وادى الرون وولاية أكوتين، وشتت قوى الدوق أودو طبق ما أسلفنا،

وأشرف بعد هذا السير الباهر على ضفاف اللوار. وتقول بعض الروايات الكنسية إن أودو هو الذى استدعى عبد الرحمن إلى فرنسا ليعاونه على محاربة خصمه كارل مارتل. ولكن هذه الرواية مردودة غير معقولة، لما قدمنا من أن أودو هو الذى بادر إلى مقاومة عبد الرحمن ورده،

وكانت مملكته وعاصمته أول غنم للمسلمين. وكان ملك الفرنج يومئذ تيودوريك الرابع، ولكن ملوك الفرنج كانوا فى ذلك العصر أشباحاً قائمة فقط.

وكان محافظ القصر كارل مارتل هو الملك الحقيقى، يستأثر بكل سلطة حقيقية، وعليه يقع عبء الدفاع عن ملكه وأمته. وكان منذ استفحل خطر الفتح الإسلامى يتخذ أهبته ويحشد قواه.

ولكن عبد الرحمن نفذ إلى قلب فرنسا قبل أن يتحرك للقائه. وترد الرواية الإسلامية هذا البطء إلى خطة مرسومة مقصودة فتقول فى هذا الموطن : «فاجتمعت الفرنج إلى ملكها الأعظم قار له وهذه سمة لملوكهم، فقالت له ماهذا الخزى الباقى فى الأعقاب، كنا نسمع بالعرب ونخافهم من جهة مطلع الشمس حتى أتوا من مغربها، واستولوا على بلاد الأندلس وعظيم ما فيها من العدة والعدد، يجمعهم القليل وقلة عدتهم وكونهم لا دروع لهم. فقال لهم ما معناه : الرأى عندى أن لا تعترضوهم فى خرجتهم هذه، فإنهم كالسيل يحمل من يصادره، وهم فى إقبال أمرهم، ولهم نيات تغنى عن كثرة العدد، وقلوب تغنى عن حصانة الدروع، ولكن أمهلوهم حتى تمتلىء أيديهم من الغنائم ويتخذوا المساكن ويتنافسوا فى الرياسة، ويستعين بعضهم ببعض، فحينئذ تتمكنون منهم بأيسر أمر».

ونستطيع أيضا أن نعلل تمهل كارل مارتل بقصده إلى ترك خصمه ومنافسه أودو دون غوث، حتى يقضى المسلمون على ملكه وسلطانه، فيتخلص بذلك من منافسته ومناوأته. وعلى أى حال فإن عبد الرحمن كان قد اقتحم أكوتين وجنوب فرنسا كله، حينما تأهب كارل مارتل للسير إلى لقائه.

وجاء الدوق أودو بعد ضياع ملكه وتمزيق قواته، يطلب الغوث والنجدة من خصمه القديم كارل مارتل.

وكان كارل قد حشد جيشاً ضخماً من الفرنج ومختلف العشائر الجرمانية المتوحشة، والعصابات المرتزقة، فيما وراء الرين، يمتزج فيه المقاتلة من أمم الشمال كلها، وجله جند غير نظاميين، نصف عراة يتشحون بجلود

الذئاب، وتنسدل شعورهم الجعدة فوق أكتافهم العارية. وسار زعيم الفرنجة فى هذا الجيش الجرار نحو الجنوب لملاقاة العرب فى حمى الهضاب والربى، حتى يفاجئ العدو فى مراكزه قبل أن يستكمل الأهبة لرده.

وكان الجيش الإسلامى قد اجتاح عندئذ جميع أراضى أكوتين التى تقابل اليوم من مقاطعات فرنسا الحديثة جويان وبريجور وسانتونج وبواتو، وأشرف بعد سيره المظفر على مروج نهر اللوار الجنوبية حيثما يلتقى بثلاثة من فروعه هى «الكريز» «والفيين» و«الكلين».

ومن الصعب أن نعين بالتحقيق مكان ذلك اللقاء الحاسم فى تاريخ الشرق والغرب والإسلام والنصرانية، ولكن المتفق عليه أنه هو السهل الواقع بين مدينتى بواتييه وتور حول نهرى كلين وفيين فرعى اللوار، على مقربة من مدينة تور. والرواية الإسلامية مقلة موجزة فى الكلام عن تلك الموقعة العظيمة، وليس فيما لدينا من المصادر العربية عنها أى تفصيل شامل، وإنما وردت تفاصيل للرواية الإسلامية عن الموقعة، نقلها إلينا المؤرخ الاسبانى كوندى . وتفيض الرواية الفرنجية والكنسية بالعكس فى حوادث الموقعة وتقدم إلينا عنها تفاصيل شائقة، ولكن يحفها الريب وتنقصها الدقة التاريخية. وقد رأينا أن نجمل وصف الموقعة أولا مما لدينا من أقوال الروايتين. ثم نورد كليتهما بعدئذ بتفاصيلها.

انتهى الجيش الإسلامى فى زحفه إلى السهل الممتد بين مدينتى بواتييه وتور كما قدمنا، واستولى المسلمون على بواتييه ونهبوها وأحرقوا كنيستها الشهيرة، ثم هجموا على مدينة تور الواقعة على ضفة اللوار اليسرى واستولوا عليها وخربوا كنيستها أيضاً، وفى ذلك الحين كان جيش الفرنج قد انتهى إلى اللوار دون أن يشعر المسلمون بمقدمه بادئ ذى بدء.

وأخطأت الطلائع الإسلامية تقدير عدده وعدته، فلما أراد عبد الرحمن أن يقتحم اللوار لملاقاة العدو على ضفته اليمنى، فاجأه كارل مارتل بجموعه

الجرارة، وألقى عبد الرحمن جيش الفرنج يفوقه فى الكثرة، فارتد من ضفاف النهر ثانية إلى السهل الواقع بين تور وبواتييه، وعبر كارل مارتل اللوار غرب تور وعسكر بجيشه إلى يسار الجيش الإسلامى بأميال قليلة بين نهرى كلين وفيين فرعى اللوار.

وكان الجيش الإسلامى فى حال تدعو إلى القلق والتوجس، فإن الشقاق كان يضطرم بين قبائل البربر التى يتألف منها معظم الجيش، وكانت تتوق إلى الانسحاب ناجية بغنائمها الكبيرة، وكان المسمون فى الواقع قد استصفوا ثروات فرنسا الجنوبية أثناء سيرهم المظفر، ونهبوا جميع كنائسها وأديارها الغنية، وأثقلوا بما لا لايقدر ولا يحصى من الذخائر والغنائم والسبى.

فكانت هذه الأثقال النفيسة تحدث الخلل فى صفوفهم وتثير بينهم ضروب الخلاف. وقدر عبد الرحمن خطر هذه الغنائم على نظام الجيش وأهبته، وخشى مما تثيره فى نفوس الجند من الحرص والانشغال، وحاول عبثاً أن يحملهم على ترك جزء منها، ولكنه لم يشدد فى ذلك خيفة التمرد، وكان المسلمون من جهة أخرى، قد أنهكتهم غزوات أشهر متواصلة مذ دخلوا فرنسا، ونقص عددهم بسبب تخلف حاميات عديدة منهم فى كثير من القواعد والمدن المفتوحة، ولكن عبد الرحمن تأهب لقتال العدو وخوض المعركة الحاسمة فى عزم وثقة.

وبدأ القتال فى اليوم الثانى عشر أو الثالث عشر من اكتوبر سنة ٧٣٢م (أواخر شعبان سنة ١١٤هـ) فنشبت بين الجيشين معارك جزئية مدى سبعة أيام أو ثمانية، احتفظ فيها كل بمراكزه. وفى اليوم التاسع نشبت بينهما معركة عامة فاقتتلا بشدة وتعادل، حتى دخول الليل، واستأنفا القتال فى اليوم التالى، وأبدى كلاهما منتهى الشجاعة والجلد، حتى بدا الإعياء على الفرنج ولاح النصر فى جانب المسلمين.

ولكن حدث عندئذ أن افتتح الفرنج ثغرة إلى معسكر الغنائم الإسلامى، وخشى عليه من السقوط فى أيديهم، أو حدث كما تقول الرواية أن ارتفعت صيحة مجهول فى المراكز الإسلامية بأن معسكر الغنائم يكاد يقع فى يد العدو، فارتدت قوة كبيرة من الفرسان من قلب المعركة إلى ما وراء الصفوف لحماية الغنائم، وتواثب كثير من الجند للدفاع عن غنائمهم، فدب الخلل إلى صفوف المسلمين، وعبثا حاول عبد الرحمن أن يعيد النظام وأن يهدئ روع الجند.

وبينما ينتقل أمام الصفوف يقودها ويجمع شتاتها إذ أصابه من جانب الأعداء سهم أودى بحياته، فسقط قتيلا من فوق جواده، وعم الذعر والاضطراب فى الجيش الإسلامى، واشتدت وطأة الفرنج على المسلمين، وكثر القتل فى صفوفهم، ولكنهم صمدوا للعدو حتى جن الليل وافترق الجيشان دون فصل. وكان ذلك فى اليوم الحادى والعشرين من اكتوبر سنة ٧٣٢م (أوائل رمضان سنة ١١٤هـ).

وهنا اضطرم الجدل والنزاع بين قادة الجيش الإسلامى، واختلف الرأى وهاجت الخواطر وسرى التوجس والفزع، ورأى الزعماء أن كل أمل فى النصر قد غاض فقرروا الانسحاب على الأثر، وفى الحال غادر المسلمون مراكزهم، وارتدوا فى جوف الليل وتحت جنح الظلام جنوبا صوب قواعدهم فى سبتمانيا، تاركين أثقالهم ومعظم أسلابهم غنما للعدو.

وفى فجر الغد لاحظ كارل وحليفه أودو سكون المعسكرات العربية فتقدما منها بحذر وإحجام، فألقياها خاوية خالية إلا من بعض الجرحى الذين لم يستطيعوا مرافقة الجيش المنسحب، فذبحوا على الأثر. وخشى كارل الخديعة والكمين فاكتفى بانسحاب العدو، ولم يجرؤ على مطاردته، وآثر العود بجيشه إلى الشمال.

هذه هى أدق صورة لحوادث تلك الموقعة الشهيرة طبقا لمختلف الروايات. والآن نورد ما تقوله الرواية الفرنجية الكنسية ثم الرواية الإسلامية.

أما الرواية الفرنجية الكنسية فيشوبها كثير من المبالغة والتحامل والتعصب، وهى تصف مصائب فرنسا والنصرانية من جراء غزوة العرب فى صور مثيرة محزنة، وتفصل حوادث هذه الغزوة فتقول إحداهما : «لما رأى الدوق أودو أن الأمير شارل (كارل) قد هزمه وأذله، وأنه لا يستطيع الانتقام إذا لم يتلق النجدة من إحدى النواحي، تحالف مع عرب اسبانا ودعاهم إلى غوثه ضد الأمير شارل وضد النصرانية. وعندئذ خرج العرب وملكهم عبد الرحمن، من اسبانيا مع جميع نسائهم وأولادهم وعُددهم وأقواتهم فى جموع لا تحصى ولا تقدر، وحملوا كل ما استطاعوا من الأسلحة والذخائر، كأنما عولوا على البقاء فى أرض فرنسا. ثم اخترقوا مقاطعة جيروند واقتحموا مدينة بوردو، وقتلوا الناس ونهبوا الكنائس، وخربوا كل البسائط وساروا حتى بواتيو..»

وتقول أخرى : «ولما رأى عبد الرحمن أن السهول قد غصت بجموعه، اقتحم الجبال ووطئ السهول بسيطها ووعرها، وتوغل مثخناً فى بلاد الفرنج، وسحق بسيفه كل شيء، حتى أن أودو حينما تقدم لقتاله على نهر الجارون وفر منهزماً أمامه لم يكن يعرف عدد القتلى سوى الله وحده. ثم طارد عبد الرحمن الكونت أودو، وحينما حاول أن ينهب كنيسة تور المقدسة ويحرقها، التقى بكارل أمير فرنج أوستراسيا، وهو رجل حرب منذ فتوته، وكان أودو قد بادر بإخطاره. وهنالك قضى الفريقان أسبوعاً فى التأهب واصطفا أخيراً للقتال، ثم وقفت أمم الشمال كسور منيع ومنطقة من الثلج لا تخترق، وأثخنت فى العرب بحد السيف».

«ولما أن استطاع أهل أوستراسيا (الفرنج) بقوة أطرافهم الضخمة، وبأيديهم الحديدية التى ترسل من الصدر توا ضرباتها القوية، أن يجهزوا على

جموع كبيرة من العدو، التقوا أخيراً بالملك (عبد الرحمن) وقضوا على حياته. ثم دخل الليل ففصل الجيشين، والفرنج يلوحون بسيوفهم عالية احتقاراً للعدو. فلما استيقظوا فى فجر الغد ورأو خيام العرب الكثيرة كلها مصفوفة أمامهم، تأهبوا للقتال معتقدين أن جموع العدو جاثمة فيها. ولكنهم حينما أرسلوا طلائعهم، ألقوا جموع المسلمين قد فرت صامتة تحت جنح الليل مولية شطر بلادها. على أنهم خشوا أن يكون هذا الفرار خديعة يعقبها كمين من جهات أخرى، فأحاطوا بالمعسكر حذرين دهشين. ولكن الغزاة كانوا قد فروا. وبعد أن اقتسم الفرنج الغنائم والأسرى فيما بينهم بنظام، عادوا مغتبطين إلى ديارهم».

وأما الرواية الإسلامية فهى ضنينة فى هذا الموطن كل الضن كما أسلفنا. ويمر معظم المؤرخين المسلمين على تلك الحوادث العظيمة بالصمت أو الإشارة الموجزة. غير أن المؤرخ الإسبانى كوندى يقدم إلينا خلاصة من أقوال الرواية الأندلسية المسلمة عن غزو فرنسا وعن موقعة تور ننقلها مترجمة فيما يلى :

«لما علم الفرنج وسكان بلاد الحدود الإسبانية بمقتل عثمان بن أبى نسعة، وسمعوا بضخامة الجيش الإسلامى الذى سير إليهم، استعدوا للدفاع جهدهم وكتبوا إلى جيرانهم يلتمسون الغوث. وجمع الكونت وسيد هذه الأنحاء (يريد أودو) قواته، وسار للقاء العرب، ووقعت بينهما معارك كانت سجالا. ولكن النصر كان إلى جانب عبد الرحمن بوجه عام، فاستولى تباعاً على كل مدن الكونت. وكان جنده قد نفخ فيهم حسن طالعهم المستمر، فلم يكونوا يرغبون إلا فى خوض المعارك واثقين كل الثقة فى شجاعة قائدهم وبراعته.

«وعبر المسلمون نهر الجارون وأحرقوا كل المدن الواقعة على ضفافه، وخربوا جميع الضياع، وسبوا جموعاً لا تحصى. وانقض هذا الجيش على البلاد كالعاصفة المخربة فاجتاحها، وأذكى اضطرام الجند نجاح غزواتهم، واستمرار ظفرهم وما أصابوا من الغنائم.

«ولما عبر عبد الرحمن نهر الجارون اعترضه أمير هذه الأنحاء، ولكنه هزمه ففر أمامه وامتنع بمدينته. فحاصرها المسلمون ولم يلبثوا أن اقتحموها وسحقوا بسيوفهم الماحقة كل شيء. ومات الكونت مدافعاً عن مدينته واحتز الغزاة رأسه .

ثم ساروا مثقلين بالغنائم فى طلب انتصارات أخرى، وارتجت بلاد الفرنج كلها رعباً لاقتراب جموع المسلمين، وهرع الفرنج إلى ملكهم قلدوس فى طلب الغوث، وأخبروه بما يأتيه الفرسان المسلمون من العبث والسفك وكأنهم فى كل مكان، وكيف أنهم احتلوا واجتاحوا كل أقاليم أربونة وتولوشة وبردال وقتلوا الكونت.

فهدأ الملك روعهم ووعدهم بالغوث العاجل. وفى سنة ١١٤هـ سار على رأس جموع لا تحصى للقاء المسلمين. وكان المسلمون قد اقتربوا عندئذ من مدينة تور وهنالك علم عبد الرحمن بأمر الجيش العظيم الذى سيلقى. وكان جيشه قد دب إليه الخلل، لأنه كان مثقلا بالغنائم من كل ضرب. ورأى عبد الرحمن وأولوا الحزم من زملائه، أن يحملوا الجند على ترك هذه الأثقال والاقتصار على أسلحتهم وخيولهم، ولكنهم خشوا التمرد أو أن يثبطوا عزائم الجند، واستسلموا لرأى الواثقين المستهترين، واعتمد عبد الرحمن على شجاعة جنده، وحسن طالعه المستمر. ولكن الاضطراب خطر خالد على سلامة الجيش. نعم إن الجند يحملهم ظمأ الغنم قد أتوا جهوداً لم يسمع بها، فطوقوا مدينة تور وقاتلوا حصونها بشدة رائعة حتى سقطت فى أيديهم أمام أعين الجيش القادم لإنقاذها، وانقض المسلمون على أهلها كالضوارى المفترسة وأمعنوا القتل فيهم. قالوا، ولعل الله أراد أن يعاقب المسلمين على تلك الآثام، وكان طالعهم قد ولى.

«وعلى ضفاف نهر «الأوار» (اللوار) اصطف رجال اللغتين، والتقى المسلمون والنصارى، وكلاهما جزع من الآخر. وكان عبد الرحمن ثقة منه

بظفره المستمر، هو البادئ بالهجوم، فانقض بفرسانه على الفرنج بشدة وقابله الفرنج بالمثل. ودامت المعركة ذريعة مروعة طوال اليوم حتى جن الليل وفرق بين الجيشين. وفى اليوم التالى استؤنف القتال منذ الفجر بشدة، وشق بعض مقدمى المسلمين طريقهم إلى صفوف العدو وتوغلوا فيها.

ولكن عبد الرحمن لاحظ والمعركة فى أوج اضطرامها، أن جماعة كبيرة من فرسانه غادرت الميدان بسرعة لحماية الغنائم المكدسة فى المعسكر العربى، لأن العدو أخذ يهددها. فاحدثت هذه الحركة خللا فى صفوف المسلمين، وخشى عبد الرحمن عاقبة هذا الاضطراب فأخذ يثب من صف إلى صف يحث جنوده على القتال، ولكنه ما لبث أن أدرك أنه يستحيل عليه ضبطهم، فارتد يحارب مع أشجع جنده حيثما استقرت المعركة، حتى سقط قتيلا مع جواده، وقد أثخن طعاناً.

وهنا ساد الخلل فى الجيش الإسلامى، وارتد المسلمون فى كل ناحية، ولم يعاونهم على الانسحاب من تلك المعركة الهائلة سوى دخول الليل.

«وانتهز النصارى هذه الفرصة فطاردوا الجنود المنهزمة أياماً عديدة، واضطر المسلمون أثناء انسحابهم أن يحتملوا عدة هجمات، واستمر الصراع بين مناظر مروعة حتى أربونة.

«وقد وقعت هذه الهزيمة الفادحة بالمسلمين وقتل قائدهم الشهير عبد الرحمن سنة ١١٥هـ. ثم إن ملك فرنسا حاصر مدينة أربونة، ولكن المسلمين دافعوا عنها بشجاعة متناهية حتى أرغم على رفع الحصار، وارتد إلي داخل بلاده وقد أصابته خسائر كبيرة».

وأورد المؤرخ كاردون من جهة أخرى فى كلامه عن الموقعة فقرة ذكر أنه نقلها عن ابن خلكان جاء فيها : لما استولى العرب على قرقشونة خشى قار له

(كارل) أن يتوغلوا فى الفتح، فسار لقتالهم في الأرض الكبيرة (فرنسا) فى جيش ضخم، وعلم العرب بقدومه وهم فى لونون (ليون) وأن جيشه يفوقهم بكثرة فعولوا على الارتداد.

وسار قارله حتى سهل أنيسون دون أن يلقى أحداً إذ احتجب العرب وراء الجبال وامتنعوا بها، فطوق هذه الجبال دون أن يدرى العرب، ثم قاتلهم حتى هلك عدد عظيم منهم وفر الباقون إلى أربونة. فحاصر قارله أربونة مدة ولم يستطع فتحها، فارتد إلى أراضيه وأنشأ قلعة وادى رنونة (الرون) ووضع فيها حامية قوية لتكون حداً بينه وبين العرب.

ونعود بعد ذلك إلى الرواية الإسلامية، فنقول إن المؤرخين المسلمين يمرون على حوادث هذه الموقعة الشهيرة إما بالصمت أو الإشارة الموجزة. ويجب أن نذكر بادئ بدء أن موقعة تور تعرف فى التاريخ الإسلامى بواقعة البلاط أو بلاط الشهداء، لكثرة من استشهد فيها من أكابر المسلمين والتابعين. وفى هذه التسمية ذاتها، وفى تحفظ الرواية الإسلامية، وفى لهجة العبارات القليلة التى ذكرت بها الموقعة، ما يدل على أن المؤرخين المسلمين يقدرون خطورة هذا اللقاء الحاسم بين الإسلام والنصرانية، ويقدرون فداحة الخطب الذى نزل بالإسلام فى سهول تور.

ويدل على لون الموقعة الدينى ما ترددة الاسطورة الإسلامية من أن الاذان لبث عصورا طويلة يسمع فى بلاط الشهداء ونستطيع ان نحمل تحفظ المؤرخين المسلمين فى هذا المقام، على أنهم لم يروا ان يبسطوا القول فى مصاب جلل نزل بالإسلام، ولا أن يفيضوا فى تفاصيله المؤلمة، فاكتفوا بالإشارة الموجزة.

ولم يكن ثمة مجال للتعليق أيضاً ولا التحدث عن نتائج خطب لا ريب أنه كان ضربة للإسلام ولمطامع الخلافة ومشاريعها. وإذا استثنينا بعض الروايات

الأندلسية التى كتبت عن الموقعة فى عصر متأخر، والتى نقلناها فيما تقدم، فإن المؤرخين المسلمين يتفقون جميعاً فى هذا الصمت والتحفظ. وهذه طائفة من أقوالهم وإشاراتهم الموجزة :

قال ابن عبد الحكم وهو من أقدم رواة الفتوح الإسلامية وأقرب من كتب عن فتوح الأندلس ما يأتى : «وكان عبيدة (يريد والى افريقية) قد ولى عبد الرحمن ابن عبد الله العكى على الأندلس، وكان رجلا صالحاً. فغزا عبد الرحمن إفرنجة وهم أقاصى عدو الأندلس فغنم غنائم كثيرة وظفر بهم ...

ثم خرج إليهم غازياً فاستشهد وعامة أصحابه، وكان قتله فيما حدثنا يحيى عن الليث فى سنة خمسة عشر ومائة». ولم يذكر الواقدى والبلاذرى والطبرى وهم أيضا من أقدم رواة الفتوح شيئاً عن الموقعة.

وقال ابن الأثير فى حوادث سنة ثلاث عشرة ومائة مردداً لرواية ابن عبد الحكم. «ثم إن عبيدة استعمل على الأندلس عبد الرحمن ابن عبد الله، فغزا إفرنجة وتوغل فى أرضهم وغنم غنائم كثيرة. ثم خرج غازياً ببلاد الفرنج فى هذه السنة (أعنى ١١٣هـ) وقيل سنة أربع عشرة ومائة وهو الصحيح فقتل هو ومن معه شهداء».

وينسب ابن خلدون الموقعة خطأً لابن الحباب والي مصر وإفريقية فيقول : «وقدم بعده (أى بعد الهيثم) محمد بن عبد الله بن الحباب صاحب إفريقية فدخلها (أى الأندلس) سنة ثلاث عشرة وغزا إفرنجة وكانت له فيهم وقائع وأصيب عسكره فى رمضان سنة أربع عشرة فولى سنتين»

ولدينا من الرواية الأندلسية ما قاله صاحب (أخبار مجموعة) عند ذكر ولاة الأندلس وهو : «ثم (أى وليها) عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى، وعلى يده استشهد أهل البلاط الشهداء واستشهد معهم واليهم عبد الرحمن» ونقل الضبى فى ترجمة عبد الرحمن ما كر ابن الحكم عن الموقعة.

وقال ابن عذارى المراكشى : «ثم ولى الأندلس عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى فغزا الروم واستشهد مع جماعة من عسكره سنة ١١٥ بموضع يعرف ببلاط الشهداء».

وقال فى موضع آخر: « ثم ولى الأندلس عبد الرحمن هذا (أى الغافقى) ثانية وكان جلوسه لها فى صفر سنة ١١٢، فأقام والياً سنتين وسبعة أشهر وقيل وثمانية أشهر، واستشهد فى أرض العدو فى رمضان سنة ١١٤».

وقال القمرى فيما نقل: «ثم قدم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى من قبل عبيد الله بن الحباب صاحب إفريقية فدخلها (أى الأندلس) سنة ثلاث عشرة، وغزا الإفرنجة وكانت له فيهم وقائع، وأصيب عسكره فى رمضان سنة أربع عشرة فى موضع يعرف ببلاط الشهداء وبه عرفت الغزوة».

ونقل فى موضع آخر «وذكر أنه قتل (والإشارة هنا خطأ إلى السمح بن مالك) فى الواقعة المشهورة عند أهل الأندلس بوقعة البلاط، وكانت جنود الإفرنجة قد تكاثرت عليه فأحاطت بالمسلمين فلم ينج من المسلمين أحد. قال ابن حيان «فيقال إن الأذان يسمع بذلك الموضع إلى الآن».

ونقل عن ابن حيان : «قال دخل الأندلس (أى عبد الرحمن) حين وليها الولاية الثانية من قبل ابن الحباب فى صفر سنة ثلاث عشرة ومائة، وغزا الإفرنج فكانت له فيهم وقائع جمة إلى أن استشهد، وأصيب عسكره فى شهر رمضان سنة ١١٤ فى موضع يعرف ببلاط الشهداء. قال ابن بشكوال وتعرف غزوته هذه بغزوة البلاط».

هذه الفقرات والإشارات الموجزة التى تكاد تتفق جميعاً فى اللفظ والمعنى، هى ما ارتضت الرواية الإسلامية أن تقدمه إلينا فى هذا المقام، وإن كان في تحفظها ذاته ما ينم كما قدمنا عن تقديرها لرهبة الحادث وخطورته وبعد آثاره.

وإذا كان صمت الرواية الإسلامية تمليه فداحة الخطب الذى أصاب الإسلام فى سهول تور، فإن الرواية النصرانية تفيض بالعكس فى تفاصيل الموقعة إفاضة واضحة، وتشيد بظفر النصرانية ونجاتها من الخطر الإسلامى، وترفع بطولة كارل مارتل إلى السماكين.

وتذهب الرواية النصرانية ومعظم كتابها من الأحبار المعاصرين، فى تصوير نكبة المسلمين إلى حد الإغراق، فتزعم أن القتلى من المسلمين فى الموقعة، بلغوا ثلاثمائة وخمسة وسبعين ألف، فى حين أنه لم يقتل من الفرنج سوى ألف وخمسمائة.

ومنشأ هذه الرواية رسالة أرسلها الدوق أودو إلى البابا جريجورى الثانى، يصف فيها حوادث الموقعة وينسب النصر لنفسه، فنقلتها التواريخ النصرانية المعاصرة واللاحقة كأنها حقيقة يستطيع العقل أن يسيغها.

بيد أنها ليست سوى محض خرافة. فإن الجيش الإسلامى كله لم يبلغ حين دخوله إلى فرنسا على أقصى تقدير أكثر من مائة ألف. والجيش الإسلامى لم يهزم فى تور ولم يسحق بالمعنى الذى تفهم به الهزيمة الساحقة. ولكنه ارتد من تلقاء نفسه بعد أن لبث طوال المعركة الفاصلة يقاتل حتى المساء محتفظا بمراكزه أمام العدو، ولم يرتد أثناء القتال ولم يهزم.

ومن المستحيل أن يصل القتل الذريع فى جيش يحافظ على ثباته ومواقعه إلى هذه النسبة الخيالية. ومن المعقول أن تكون خسائر المسلمين فادحة فى مثل هذه المعارك الهائلة، وهذا ما تسلم به الرواية الإسلامية.

ولكن مثل هذه الخسائر لا يمكن أن تعدو بضع عشرات الألوف فى جيش لم يزد على مائة ألف. وأسطع دليل على ذلك هو حذر الفرنج وإحجامهم عن مطاردة العرب عقب الموقعة، وتوجسهم أن يكون انسحاب العرب خديعة حربية،

فلو أن الجيش الإسلامى انتهى إلى أنقاض ممزقة لبادر الفرنج بمطاردته والإجهاز عليه. ولكنه كان ما يزال من القوة والكثرة إلى حد يخيف العدو ويرده. على أن خسارة المسلمين كانت بالأخص فادحة فى نوعها تتمثل فى مقتل عبد الرحمن ونفر كبير من زعماء الجيش وقادته.

بل كان مقتل عبد الرحمن أفدح ما فى هذه الخسارة، فقد كان خير ولاة الأندلس، وكان أعظم قائد عرفه الإسلام فى الغرب، وكان الرجل الوحيد الذى استطاع بهيبته وقوة خلاله أن يجمع كلمة الإسلام فى اسبانيا، فكان مقتله فى هذا المأزق العصيب ضربة شديدة لمثل الإسلام ومشاريع الخلافة فى افتتاح الغرب.

ويعلق النقد الحديث على هذا اللقاء الحاسم بين الإسلام والنصرانية أهمية كبرى، وينوه بخطورة آثاره وبعد مداها فى تغيير مصاير النصرانية وأمم الغرب. ومن ثم فى تغيير تاريخ العالم كله. وإليك طائفة مما يقوله أكابر مؤرخى الغرب ومفكريه فى هذا المقام :

قال إدوارد جيبون إن حوادث هذه الموقعة «أنقذت آباءنا البريطانيين وجيراننا الغاليين (الفرنسين) من نير القرآن المدنى والدينى، وحفظت جلال رومة، وأخرت استعباد قسطنطينية، وشدت بأزر النصرانية، وأوقعت بأعدائها بذور التفرق والانحلال. ويعتبر المؤرخ أرنولد الموقعة «إحدى هاته المواقف الرهيبة لنجاة الإنسانة وضمان سعادتها مدى قرون.

ويقول السير إدوارد كريزى: «إن النصر العظيم الى ناله كارل مارتل على العرب سنة ٧٣٢ وضع حداً حاسما لفتوح العرب فى غرب أوربا، وأنقذ النصرانية من الإسلام، وحفظ بقايا الحضارة القديمة وبذور الحضارة الحديثة، ورد التفوق القديم للأمم الأوربية على الأمم السامية».

ويقول فون شليجل في كلامه عن الإسلام والإمبراطورية العربية : «ما كاد العرب يتمون فتح اسبانيا حتى تطلعوا إلى فتح غاليا وبرجونية. ولكن النصر الساحق الذى غنمه بطل الفرنج كارل مارتل بين تور وبواتييه وضع لتقدمهم حداً، وسقط قائدهم عبد الرحمن في الميدان مع زهرة جنده.

وبذا أنقذ كارل مارتل بسيفه أمم الغرب النصرانية من قبضة الإسلام الفتاكة الهدامة إلى الذروة». ويقول رانكه : «إن فاتحة القرن الثامن من أهم عصور التاريخ، ففيها كان دين محمد ينذر بامتلاك إيطاليا وغاليا، وقد وثبت الوثنية كرة أخرى إلى ما وراء الرين.

فنهض إزاء ذلك الخطر فتى من عشيرة جرمانية هو كارل مارتل، وأيد هيبة النظم النصرانية المشرفة على الفناء، بكل ما تقتضيه غريزة البقاء من عزم، ودفعها إلى بلاد جديدة». ويقول زيلر: «كان هذا الانتصار بالأخص انتصار الفرنج والنصرانية ، وقد عاون هذا النصر زعيم الفرنج على توطيد سلطانه لا في غاليا وحدها ولكن في جرمانيا التى أشركها في نصره».

على أن هنالك فريقاً من مؤرخي الغرب لا يذهب إلى هذا الحد في تقدير نتائج الموقعة وآثارها. ومن هذا الفريق المؤرخان الكبيران سموندى وميشليه، فهما لا يعلقان كبير أهمية على ظفر كارل مارتل.

ويقول جورج فنلى «إن أثرة الكتاب الغالبين قد عظمت من شأن تغلب كارتل مارتل على حملة ناهبة من عرب اسبانيا، وصورته كانتصار باهر، ونسبت خلاص أوربا من نير العرب إلى شجاعة الفرنج، في حين أن حجاباً ألقى على عبقرية ليون الثالث (امبراطور قسطنطينية) وعزمه، مع أنه نشأ جندياً يبحث وراء طالعه، ولم يكد يجلس على العرش حتى أحبط خطط الفتح التى أنفق الوليد وسليمان طويلا في تدبيرها».

ونحن مع الفريق الأول نكبر شأن بلاط الشهداء أيما إكبار، ونرى أنها كانت أعظم لقاء حاسم بين الإسلام والنصرانية، وبين الشرق والغرب . ففى سهول تور وبواتييه فقد العرب سيادة العالم بأسره، وتغيرت مصاير العالم القديم كله، وارتد تيار الفتح الإسلامى أمام الأمم الشمالية كما ارتد قبل ذلك بأعوام أمام أسوار قسطنطينية.

وأخفقت بذلك آخر محاولة بذلتها الخلافة لافتتاح أمم الغرب وإخضاع النصرانية لصولة الإسلام. ولم تتح للإسلام المتحد فرصة أخرى لينفذ إلى قلب أوربا فى مثل كثرته وعزمه واعتزازه يوم مسيره إلى بلاط الشهداء. ولكنه أصيب قبل بعيد بتفرق الكلمة، وبينما شغلت اسبانيا المسلمة بمنازعاتها الداخلية، إذ قامت فيما وراء البرنيه إمبراطورية فرنجية عظيمة موحدة الكلمة، تهدد الإسلام فى الغرب وتنازعه السيادة والنفوذ.

موقعة رونسفال أو باب الشزرى

١٦١هـ - ٧٧٨م

لم تكن غزوة عبد الرحمن الغافقى الكبرى ، آخر غزوة قام بها المسلمون لفرنسا، ولم تكن موقعة بلاط الشهداء آخر صدام وقع بين عرب الأندلس والفرنج، ذلك أنه بالرغم من هزيمة المسلمين على ضفاف اللوار، فقد عبر ولاة الأندلس جبال البرنيه بعد ذلك، وغزوا جنوبى فرنسا غير مرة.

وكان ملوك الفرنج منذ أيام كارل مارتل، يتوقون إلى وضع حد نهائى لهذا الخطر، الذى يهدد فرنسا من جنوبى البرنيه. وكانت أول خطوة فى تأمين فرنسا من هذه الناحية، هو استيلاء الفرنج على القواعد الإسلامية فى ولاية سبتمانيا، وإجلائهم عن أراضى غاليس، وردهم إلى ما وراء جبال البرنيه.

وقد تم ذلك على يد ببين الذى خلف أباه كارل مارتل كمحافظ للقصر الفرنجى، ثم انتزع العرش لنفسه، وكان أول ملوك الأسرة الكارلية الفرنجية. وكان ثغر أربونة آخر معقل إسلامى، استولى عليه ببين فى سنة ٧٦٠م، وانتهت بذلك سيادة المسلمين فى غاليس.

وفى خلال ذلك وقعت الأندلس فريسة الحرب الأهلية، واستمرت تعانى من تلك المحنة، حتى انهارت الخلافة الأموية فى المشرق (١٣٢هـ-٧٥٠م) وقيض لعبد الرحمن بن معاوية الأموى، أن ينجو من المذبحة الذريعة التى شملت سائر آله وذويه، وأن يفر طريداً إلى إفريقية، وأن يعبر بعد ذلك إلى الأندلس بعد أن مهد له أنصاره وموالى أسرته سبيل العبور، وأن يفوز بولايتها بعد انتصاره على خصومه ومناوئيه، فى معركة المسارة الشهيرية على مقربة من قرطبة، وذلك فى سنة ١٣٨هـ (٧٥٦م).

وبدأ عبد الرحمن الأموى، أو عبد الرحمن الداخل، يعمل لتوطيد سلطان

أسرته بالأندلس، بعد أن انهار سلطانها بالمشرق. ولكنه كان يواجه ظروفاً صعبة، وتعترض سبيله سائر القوى والزعامات التى رأت فى ولايته قضاء على سلطانها. فلبث أعواماً طوالا، يخوض معارك متعاقبة مع الخارجين عليه فى مختلف النواحى، ولبثت الأندلس حيناً كالبركان المضطرم، لا تعرف سكينة ولا استقراراً، والحرب الأهلية تمزق وحدتها وتماسكها، والداخل يعالج هذا المعترك المروع بكل ما وسع من قوة وموارد، ومن دهاء وخديعة، وهو يهزم خصومه واحداً بعد الآخر، ويسير إلى غايته من إخماد الثورة وتوطيد الدولة، بهمة لا تعرف الكلل.

كانت مملكة الفرنج فى ذلك الحين، قد آلت بعد وفاة عاهلها ببين إلى ولده كارل المعروف بشارلمان أو كارل الأكبر (سنة ٧٦٨م). ولم تمض أعوام قلائل، حتى توفى أخوه كارلومان، فورث بلاده، وغدا يسيطر على مملكة الفرنج العظيمة كلها، من ضفاف نهر الرين، إلى جبال البرنيه.

وكان شارلمان ملكاً عظيما، بل كان أعظم ملوك النصرانية فى عصره، وقد غدا فيما بعد إمبراطور «الدولة الرومانية المقدسة». وكان فوق مقدرته الحربية العظيمة، يتمتع بصفة أخرى لها خطرها، وهى كونه بطل النصرانية وحاميها الأكبر.

وكان شارلمان منذ ولى الملك يشهر الحرب دون هوادة، على القبائل الوثنية السكسونية فيما وراء نهر الرين، ويرغمها على اعتناق النصرانية تباعاً. وكان فى نفس الوقت ينظر إلى قيام دولة الإسلام فى الأندلس، بعين التوجس والحذر، ويرى فى قيامها خطراً دينياً وسياسياً معاً، يجب التحوط منه والعمل على درئه ما سنحت الفرص.

وكانت حوادث الحرب الأهلية فى الأندلس، وما تغرق فيه يومئذ من ضروب الشقاق والتطاحن، تبدو للعاهل الفرنجى فرصة طيبة للتدخل والعمل.

فإذا ما فرغ من مشاغل الحرب السكسونية، كان فى استطاعته أن ينتهز هذه الفرصة السانحة، لضرب اسبانيا المسلمة.

وهيأت الحوادث فى اسبانيا المسلمة نفسها لشارلمان هذه الفرصة المنشودة. ففى سنة ١٥٧هـ (٧٧٤م) ثار سليمان بن يقظان الكلبى والى برشلونة وجيرندة، والحسين بن يحيى الأنصارى والى سرقسطة، وتحالفا على محاربة عبد الرحمن الأموى وخلعه.

وكان استمرار الثورة فى جنوبى الأندلس، وانشغال عبد الرحمن الدائم بقمعها، وطبيعة الشمال الجبلية، وصعوبة اقتحامه، مما يشجع مشاريع أولئك الزعماء الخوارج. ورأى عبد الرحمن، بالرغم من عجزه عن السير بنفسه لمقاتلة الخوارج، أن يبادر إلى مدافعتهم، فأرسل إلى الشمال جيشاً بقيادة ثعلبة بن عبيد الجذامى، فهزمه سليمان وأسره، وتفرق جيشه. واستفحل أمر الثورة فى الشمال.

ولكن زعماء الثورة وعلى رأسهم سليمان بن يقظان، لم يطمئنوا إلى ذلك النصر المؤقت، لما يعلمونه من عزم عبد الرحمن وبأسه، وروعة انتقامه. ففكروا فى الاستنصار بملك الفرنج. وسار سليمان (وتسميه الرواية اللاتينية ابن الأعرابى) مع نفر من صحبه، إلى لقاء شارلمان، فى ربيع سنة ٧٧٧م،

وكان يومئذ يقيم بلاطه فى مدينة بادربورن من أعمال وستفاليا (شمال غربى ألمانيا). وكان قد فرغ يومئذ من هزيمة السكسونيين، وأخذ ينظم تنصيرهم. فهنا وفد عليه سليمان وصحبه، وعرض عليه المحالفة على قتال عبد الرحمن، واقترح عليه أن يقوم بغزو الولايات الأندلسية الشمالية، وتعهد بمعاونته فى مشروعه، وبأن يسلمه المدن التى يحكمها هو وصحبه من قبل أسر قرطبة، ولاسيما مدينة سرقسطة.

وتقول الرواية الإسبانية النصرانية، أن الذى دعا شارلمان إلى غزو اسبانيا

هو ألفونسو أمير إمارة جليقية النصرانية، ولكن الروايتين العربية والفرنجية كلتاهما صريحة فى أن الدعوة جاءت من سليمان بن يقظان وحلفائه.

والرواية العربية تقول لنا بمنتهى الوضوح إن سليمان استدعى قارله (كارل أو شارلمان) ملك الفرنج إلى بلاد المسلمين، ووعده بتسليم برشلونة أو سرقسطة.

وتوافيق الرواية اللاتينية على ذلك، وتزيد أن سليمان وحلفاءه، أعلنوا خضوعهم لملك الفرنج، وانضوائهم تحت حمايته.

ولبى ملك الفرنج دعوة الثوار المسلمين، ووافق على مشروعهم. وكان سليمان بن يقظان زعيم أولئك الخوارج يعمل مستقلا لنفسه، ويرمى قبل كل شيء إلى تحطيم سيادة إمارة قرطبة ، والاستقلال بما فى يده تحت حماية ملك الفرنج.

ولكن ملك الفرنج كانت له مشاريع أخرى. وكانت السياسة الفرنجية، ترمى إلى تعضيد روح الثورة والخلاف، فى اسبانيا المسلمة، وتحطيم قوتها، وكان سليمان زعيم الثورة فى الشمال يتصل بملك الفرنج قبل ذلك بأعوام، منذ سقوط أربونة، واتصال الحدود الفرنجية بحدود اسبانيا المسلمة.

وهكذا بدأت العلائق تنتظم بين الزعماء المسلمين، الخوارج على حكومة قرطبة، وبين الفرنج المتربصين بدولة الإسلام فى الأندلس. فكان الزعماء الخوارج كلما حاولوا الثورة والاستقلال بحكم مدينة أو ولاية، اتجهوا إلى الفرنج يستمدون عونهم ومناصرتهم، وكان الفرنج يسارعون إلى تلبية هذه الدعوة، ويتخذون منها ذريعة للتدخل فى شئون اسبانيا المسلمة، وإذكاء روح التفرق فيها.

وكانت اسبانيا المسلمة تجوز إزاء هذا الخطر الأجنبى يتربص بها، ظرفاً

من أدق ظروفها، فقد كانت مصايرها تهتز فى يد القدر، وكانت روح الخلاف تمزقها، والثورات تضطرم فى سائر أرجائها، وأميرها عبد الرحمن الأموى، مشغول بقمع الثورة هنا وهناك.

هذا بينما كانت مملكة الفرنج بالعكس قد اجتمعت كلمتها وتوطدت دعائمها. وكان شارلمان منذ ولى العرش سنة (٧٦٨م) يشغل عن التدخل فى اسبانيا المسلمة بمحاربة القبائل السكسونية فيما وراء الرين، ليرد خطرها عن مملكته، وليخضعها إلى سلطانه.

وكانت غزوات الأسرة القارلية، تتخذ فيما وراء الرين منذ عهد كارل مارتل، لونا دينياً عميقاً، كالذى تتخذه حروب الفرنج مع العرب فى غاليس، فكانت بذلك تتخذ مظهر حماية النصرانية من خطر الوثنية المتدفق من المشرق، على يد القبائل السكسونية، وكانت حروبهم فى غاليس تتخذ مظهر حماية النصرانية من وثبات الإسلام المتدفق من الجنوب.

فلما ظفر الفرنج برد تيار الإسلام إلى ما وراء جبال البرنيه، واستولوا على جميع ثغوره ومعاقله فى أرض فرنسا، بقيت الأطماع والبواعث السياسية، تحفز الفرنج إلى مقاتلة الإسلام ومطاردته، فيما وراء البرنيه، وانتزاع اسبانيا أو على الأقل ولاياتها الشمالية من قبضته، لتكون معقلا لدرء فورانه ووثباته من الجنوب.

وتشير الروايات اللاتينية إلى غايات السياسة الفرنجية من التدخل فى شئون اسبانيا المسلمة، وتحدثنا عن هذا المزج بين الغايات الدينية والدنيوية. فأما عن الناحية السياسية، فإن إجتهارت مؤرخ شارلمان يقول لنا إن الحملة التى نظمها الملك الفرنجى إلى اسبانيا، كان يقصد بها مهاجمة قرطبة ذاتها. وإنه ليبدو من ضخامة الجيش الذى حشده شارلمان، أن الأمر لم يكن متعلقاً

فقط بالاستيلاء على المدن الى وعد سليمان بن يقظان بتسليمها، وأن شارلمان كان يرمى بالعكس إلى السيطرة على اسبانيا كلها، أو على الأقل على نصفها الشمالى.

ومن جهة أخرى، فإنه يبدو أن شارلمان كانت تحمله البواعث الدينية إلى جانب البواعث السياسية، وهذا ما تؤيده روايات لاتينية كثيرة معاصرة ولاحقة، ويؤيده بالأخص كون شارلمان قد أبلغ البابا هادريان بأمر هذه الحملة، قبل أن يضطلع بها، وأن البابا بارك مشروعه، ووعده بإقامة الصلوات لكى يعود ظافراً إلى مملكته.

وكان كارل الأكبر أو شارلمان، حينما استدعاه الخوارج المسلمون لغزو اسبانيا، قد انتهى من الحرب فى سكسونية، وهزم القبائل الوثنية الجرمانية، وأخضع زعيمها القوى «فيدوكنت» فجاءت الدعوة إليه فى وقت ملائم. وانتظر كارل حتى مضى الشتاء، ثم سار إلى الجنوب وقضى أعياد الفصح فى أكوتين على مقربة من بوردو.

وفى فاتحة ربيع سنة ٧٧٨م، حشد قواته المؤلفة من فرنج نوستريا، ومن الجرمان واللونبارد، وجنود بريتانيا وأكوتين، واخترق ولاية أكوتين، معتزما أن يفتتح الغزوة الإسبانية تواً حتى لا يفاجئه الشتاء.

وقسم جيشه الضخم إلى قسمين، عبر أحدهما جبال البرنيه من الناحية الشرقية، وعبرها القسم الثانى بقيادة كارل نفسه من الناحية الغربية، من الطريق الرومانى القديم فوق أكام «جان دى لابور» الشاهقة التى تشرف على مفاوز رونسفال الوعرة، على أن يلتقى الجيشان على ضفاف نهر الإبيرو أمام سرقسطة، حيث يلتقى شارلمان بحلفائه المسلمين.

وكان عبوره لجبال البرنيه من «باب الشزرى» أو باب شيزروا. واخترق

شارلمان بلاد البشكنس أو نافار الحديثة، وحاصر عاصمتها بتيلونه قلعة النافاريين، واستولى عليها بعد قليل.

وقد كان أولئك النافاريون يكونون دائماً شعبة خاصة من «البشكنس». وكان البشكنس دائماً يحرصون على الايحتفاظ باستقلالهم منذ أيام القوط، وكثيراً ما لجئوا فى سبيل ذلك إلى الثورة، والامتناع بهضابهم وجبالهم الشاهقة.

وقد كان هذا شأنهم حينما وفد شارلمان بقواته الضخمة، فقد كانوا يحرصون على هذا الاستقلال، ولا يودون الخضوع لأية سلطة أو أية مملكة، ومن ثم كانت مقاومتهم للعاهل الفرنجى، ومن ثم كانت محاصرته لبنبلونة وأخذها بالعنف.

أما الجيش الفرنجى الذى اخترق شرقى البرنيه، فقد كان يسير فى منطقة يسيطر عليها الفرنج، وقد تقلص عنها سلطان المسلمين، منذ أيام ببين والد شارلمان، ومن ثم فقد كان يخترق بلاداً صديقة، يرحب أهلها بمقدمه، ويستظلون بحمايته.

وكان سليمان بن يقظان، منذ مقدم شارلمان، يتردد على بنبولنة لمفاوضته، وقد سلمه الرهائن، وفقاً لتعهداته، وفى مقدمتها ثعلبة بن عبيد قائد عبد الرحمن. وقيل إن ثعلبة كان قد سلم إلى شارلمان قبل مقدمه إلى اسبانيا، وإنه اعتقله لديه بفرنسا.

فلما انتهى شارلمان من إخضاع بنبولنة، سار ومعه سليمان إلى سرقسطة وهى أهم الأماكن التى اتفق على تسليمها فى بادربورن.

وكان القسم الآخر من الجيش الفرنجى، قد وصل عندئذ إلى منطقة برشلونة، واتجه غرباً إلى سرقسطة، ليلتقى بالقوات التى يقودها شارلمان.

وكان شارلمان، يعتقد حينما اتجه إلى سرقسطة أنه سيلقى هنالك حلفاءه المسلمين على أهبة لمعاونته، وتحقيق رغباته فى الاستيلاء على المدينة الكبرى. ولكن الحوادث كانت قد تطورت عندئذ ودب الخلاف بين الخوارج المسلمين.

وكان الحسين بن يحيى الأنصارى، والى سرقسطة وحليف سليمان منذ البداية، ومؤيده فى مشروعه لاستدعاء الفرنج، قد وافق على الحلف الذي عقده سليان مع شارلمان، وعلى العهود التى قطعها له.

ولكن الحسين ما لبث فيما يبدو أن نقم على سليمان موقف الصدارة والزعامة الذى اتشح به إزاء الفرنج، فنشبت بينهما الخصومة. أو لعله خشى عاقبة التورط فى حلف الفرنج، فعدل عن موقفه فى آخر لحظة، حينما شعر بسير الفرنج إلى مدينته. والظاهر أيضاً أنه لم يكن فى سرقسطة حينما أقبل إليها الجيش الفرنجى، إذ تقول لنا الرواية الإسلامية، إنه سبق إليها سليمان وتحصن بها، فلما أشرف شارلمان ومعه سليمان على سرقسطة، رفض الحسين أن يستقبله، وألقى المدينة محصنة، متأهبة للدفاع والمقاومة، ولم يستطع سليمان أن يفعل شيئاً لإقناع الحسين بفتح أبواب المدينة، ولم يستطع شارلمان من جهة أخرى الاستيلاء عليها، وردت المدينة المحصورة كل هجماته بشدة.

وعجز سليمان عن أن يحقق شيئاً من وعوده فى تسليم المدن والحصون الواقعة فى تلك المنطقة. ولم يشأ ملك الفرنج أن يخوض فى تلك الوهاد والهضاب الصعبة، معارك لم يتأهب لخوضها، وارتاب من جهة أخرى فى نية سليمان وموقفه، فقبض عليه. وارتد بجيشه نحو الشمال الشرقى فى طريق العودة. وكان ذلك فى شهر يوليه سنة ٧٧٨م (شوال سنة ١٦١هـ).

وهنا يبدو شئ من الغموض حول تصرف شارلمان، وارتداده فجأة بجيشه من أمام سرقسطة دون أن تقع أية معارك ودون أن يبذل محاولة صادقة للاستيلاء عليها، وقد كانت لديه وهو يقود جيشه الضخم كل وسيلة لتحقيق تلك

الغاية. وتفسر بعض الروايات اللاتينية لنا ذلك الغموض بقولها إن شارلمان تلقى وهو تحت أسوار سرقسطة، أنباء عن تحرك خصومه السكسونيين، وانتهازهم فرصة غيابه فى اسبانيا، وقيامهم باجتياح أراضيه فيما وراء الرين، فقرر عندئذ أن يعود مسرعاً إلى فرنسا.

ارتد شارلمان على رأس قواته المجتمعة، ومعه أسيره سليمان بن يقظان، وعدد من الرهائن، وسار شمالا نحو بلاد البشكنس . وكان النافريون فى تلك الأثناء قد جمعوا فلولهم، واعتزموا الدفاع عن بلادهم وعن عاصمتهم، خصوصاً وقد شجعتهم وقفة سرقسطة وصاحبها الحسين ضد الملك الفرنجى، وانضم إليهم كثير من المسلمين من أبناء الأنحاء المجاورة للتعاون فى دفع العدو المشترك.

ولكن شارلمان هاجم بنبلونة بشدة، ولم تجد بسالة النافاريين وحلفائهم المسلمين شيئاً، فتركوا المدينة، وتفرقوا فى مختلف الأنحاء، واستولى شارلمان على بنبلونة للمرة الثانية، وهدم حصونها وأسوارها، حتى لا تعود إلى المقاومة، وحتى يمهد لجيشه طريق العود المأمون إلى فرنسا.

وغادر شارلمان بنبلونة، متجهاً إلى جبال البرنيه، من طريق هضاب رونسفال المؤدية إلى باب الشزرى، أحد ممرات البرنيه. فما الذي حدث عندئذ؟ تقول الرواية العربية إن شارلمان «لما أبعد عن بلاد المسلمين واطمأن، هجم مطروح وعيشون إبنا سليمان فى أصحابهما، فاستنقذا أباهم، ورجعا به إلى سرقسطة».

وفى هذه الكلمات القليلة، تشير الرواية العربية إلى النكبة الهائلة، التى أصابت الجيش الفرنجى أمام باب الشزرى، والتى تقدم إلينا الروايات اللاتينية اللاحقةتفاصيلها.

والظاهر أيضاً من الرواية العربية، أن ولدى سليمان، حينما قبض شارلمان على أبيهما، عادا إلى الاتفاق مع الحسين بن يحيى على مقاومة الفرنج، وجمعا فى الحال قوات أبيهما وأتباعه، وسارا بها فى أثر ملك الفرنج يحاولان مهاجمته وإنقاذ أبيهما من أسره. وكان شارلمان فى ذلك الحين قد غادر بنبلونة بعد تخريبها، متجها صوب البرنيه ليعبرها كرة أخرى إلى فرنسا.

وكان عبوره من نفس الطريق التى أتى منها، أعنى من مفاوز رونسفال. ويقع ممر رونسفال الذى يسمى بالعربية «باب شزروا» أو «باب الشزرى» فى طرف البرنيه الغربية، شمال شرقى بنبلونة، وعلى مقربة منها، وهو أحد ممرات عدة كانت تستعمل منذ عهد الرومان لاختراق البرنيه من الشمال أو الجنوب، وهى نفس الممرات والأبواب التى كان يستعملها العرب للعبور إلى غاليس والعودة منها.

وقد لبثت هذه الجبال الوعرة الشاهقة على ممر القرون، حاجزاً منيعاً، يفصل بين شبه الجزيرة الإسبانية، وبين غاليس، ولا يتأتى للغزاة عبوره إلا خلال هذه الممرات الشهيرة. ففى مفاوز رونسفال الوعرة وتجاه ممر البرنيه المسمى بهذا الإسم أعنى باب شيزروا، وقعت المفاجأة الهائلة. ذلك أن الجيش الفرنجى، ما كاد يبدأ عبور الجبال، حتى أشرف المسلمون بقيادة عيشون ومطروح على مؤخرته، وهاجموه بشدة رائعة، وفصلوا عنه مؤخرته، وانتزعوا منها الأسلاب والأسرى، وفيهم سليمان بن يقظان.

والرواية العربية صريحة فى أن المسلمين، هم الذين دبروا هذا الهجوم الفجائى، على مؤخرة الجيش الفرنجى، وذلك بالرغم مما تقوله لنا بعض الروايات اللاتينية، التى تتحدث عن الموقعة، من أن الذين دبروا هذا الهجوم، هم البشكنس النصارى، إنتقاماً لما أنزله الفرنج ببلادهم وعاصمتهم بنبلونة من العبث والتخريب.

والرواية الراجحة فى هذا الشأن، هو أن المسلمين دبروا هذا الهجوم، على مؤخرة الجيش الفرنجى بمعاونة البشكنس، وقد كانت لكل من الفريقين بواعثه لتدبير هذا الهجوم المشترك. فالمسلمون كانوا يتوقون إلي تخليص الأسرى والرهائن واستنقاذ زعيمهم ابن يقظان، والبشكنس كانوا يتوقون إلى الانتقام لما وقع على بلادهم من العبث والتخريب.

وقد تعاون الفريقان، لأن أحدهما لم يكن ليستطيع بمفرده أن يدبر مثل هذا الهجوم على جيش عظيم كالجيش الفرنجى. وكون المسلمين هم الذين اضطلعوا فى ذلك بالدور الرئيسى، يؤيده مضمون أنشودة رولان .

وقد وصفت لنا إحدى الروايات اللاتينية، تعاون المسلمين والبشكنس فى الهجوم على النحو الآتى : «أن جيش شارلمان كان يتكون من خمسة آلاف فارس، من ذوى الأسلحة الثقيلة، وعدد مماثل من المشاة، وأن المؤخرة كانت تتكون من ألف فارس ومعها دواب الحمل، وأن الكمين وقع فى الأماكن الصاعدة من الطريق المعبد.

وقد تعاون بشكنس بنبلونة والمسلمون، ولا سيما مطروح وعيشون ولدى ابن الأعرابى (سليمان)، وكان هذا التحالف ضرورياً، لأن المسلمين كانوا فى حاجة إلى المعرفة الدقيقة لهذه الوهاد، وهو ما يتقنه البشكنس، وكان البشكنس بحاجة إلى مقدرة المسلمين فى التنظيم العسكرى، وهما معاً، قد استطاعا أن يسحقا مؤخرة هذه الصفوف، التى ارتجت لها سائر اسبانيا».

وقع هذا الهجوم الفجائى من المسلمين على مؤخرة الجيش الفرنجى بمعاونة البشكنس، فأسفر عن أروع نتيجة يمكن تصورها. ذلك أن الفرنج لم يحسنوا الدفاع عن أنفسهم، فى تلك الشعاب الضيقة المنحدرة. وقد فصلت مؤخرة الجيش الفرنجى، وانتزعت منها الأسلاب والأمتعة، وفى مقدمتها الخزانة

الملكية، وكذلك الرهائن، وفى مقدمتهم سليمان، ومزقت المؤخرة نفسها شر ممزق، وهلك خلال المعمعة الهائلة، عدد كبير من سادة الجيش الفرنجى وفرسانه، ولم تسمح المفاجأة المذهلة، بأى عمل أو محاولة منظمة لإنقاذ الفرق المنكوبة. وكانت نكبة مروعة لبث صداها يتردد مدى عصور فى أمم الغرب والنصرانية.

وتضع الرواية الفرنجية تاريخ الموقعة فى ١٨ أغسطس سنة ٧٧٨ (ذى القعدة سنة ١٦١هـ). وقد رأينا فيما تقدم كيف تقنع الرواية العربية، بالإشارة إليها فى عبارات موجزة، وإن كانت مع إيجازها فى منتهى الدقة، وكيف أن الرواية اللاتينية، الفرنجية والكنسية، تفيض بالعكس فى تفاصيلها إفاضة واضحة.

وربما كانت رواية إجتهارت (أينهارت) مؤرخ شارلمان عن الموقعة، هى أدق هذه الروايات وأوثقها، فقد كتبت فى سنة ٨٢٩م، بعد وفاة شارلمان بقليل، واعتمد فيها على كثير من أقوال المعاصرين وشهود العيان.

وهو يفصل لنا حوادث الموقعة، ويذكر من هلك فيها من الأمراء والسادة الفرنج، ومنهم إيجهارد رئيس الخاص، وأنسلم محافظ القصر، وهردولاند حاكم القصر البريتانى، وهردولاند هو رولان بطل الأنشودة الشهيرة، التى نظمت فيما بعد عن هذه الموقعة، واستمدت من أناشيد معاصرة لها، والتى مازالت أثراً خالداً لقريض الفروسية فى العصور الوسطى. بيد أن أنشودة رولان تنحرف فى كثير من مناحيها إلى الأسطورة. وقد اتخذت الأسطورة من حوادث الموقعة موضوعاً لقصة حربية حماسية، حرفت فيها الوقائع الأصلية، أيما تحريف، ولكنها تستبقى مكان الموقعة، وبعض أشخاص التاريخ، وقد رأينا أن نورد فيما يلى خلاصة هذه القصة والأنشودة الشهيرة :

«غزا شارلمان إسبانيا، ولبث يحارب فيها سبعة أعوام، حتى افتتح ثغورها

ومدنها، ما عدا سرقسطة وهى معقل الملك العربى مارسيل. وكان يعسكر بجيشه بجوار قرطبة، حين جاءته رسل مارسيل يعرض عليه الطاعة، بشرط أن يجلو الفرنج عن إسبانيا. فعقد شارلمان مجلسا من البارونات ومنهم رولان ابن أخيه.

وكان رولان يرى أن تستمر الحرب، ولكن فريقاً آخر من السادة يرأسه جانلون كونت ما يانس، كان يرى الصلح والمهادنة، فغلب رأى هذا الفريق، لأن الفرنج سئموا الحرب والقتال، وأرسل جانلون إلى الملك مارسيل ليعقد معه شروط الهدنة. فأغراه مارسيل واستماله بالتحف والذخائر، واتفق معه على الغدر برولان وفريقه. ثم عاد إلي شارلمان وزعم أن مارسيل قبل شروط الفرنج.

وبذا قرر شارلمان الانسحاب. وتولى رولان قيادة المؤخرة. وكان معه الأمراء الإثنا عشر، وزهرة الفروسية الفرنجية. ولما وصل الجيش إلى قمة الممرات الجبلية، رأى أوليفر أحد الأمراء، جيشاً من العرب، يبلغ أربعمائة ألف مقاتل، فتضرع إلى رولان أن ينفخ فى بوقه ليدعو شارلمان إلى نجدته. فأبى رولان.

وانقض الجيش المهاجم على مؤخرة الفرنج، ونشبت بينهما عدة معارك هائلة. واستمر رولان يأبى طلب النجدة، حتى مزق جيشه، ولم يبق منه سوى ستين رجلا، وعندئذ نفخ فى بوقه يدعو شارلمان، ثم قتل بقية أصحابه، ولم يبق سوى رولان وأوليفر واثنين آخرين.

ولما شعر العرب أن شارلمان سيرتد بجيشه لقتالهم، قرروا الانسحاب. وكان زملاء رولان الثلاثة قد قتلوا، وأثخن رولان نفسُه جراحاً، حتى أشرف على الموت، ولكنه استطاع أن ينفخ فى بوقه مرة أخرى قبل أن يموت، وأن يسمع صرخة شارلمان الحربية. وسمع شارلمان صوت البوق على بعد مراحل عديدة. فعاد مسرعاً وطارد جيش العدو وسحقه. ودفن الفرنج قتلاهم، وعوقب جانلون الخائن أروع عقاب. وتوفيت ألدة، خطيبة رولان، حينما علمت بموته».

هذه هى خلاصة القصة التى ترددها أنشودة رولان الشهيرة، وهى أبعد ماتكون عن وقائع التاريخ الحق. بيد أنها تتخذ مادتها من بعض هذه الوقائع، ومن الذكريات، والروايات الشفوية المتناقلة، والأناشيد الحربية المعاصرة. وهى نوررمانية الأصل ظهرت لأول مرة في القرن الحادى عشر، أعنى بعد الموقعة بنحو ثلاثة قرون، ودونت أولا فى بعض القصص اللاتينية، ثم دونت بالنظم فى ملحمة طويلة تبلغ أربعة آلاف بيت بعنوان « أنشودة رولان»، ولبثت تعتبر مدى عصور من أعظم الآثار الأدبية، ومن روائع القريض الحربى.

وكانت حوادث هذه الموقعة الشهيرة -موقعة باب الشزرى- مستقى خصباً لكثير من الكتاب والشعراء، وكانت بالأخص مستقى لقصص الفروسية، والملاحم الحماسية المغرقة، التى تملأ فراغاً كبيراً فى الأدب الفرنجى فى العصور الوسطى.

ومما يلفت النظر فى حوادث الموقعة أن شارلمان لم يحاول بعد أن أفاق من الصدمة الأولى، أن يعجل بالانتقام لنكبة جيشه ومقتل فرسانه، وأن يعود فيطارد تلك العصابات، التى تحدته واجترأت عليه، سواء من المسلمين أو البشكنس. وتعليل ذلك هو أن شارلمان شغل قبل كل شيء، بخطورة الأنباء التى وصلته عن تحرك السكسونيين، وهم ألد أعداء الفرنج وأخطرهم، فارتد أدراجه مسرعاً، ليخوض معهم حرباً جديدة، استطالت زهاء سبع سنين.

ولم يبق بيد شارلمان، بعد استنقاذ المسلمين للرهائن، سوى ثعلبة بن عبيد قائد عبد الرحمن، وقد لبث فترة أخرى معتقلا بفرنسا، حتى تمت المفاوضة بشأنه، وأطلق سراحه لقاء فدية كبيرة.

وهكذا اختتمت محاولة شارلمان، غزو اسبانيا المسلمة والتدخل فى شئونها، بنكبته والقضاء على زهرة جنده، وقد أسبغت هذه النكبة مدى حين سحابة على مجده الحربى. ولو قيض لشارلمان أن يفتتح سرقسطة، وقواعد الثغر الأعلى، لمهد له سبيل الزحف إلى الجنوب، ولعرضت حياة الأندلس المسلمة

لخطر محقق. ولكن قدر أن يقضى على محاولته على يد جيش صغير من المسلمين المغامرين البواسل.

بيد أنها لم تكن آخر محاولة من نوعها لعاهل الفرنج، فإن السياسة الفرنجية لبثت بالرغم من هذه الصدمة المؤلمة، ترقب سير الحوادث فى الأندلس، لتجد فيها ثغرة تتخذها وسيلة لتحقيق غاياتها. وقد سنحت بعد ذلك أكثر من فرصة انتهزها شارلمان للتدخل فى شئون اسبانيا المسلمة، وغزو أراضيها.

وقد نوهنا فيما تقدم بما تجنح إليه الروايات العربية عن موقعة باب الشزرى من الإيجاز، وذلك فى الوقت الذى تميل فيه الروايات اللاتينية إلى الإفاضة الواضحة. وقد كان خليقا بالرواية العربية أن تبسط القول فى حوادث موقعة لها من الخطورة البالغة، ما لموقعة باب الشزرى، خصوصا وقد كان التفوق فيها للجانب الإسلامى.

ولكن الرواية العربية لم تنظر إلى الموقعة، إلا من حيث ارتباطها بحوادث الأندلس. ومن جهة أخرى، فإنها لم تكن على علم تام بما يدور فى الناحية الأخرى من جبال البرنيه، فى مملكة الفرنج الشاسعة. ولم تقف على آثار الصدى الهائل الذى أحدثه تمزيق جيش شارلمان داخل مملكة الفرنج، وفى سائر الأمم المتصلة بها، ولاسيما القبائل السكسونية ألد أعداء الفرنج يومئذ.

ومع ذلك فإن الرواية العربية على إيجازها، تقدم إلينا ممهدات الموقعة، وعناصرها الأساسية بمنتهى الدقة. بل أن العلامة المؤرخ الأستاذ بيدال، وهو آخر من تناول حوادث هذه الموقعة من النقدة المحدثين بإفاضة، وبأسلوبه النقدى الرائع، يقرر لنا أن الرواية العربية هنا هى أرقى بكثير من الرواية اللاتينية، وأنها فيما يتعلق بغزوة شارلمان لإسبانيا، أبعد من أن تنحدر إلى الغموض والتناقض، وأنها بالعكس تقدم إلينا بعض أنباء فى منتهى الأهمية والدقة.

المسلمون سادة البحر

كان القرن التاسع الميلادى (القرن الثالث الهجرى) عصر السيادة البحرية الإسلامية. وكان البحر الأبيض المتوسط (بحر الروم) بما تغص به شواطئه في الشرق والجنوب والغرب من الثغور الإسلامية القوية، ميدان هذه السيادة. وقد بدأ العرب معاركهم البحرية الأولى فى تردد وروعة من البحر وأهواله، ولكنهم بدأوها إبان فورة الفتح الأولى.

ولم يمض سوى نصف قرن حتى كان البحر لهم كاليابسة محط الغزوات والفتوح الجريئة. ومنذ خلافة عثمان خرج العرب إلى البحر فى أساطيل وحملات قوية ليفتتحوا الجزائر القريبة من الشواطئ الإسلامية. ففى سنة ٢٨ أو ٢٩هـ (٦٤٨م) غزا معاوية بن أبى سفيان جزيرة قبرص وفرض عليها الجزية، وفى سنة ٣٢ هـ سار إليها ثانية فى أسطول ضخم وافتتحها.

وفى خلافة معاوية غزا العرب صقلية لأول مرة، وافتتحوا جزيرة رودس، وفى خلافة الوليد بن عبد الملك، غزوا إقريطش وصقلية وسردانية، وافتتحوا جزائر البليار (ميورقة ومنورقة ويابسة). وكانت حملات قسطنطينية، وما سيرته الخلافة لحصارها من الأساطيل الضخمة والقوى الجرارة، من أعلم الحملات البحرية التى عرفت فى تلك العصور.

ومازلت الحملات البحرية الإسلامية فى قوة وإزدياد، حتى إذا كانت فاتحة القرن التاسع، كان المسلمون سادة البحر يقبضون على ناصية المياه الجنوبية والوسطى فى ذلك البحر الشاسع الذى يتوسط العالم القديم، ويشرف عليه من كل نواحيه. وكانت دول العالم القديم ومجتمعاته تعانى يومئذ نوعاً من الاضطراب العام، فالحرب الأهلية تكاد تغشى كل أمة، وقد أخذت عوامل الإنحلال التى أصابت الدولة البيزنطية وحضارتها، تتسرب أيضا إلى الدول الإسلامية، ودولة الفرنج القوية.

وكان من أهم خواص هذا العصر إزدهار حرب المغامرة، وكثرة العصابات القوية، التى تستطيع أن تتحدى الحكومات القائمة.

وكان البحر محط هذه الحروب، وثغوره الغنية مهبط هذه الحملات. وكانت هذه العصابات القوية التى تجوس خلال البحر الأبيض المتوسط مسلمة فى الغالب، تعمل لحساب نفسها أو فى ظل إحدى الحكومات المسلمة، مستقلة أو إلى جانب الحملات الرسمية، وقوامها بالأخص رجال من الطبقة الوسطى، وزعماؤها بعض الأكابر الذين دفعتهم خيبة الأمل أو صروف الزمن إلي أن يبحثوا وراء طالعهم.

وكان انتشار الرق فى هذا العصر يسهل عليهم حشد الرجال المخاطرين البواسل. وكان هؤلاء المغامرون يحفزهم روح استعمار قوى، كذلك الذي دفع الأمم الغربية فى العصر الحديث إلى افتتاح الأمم المتأخرة واستعمارها.

وقد لبثت هذه الحملات البحرية الإسلامية زهاء قرنين تبث الروع والرعب فى شواطئ البحر المتوسط وثغوره النصرانية، وتحدث الاضطراب والفزع فى كثير من الدول، وتذكى أطماع الناقمين والمتنافسين فى طلب الرياسة والملك. وكانت المياه الإيطالية والبيزنطية بالأخص مقصد هذه الحملات، وثغورها وجزائرها الغنية محط رحالها وقبلة أنظارها. وسنقدم فى هذا الفصل لمحة من أخبار هذه الحملات البحرية الشائقة، وغزواتها وفتوحها، وآثارها السياسية والاجتماعية.

فتح إقريطش

بدأ المسلمون فتوحهم البحرية كما قدمنا بغزو الجزائر القريبة من شواطئهم وافتتاح بعضها مثل قبرس ورودس. وقصدوا إقريطش (كريت) فى عهد الوليد ابن عبد الملك، ثم فى عهد الرشيد، فلم يوفقوا إلى فتحها. ولم تفتتحها سوى إحدى هذه العصابات البحرية المغامرة الى أشرنا إليها.

وكان قوامها جماعة من عرب الأندلس الذين خرجوا على الحكم بن هشام أمير الأندلس فيمن يخرج عليه من أهل قرطبة فى رمضان سنة ٢٠٢هـ (٨١٨م)، وهم أهل الربض الجنوبى للمدينة وتعرف ثورتهم من أجل ذلك بثورة الربض.

ولكن الحكم هزم الثوار ومزق شملهم وفتك بكثير منهم، ثم أمر بديارهم فهدمت وأحرقت وأمر بخروج من بقى منهم فى الحال من قرطبة، وأن لا أمان لديه لمن تخلف منهم، ففرت فلولهم إلى مختلف الأنحاء.

وهاجر بعضهم إلى المغرب، وقصد معظمهم إلى مصر فى عدة من السفن، ونزلوا بثغر الاسكندرية، واشتركوا فى الحرب الأهلية التى كانت تضطرم بمصر يومئذ، ثم استولوا على الاسكندرية من يد حكامها، واتخذوها قاعدة لغاراتهم وحملاتهم الناهبة على جزر بحر الأرخبيل.

فلما قدم عبد الله بن طاهر قائد المأمون إلى مصر ليقمع الثورة فيها، اضطر الأندلسيين إلى إخلاء الاسكندرية (سنة ٢١٢هـ-٨٢٧م) وكانت جماعة منهم قد أغارت قبل ذلك ببضعة أعوام على إقريطش واستولت على ناحية منها، وأقامت بها، فلم ير الأندلسيون خيرا من اللحاق برفاقهم وافتتاح الجزيرة التى خبروا ثروتها وخصبها فيما سبق من غاراتهم.

خرجت هذه العصبة المغامرة الجريئة وقوامها نحو عشرة آلاف مقاتل من

مياه الاسكندرية فى نحو أربعين سفينة بقيادة جندى وبحار جرىء هو أبو عمر حفص ابن عيسى الأندلسى المعروف بالإقريطشى أو البلوطى (وتسميه الرواية البيزنطية أبو شابس). ورست على شواطئ إقريطش فى أواخر سنة ٢١٢هـ (٨٢٧م). وانقض المسلمون على الجزيرة، ففرت الحامية البيزنطية، وارتاع السكان فلم يبدوا كبير معارضة، ولم تستطع حكومة قسطنطينية أن تبعث بالمدد إلى الجزيرة لاشتغال الإمبراطور ميخائيل الثانى بقمع الثورة الداخلية.

ويروى المؤرخون البيزنطيون أن أبا حفص لما نزل إلى الجزيرة أمر بإحراق السفن وأنه قال لجنده حينما احتجوا على هذا العمل : « فيم شكواكم ؟ لقد حملتكم إلى أرض تفيض باللبن والشهد، هذه أرضكم الحقة فاستريحوا وانسوا أوطانكم المجدبة، فقالوا : وأولادنا؟» فأجابهم «سوف تؤدى الأسيرات الحسان لكم وظائف الزوجات، ومن ثم تصبحون آباء جيل جديد». فأقام سيل من المغامرين حيث نزلوا وأحاطوا معسكرهم بخندق ضخم، أطلق اسمه على إقريطش حيث سميت «بالخند» وهو الإسم الذى حرفه الغربيون إلى كانديا.

وأسس الأندلسيون فى إقريطش حكومة جديدة، واتخذوا الجزيرة قاعدة لطائفة من الحملات الناهبة على الجزر المجاورة، ووفد عليهم سيل من المغامرين من جميع الثغور الإسلامية، ليحصلوا نصيبهم من الغنائم اليونانية.

وجزع الإمبراطور ميخائيل لذلك الخطر الجديد فجهز حملة بحرية كبيرة بقيادة أمير البحر أوريفاس جاست خلال جزر الأرخبيل وطاردت البحارة المسلمين. غير أنها ارتدت أمام غزاة إقريطش، وجهز خلفه الإمبراطور تيوفيلوس حملة كبيرة أخرى فمزقها المسلمون بالقرب من تاسوس. ولبث المسلمون فى إقريطش زهاء قرن وثلث يزعجون جزائر الأرخبيل بالغزوات المتوالية، حتى استعاد اليونانيون الجزيرة منهم فى عهد الإمبراطور روماتوس الثانى سنة ٩٦١م (٢٥٠هـ).

فتح صقلية وسردانية و كورسيكا وجنوبى إيطاليا

وفى نفس الوقت الذى افتتحت فيه إقريطش، افتتح المسلمون جزيرة صقلية وأسسوا بها دولة زاهرة. وكانت الجزر الثلاث الكبرى فى وسط البحر الأبيض المتوسط أعنى صقلية وسردانية وكورسيكا، تجذب أنظار الغزاة بضخامتها وغناها. فتقصدها الحملات البحرية من ثغور إفريقية والأندلس، وهى حملات كان ينقصها الطابع الرسمى فى أغلب الأحيان، وتتألف عادة من جموع من المجاهدين أو النواتية المغامرين، على النحو الذى اتبعه فيما بعدكثير من أبطال البحر الإنجليز والإسبان فى القرن السادس عشر.

وكانت صقلية تقع فى هذا العصر تحت سيادة الدولة البيزنطية (الدولة الشرقية) الفعلية، أما سردانية وكورسيكا فكانتا تقعان تحت سيادتها الإسمية، وكان الفرنج قد استولوا على كورسيكا، وانضوت سردانية تحت لوائهم تطلب حمايتها من الغزاة. ومع أن السرايا البحرية الإسلامية غزت هذه الجزيرة غير مرة أيام الدولة الأموية، فإنها لم تستطع أن تقوم فيها بفتوحات ثابتة نظرا لضخامتها، وبعدها عن شواطئ إفريقية والأندلس، ونظرا لصغر الحملات المسيرة، وطبيعة هذه الغزوات ذاتها.

ولكن الأساطيل الإسلامية بلغت فى أوائل القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) فى إفريقية والأندلس مبلغاً من القوة والاستعداد لم تبلغه من قبل، وحملت غزوات النورمانيين لشواطئ الأندلس حكومة قرطبة على الإهتمام بإنشاء أسطول قوى يستطيع حماية الثغور، ورد العدوان بمثله.

وكذا عنيت حكومة الأغالبة فى إفريقية (تونس) بإنشاء قوى بحرية تكفى لحماية شواطئها من عدوان البيزنطيين والبيزيين والفرنج.

وكان الأغالبة يسيطرون من تونس على المياه الوسطى للبحر المتوسط، وكانت أساطيلهم القوية تجوس خلال هذه المياه فيما بين قلوريه (كلابريا) وحتى سردانية وكورسيكا، وتثخن فى شواطئها، وكانت صقلية نظرا لضخامتها وغناها وقربها من الشاطئ الإفريقى، تبدو لهم بالأخص غنيمة قيمة هينة، فكانت مطمع أنظارهم يتحينون الفرص لافتتاحها وامتلاكها.

ولافتتاح المسلمين لصقلية قصة طريفة تبدو كأنها قطعة من الخيال الشائق، وكان افتتاحها على يد شخصية عجيبة تبدو كأنها من شخصيات الأساطير الأولى.

فأما قصة الفتح حسبما تقدمها إلينا الرواية البيزنطية، فخلاصتها أن سيدا من أشراف صقلية يدعى بوفيمبوس (ويسميه العرب فيمى) هام بحب راهبة حسناء واختطفها من ديرها، فقضى الإمبراطور، وهو يومئذ ميخائيل الثانى، بجدع أنفه، عقاباً له على جرمه، ففر إلى بلده سرقوسة، وثار فى عصبته وأنصاره على حاكم الجزيرة البيزنطى، وانتزع منه سرقوسة، وبسط حكمه عليها.

ووقعت بالجزيرة حرب أهلية لم يثبت فيها فيمى، واخرج من سرقوسة، ففر إلى إفريقية (تونس) واستغاث بأميرها، وهو يومئذ زيادة الله الأغلب، ودعاه إلى فتح صقلية ووعده بملكها.

ولكن الرواية الإسلامية لا تذكر لنا شيئا عن قصة الراهبة المخطوفة، وتقول لنا فقط إن الإمبراطور غضب على فيمى، وهو مقدم أسطوله، وأمر بالقبض عليه، وأنه ثار فى شيعته واستولى على سرقوسة، ثم انتزعها منه زعيم آخر يدعى بلاطه، فسار فيمى فى سفنه إلى إفريقية واستنجد بأميرها زيادة الله بن الأغلب، فاستجاب إلى دعوته وسير أسطوله إلى صقلية لافتتاحها بقيادة قاضى القيروان أسد بن الفرات بن بشر المرى.

وكان أسد بن الفرات فقيها وعالما من أعظم علماء عصره. وهو أندلسي من إقليم غرناطة، رحل فى شبابه إلى المشرق ولقى الإمام مالك بن أنس بالمدينة وأخذ عنه، ثم عاد إل إفريقية وولى قضاء القيروان وألف كتاب «المختلطة» فى الفقه المالكى.

ومما يدعو حقا إلى الإعجاب والدهشة، أن أسد بن الفرات كان إلى جانب علمه الغزير، أيضاً جندياً جريئاً وبحاراً مغامراً، وقد قام من قبل فى هذه المنطقة من مياه البحر المتوسط بغزوات سابقة، ويقول لنا ابن خلدون إنه افتتح جزيرة قوصر قبل ذلك.

وفى التواريخ الإفرنجية أن المسلمين قاموا سنة ٨٠٦م بعدة غزوات فى كورسيكا. وفى سنة ٨١٠ ظفروا بالاستيلاء عليها مؤقتا حتى أخرجتهم منها جنود كارل الأكبر (شارلمان). ولكنهم غزوها بعد ذلك مراراً. والظاهر أن أسد بن الفرات، وقد كانت هذه المياه وقتئذ مسرحاً لأساطيل الأغالبة، كان له نصيب بارز فى هذه الغزوات.

ولما اعتزم ابن الأغلب فتح صقلية حسبما تقدم، استنفر الناس للجهاد، فهرعوا لتلبية دعوته، وجمعت السفن من مختلف السواحل، وندب ابن الفرات لقيادة الحملة . وخرج القاضى وأمير البحر الشيخ على رأس سفنه مرة أخرى فى ربيع سنة ٢١٢هـ (٨٢٧م) متجها إلى جنوبى صقلية.

ولم تكن هذه الحملة من السرايا الصغيرة، بل كانت فيما بعد أعظم حملة عربية قادها أسد بن الفرات، وكانت حسبما تذكر الرواية الإسلامية تضم تسعمائة فارس وعشرة آلاف راجل غير النواتية. وكان معظمهم من الجند المجاهدين فى سبيل الله. ورست السفن الإسلامية فى ثغر مازر (أو مازارا فى طرف الجزيرة الغربى، وهو أقرب ثغورها إلى الشاطئ الإفريقى، ونفذ أسد بن

الفرات على رأس جنده إلى شرقى الجزيرة ورفض الاستعانة بالروم الذين اجتمعوا بقيادة فيمى لمعاونته فى القتال.

واستولى المسلمون على عدة حصون، وحاصروا سرقوسة وبلرم، ووقعت بينهم وبين الروم (البيزنطيين) معارك طاحنة، وبعث الإمبراطور بالامداد، فاشتد الأمر على المسلمين، وهزموا فى عدة مواقع، ومات منهم كثيرون بالوباء ومنهم قائدهم ابن الفرات (٢١٣هـ).

وشدد الروم الحصار عليهم فبعث ابن الأغلب الأمداد إلى صقلية، ووصل إليها فى الوقت نفسه أسطول من الأندلس من السرايا المجاهدة المغامرة سنة ٢١٤هـ (٨٢٩م)، فأعاد المسلمون الكرة وفتحوا بلرم.

واستمر ابن الأغلب فى تسيير البعوث والأمداد إلى صقلية، واستمر المسلمون فى افتتاح مدنها وحصونها تباعاً : بلرم وقصريانه (كستروجوفانى) وجرجنت (جرجنتو) وقطانية ومسينى وغيرها، بيد أن تقدمهم فى الجزيرة كان بطيئاً لوعورة أرضها، فاستقروا فيما افتتحوه منها، وأسسوا بها إمارة يتولى عليها الولاة حتى تم افتتاح الجزيرة بافتتاح سرقوسة آخر معاقلها فى سنة ٢٦٤هـ (٨٧٨م) .

وقامت فى صقلية دولة إسلامية لبثت زهاء قرنين، وإزدهرت فى ظلها الجزيرة، وغدت حديقة يانعة، تزهو بعلومها وتجارتها وصناعتها، حتى إذا أدرك الوهن والإنحلال تلك الدولة الإسلامية الصغيرة، توالت حملات الفرنج على الجزيرة، حتى استعادها الدوق روجر (رجار) النورمانى سنة ٤٦٤هـ (١٠٧٢م)، وانتهت بذلك دولة الإسلام فى صقلية كما ينتهى الحلم السعيد.

ومما هو جدير بالذكر، أن الحضارة الإسلامية، لبثت حيناً تزدهر فى صقلية، بعد افتتاح الفرنج النورمان لها. وكان أولئك الأمراء النورمان من ذوى

الأفق الواسع، وممن يقدرون تفوق المسلمين الحضارى، ويؤثرون الانتفاع بعلومهم ومعارفهم، ومن ثم فقد استطاعت بقية الجالية الإسلامية فى صقلية، أن تعيش فى ظلهم مدى حين آمنة متمتعة بشعائرها ونشاطها العلمى والمهنى.

وفى ظل هذا التسامح المحمود، دعا الدوق روجر الثانى ولد فاتح الجزيرة للعمل فى بلاطه رهطاً من العلماء المسلمين، من الصقليين المحليين، ومن إفريقية والأندلس.

وكان فى مقدمة هؤلاء العلامة الجغرافى الكبير أبو عبد الله محمد بن عبد الله الإدريسى السبتى، المشهور بالشريف الإدريسى، دعاه الدوق، وأغدق عليه رعايته، وعهد إليه بأن يعمل له كرة أرضية من الفضة الخالصة ترسم عليها الأقاليم السبعة التى هى أساس التقسيم الجغرافى القديم، فقام العلامة المسلم بمهمته على أكمل وجه، وأثابه الدوق عنها أعظم إثابة.

ثم عهد الدوق بعد ذلك إلى الإدريسى، بوضع موسوعة جغرافية توصف فيها أحوال بلاد الأرض، وصورها وبحارها وجبالها، وخواصها، وذكر أحوال أهلها، فوضع الإدريسى موسوعته الجغرافية الشهيرة التى خلدت اسمه وهى «نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق»، وانتهى من كتابتها فى أوائل سنة ١١٥٤م، قبيل وفاة الدوق بقليل.

ولما كان هذا المؤلف العظيم قد وضع بإشارة الدوق ورعايته، فقد أهدى إليه فى مقدمته، وسمى أيضاً «بكتاب رجار» أو «الكتاب الرجارى» تنويها من مؤلفه المسلم بفضل هذا الأمير العالم المستنير. ويعتبر«نزهة المشتاق» أعظم مؤلف جغرافى فى العصور الوسطى، وهو يشغل عدة مجلدات كبيرة. وهو يمثل بظروف تأليفه ثمرة من أجل ثمار التعاون المستنير بين الشق والغرب.

وغدت صقلية منذ افتتحها المسلمون قاعدة لطائفة كبيرة من الحملات

والغزوات البحرية التى ينظمها الأغالبة أو لواة صقلية، أو تنظمها العصابات الخاصة، لغزو الثغور والشواطئ الإيطالية ونهبها. وكانت هذه الحملات تنقض بلا انقطاع على الشواطئ الإيطالية الشرقية والغربية فتنشر الذعر والروع فى الإمارات النصرانية، وتعود مثقلة بالغنائم والأسرى. وتقيم للرقيق فى الثغور الإسلامية أسواقا رائجة.

ففى سنة ٨٤٣م (٢٢٩هـ) اختلف أميران من اللومبارد على إمارة بنفونتوم (جنوب إيطاليا) فاستنصر أحدهما بأمير صقلية الفضل بن جعفر. فبعث إلى قلورية بحملة قوية، فاستولت على ثغر بارى (باره) واستقرت به، وأنشأت فيه قاعدة قوية للغزو فى هذه المياه، وعاثت فى نواحى قلورية وفرضت الجزية على معظم مدنها.

وفى سنة ٨٤٦م (٢٣٢هـ) سارت حملة بحرية أخرى من صقلية إلى شاطئ إيطاليا الغربى، وبعد أن عاثت فى ثغوره ونهبت فوندى، رست أمام مصب نهر تفيرى (التيبر) الذى تقع عليه رومة، ثم نفذت إلى رومة ونهبت كنيستى القديس بطرس والقديس بولس، وكانتا وقتئذ خارج رومة. ولم ينقذ «ملكة العالم» (رومة) من الوقوع فى يدها سوى جند الإمبراطور لويس الثانى (سنة ٨٥٠م) فارتدت إلى محاصرة جايتا.

واضطر البابا ليون الرابع إلى تحصين ضاحية الفاتيكان، وأدخل كنيستى القديس بولس والقديس بطرس فى المدينة الجديدة المعروفة «بمدينة ليون» واستولى المسلمون فى نفس الوقت على ثغر تارانتو (تارانت) ثم على راجوزا (رغوس) من ثغور الأدرياتيك الشرقية. وتوالت حملات البحارة المسلمين بعدئذ على الثغور الإيطالية حتى اضطر سكانها أن ينشئوا على طول الشاطئ أبراجاً وقلاعاً وافرة المنعة لكى ترد الهجوم المفاجئ، شامخة الارتفاع لكى لا تصل النيران التى تضرم فى أسفلها إلى طبقاتها العليا، وهبت على ايطاليا فى هذا

العصر عاصفة من الخوف والذعر المستمر، وسرت الفوضى إلى جميع طبقات المجتمع.

ولم يكن خطر الحملات الإسلامية البحرية على ثغور الدولة البيزنطية فى شرق بحر الروم أقل منه فى المياه الإيطالية. ففى سنة ٨٨١م (٢٦٧هـ) خرج أمير طرسوس فى ثلاثين سفينة وهاجم شاليس، ولكن أونيانيس القائد البيزنطى أشرف عليه بقوة كبيرة، ونشبت بين الفريقين معركة قتل فيها أمير طرسوس، وهزم المسلمون.

ولم تمض على ذلك بضعة أعوام حتى انقضت عصابة من إقريطش على شواطئ الهيليس (الدردنيل) ونهبت جزيرة بركنيسوس، ثم ارتدت أمام الأسطول الإمبراطورى بقيادة أوريفاس، غير أنها عادت بسفن جديدة وانقضت على شواطئ اليونان الجنوبية، فاضطر أوريفاس أن يلجأ إلى حيلة قديمة معروفة هى أن ينقل السفن من المياه الشرقية إلى مياه الأدرياتيك فوق مضيق كورنتة، وبذلك استطاع أن يداهم سفن المسلمين عند مدخل الأدرياتيك وأن يمزقها.

أعظم بحار مسلم

وفى أواخر القرن الثالث الهجرى (أواخر القرن التاسع الميلادى) ظهر فى شرقى بحر الروم أعظم بحارز فى ذلك العصر، وأعظم بحار مسلم على الإطلاق، وهو أمير البحر الذي تعرفه الرواية البيزنطية باسم ليون الطرابلسى وتفيض فى سرد حملاته وغزواته البحرية الجريئة على ثغور الدولة البيزنطية، وما كانت تحدثه هذه الغزوات فى الدولة وثغورها من الروع والاضطراب.

فمن ليون الطرابلسى هذا ؟ هو أمير البحر أو القائد الذى يطلق عليه المؤرخون المسلمون اسم «غلام زرافة». وليس فى الرواية العربية ما يلقى الضياء على نشأته. ولكن الرواية البيزنطية تحدثنا عن هذه النشأة، فتقول إن ليون الطرابلسى ولد من أبوين نصرانيين فى أتاليا من أعمال بامفليا. ولكنه اندمج منذ حداثته فى العصابات المسلمة واعتنق الإسلام، واستقر فى طرابلس من أعمال الشام.

ونشأ ليون منذ حداثته فوق متن السفن، وتلقى دروسه الحربية فى لجة البحر، واشترك فى كثير من الغزوات والحملات الناهبة التى كانت تنظمها العصابات البحرية المسلمة. للإغارة على شواطئ بحر الأرخبيل وثغوره وجزره.

ثم انتقل إلى طرسوس وجمع تحت لوائه أمهر وأشجع البحارة المسلمين فى هذا العصر، واتخذ طرسوس محط رحاله، ومرفأ سفنه، وأضحى فى عصبته القوية المغامرة، قوة تروع الدولة البيزنطية وثغورها.

وكانت أعظم غزوة قام بها ليون الطرابلسى أو غلام زرافة، هى غزوة تسالونيكا فى سنة ٩٠٤م (٢٩١هـ). والرواية الإسلامية موجزة أيضا فى أخبار هذه الغزوة الشهيرة بينما تفيض الرواية البيزنطية فى تفاصيلها. وتجمل الرواية الإسلامية خبرها فيما يأتى : «فى سنة ٢٩١هـ سار القائد المعروف بغلام زرافة

من طرسوس نحو بلاد الروم ففتح مدينة «أنطاكية» وهى تعادل القسطنطينية، فتحها بالسيف عنوة فقتل خمسة آلاف رجل وأسر مثلها، واستنفذ من أسرى المسلمين مثلها، وغنم ستين من مراكب الروم بما فيها من المال والمتاع والرقيق، فقسمها مع غنائم أنطاكية فكان السهم ألف دينار»، وسنرى أن أنطاكية المقصودة هنا هى تسالونيكا لا أنطاكية الشام التى كانت يومئذ ثغراً مسلماً. وسننقل فيما يلى تفاصيل الرواية البيزنطية، وقد دونها مؤرخ معاصر شهد الموقعة بنفسه هو يوحنا كامنياتس.

خرج ليون الطرابلسى من طرسوس فى أربع وخمسين سفينة فى كل منها نحو مائتى مقاتل عدا جماعة مختارة من الرؤساء والضباط. وانضم إليه فى مسيره أشجع خوارج البحر (القرصان) فى مياه المشرق. ولم يجرؤ الأسطول البيزنطى الذي بعثه الإمبراطور ليون السادس لحماية ثغور الدولة على لقاء سفن المسلمين، فارتد إلى ضفاف الهيليس (الدردنيل) تاركا مياه الأرخبيل (إيجه) مفتوحة لسفن الغزاة.

وذاع فى قسطنطينية أن الغزاة يقصدون ثغر تسالونيكا، وكانت عندئذ أعظم الثغور البيزنطية وأمنعها وأغناها بعد قسطنطينية. وكانت مخرج إقليم غنى خصب. وتقع تسالونيكا على هضاب أولمبوس، وتشرف على رأس خليج ضيق تستطيع أن تمتنع به السفن.

وكان يفصلها عنه سور ضخم يمتد نحو ميل على طول الشاطئ، وتحميها بعد ذلك قلاع حصينة شيدت على آكام مرتفعة، ولكنها كانت يومئذ واهية متداعية، وكان السور الكبير قد تهدمت حافته العليا مما يلي البحر فكان فى وسع السفن أن تدنو من أسوار المدينة.

ولذا حاول بتروناس قائد الحامية أن يرد السفن الغازية بأن يلقى فى الماء

على مسافة من الأسوار، مقادير كبيرة من الصخور الضخمة وقطع الرخام الذى كانت تردان به القبور اليونانية، لكى يعرض بذلك سفن الغزاة لنبال اليونانيين ونيرانهم.

أما سكان المدينة أنفسهم فقد وضعوا ثقتهم فى حامى مدينتهم «القديس ديمتريوس» وأيقنوا أنه أهل لرد الخطر الجديد، كما رد الصقالبة عن المدينة مراراً، وتقدم لغوثهم فى كل حصار وغزوة، وحماهم بالأخص من هجوم المسلمين والوثنيين.

وكانت الإشاعات المزعجة تتردد كل يوم بمقدم الغزاة، وكان ليون الطرابلسى قد طارد الأسطول البيزنطى حتى مضيق الهيليس ثم عاد إلى تاسوس. ثم توفى بتروناس فجأة، فتولى القيادة مكانه ضابط يدعى نيكيتاس ، وبذل جهداً كبيراً فى إعداد وسائل الدفاع، واستقدم بعض الجند الصقالبة من الأنحاء القريبة. بيد أن سكان المدينة لم ينزعوا ثقتهم من القديس ديمتريوس، فهرعوا وراء القسس والأسقف إلى كنيسة هذا القديس، وانهمكوا فى الصلاة العامة ليل نهار.

أما ليون الطرابلسى فوقف قليلا فى تاسوس ليصلح سفنه، وليعد المجانيق وغيرها من آلات التدمير. وفى يوم الأحد ٢٩ يوليه سنة ٩٠٤ طار الخبر فى المدينة، بأن الغزاة قد وصلوا إلى الخليج واحتجبوا عن الأنظار، فعم الاضطراب والذعر، وارتفع الصراخ والعويل، وتأهب السكان للقتال بين دموع الزوجات والأطفال .

ثم ظهرت سفن المسلمين أخيرا، وتقدمت من المدينة، وكان مرفأها محميا بسلاسل ضخمة مدت بين الضفتين، وقد أغرقت فيه سفن عدة لتحول دون اقتراب المهاجمين، فاستطلع أمير البحر المسلم مدخل المدينة وحصونها، ثم قام بهجوم محلى ليختبر منعتها، وليتعرف مبلغ استعداد أهلها للدفاع عنها .

وفى اليوم التالى هاجم المسلمون المدينة من الشرق، وحاولوا اقتحام السور بنصب السلالم، وإطلاق المجانيق، ولكنهم ردوا أمام سيل من أحجار البزنطيين وسهامهم. فلجأ ليون الطرابلسى عندئذ إلى وسيلة أخرى، وبعث طائفه بحراقات غطيت حتى لا تصلها نار المدافعين، وأضرم الطلائع النار تحت أبواب المدينة من الشرق وارتدوا تحت وابل من السهام والأحجار، فارتفعت ألسنة اللهب وتداعت الأبواب الحديدية.

ولكن المسلمين لم يظفروا بجديد إذ ظهر أن الممرات التى تلى الأبواب قد سدت بالبناء المحكم وأقيمت فوقها أبراج منيعة. وكان ليون الطرابلسى يرمى بكل هذه المقدمات إلى تحويل عناية المدافعين عن غايته الحقيقية.

وكان قد رأى أنه يستطيع محاذات السور فى عدة مواضع عينها بدقة، وعندئذ بدأ بتنفيذ خطته النهائية بمنتهى البراعة والسرعة، فربطت عدة سفن كل اثنتين معاً ربطاً وثيقاً محكماً، وأقيم فوق كل اثنتين برج خشبى مرتفع. وفى صباح اليوم التالى دفعت هذه الأبراج نحو المواضع المنخفضة فى السور، وفى كل منها نخبة من المسلمين تستطيع أن تشرف على أبراج المدافعين من عل، فنشبت بين الفريقين معركة هائلة، وقذف المسلمون البيزنطيين بوابل مستمر من الأحجار والسهام والنار اليونانية التى بدأوا باستعمالها فى هذا العصر فارتد اليونانيون عن الأبراج.

وكان بحارة السفن السكندرية أول من اقتحم السور، فانقضوا على باقى الأبراج وأجلوا اليونانيين عنها، ثم فتحوا أبواب المدينة، فانقض المسلمون عليها من كل ناحية، ودخل البحارة المكلفون بجمع الأسلاب شاهرين السيوف وليس عليهم سوى السراويل، وفر البزنطيون والصقالية من كل صوب.

ثم قسم المسلمون أنفسهم إلى جماعات أخذت تجوس خلال المدينة قتلا

ونهباً وسبياً، وكان المؤرخ البيزنطى يوحنا كامنياتس وعدد من أفراد أسرته بين الأسرى، وقع فى يد جماعة من الأحباش فالتمس الرحمة منهم ، ووعد بأن يدل على مخبئ أودعت به ثروات أسرته.

وكان بين الأحباش من يفهم اليونانية، فقاده رئيس الجماعة إلى أمير البحر فأرسل معه من ينقل الكنز، وكان من حسن طالع كامنياتس أن وجد الكنز سليما، فرضيه ليون الطرابلسي فداء لحياة المؤرخ وأسرته، وأمر بحمله من أسر حتى يستبدل فى طرسوس بمن فى يد البيزنطيين من أسرى المسلمين.

وبعد أن أنفق المسلمون بضعة أيام فى النهب والسبى، غادر ليون الطرابلسى ثغر تسالونيكا مثقلا بغنائم فادحة، وعدد كبير من الأسرى يقدره يوحنا كامنياتس باثنين وعشرين ألفا ما بين رجال ونساء وغلمان، انتخبوا لفتى نويهم لكى يستطيعوا فداءهم، أو لجمالهم لكى يجدوا فى أسواق الرقيق أثماناً رابحة، وكان بين الأسرى كثير من أشراف اليونانيين قاسوا الأهوال فوق متن السفن، ومات كثير منهم من الجوع والبرد.

وسار ليون الطرابلسى فى سفنه متجنبا لقاء الأسطول البيزنطى، حتى لا يرهقه وهو مثقل بغنائمه، ورسا فى زنتاريون من ثغور إقريطش، وهنالك أنفق بضعة أيام في توزيع الغنيمة والسبى، ثم تفرقت السفن، وسارت كل جماعة من البحارة إلى مرافئها فى مياه مصر والشام، ووصل ليون إلى طرابلس فى ٢٤ سبتمبر سنة ٩٠٤، ثم سار إلى طرسوس التى كانت قاعدة للفداء أو استبدال الأسرى بين المسلمين والبيزنطيين، وهنالك استبدل أشراف تسالونيكا ومن بينهم المؤرخ كامنياتس، وهو الذي استخرجنا من كتاباته قصة هذه الغزوة الكبرى، بطائفة من أسرى المسلمين.

هذه لمحة فى أخبار البحارة المسلمين، ومنها نرى أن السيادة البحرية فى بحر الروم كانت للمسلمين مدى أحقاب طويلة، وأن سير تلك الفتوحات والحملات البحرية، التى انتهت بفتح إقريطش وصقلية وثغور ايطاليا الجنوبية، واستطاعت أن تجوس خلال البحر حتى قسطنطينية عاصمة الدولة الشرقية، وحتى رومة عاصمة النصرانية، وجنوه أقصى الثغور الايطالية، ليست تقل فى الأهمية والجرأة عن غزوات البحارة الإسبان والإنجليز فى القرن السادس عشر، فى المياه الأمريكية.

وليست أعمال بحارة كأبى حفص عمر البلوطى وليون الطرابلسى، أقل رنيناً وروعة من أعمال أمراء البحر المحدثين مثل أندريا دوريا، وجون هوكنس، وفرنسيس دريك، وكورتيز، وبيزارو وغيرهم، ممن تملأ سيرهم وأعمالهم صحفا من أبدع وأمتع صحف التاريخ الحديث.

وفى سير هذه الحملات والغزوات الإسلامية نستشف اضمحلال الدولة البيزنطية، وضعف حكومة قسطنطينية، وفساد بلاط يؤثر طغيانه تبديد أموال الدولة فى مظاهر الترف وتشييد القصور والكنائس، على تحصين أطراف الدولة وإعداد جيوشها وأساطيلها. بيد أنا نستطيع أن نلاحظ أيضاً أن ميول الشعوب التى تحكمها الدولة كانت عاملا هاماً فى تسهيل غزوات المسلمين، فإن هذه الشعوب لم تر فى حكم المسلمين من الغضاضة ما كانت تقدره حكومة قسطنطينية، التى بلغ عسفها وجورها مبلغا لم تبلغه حكومة إسلامية فى هذا العصر، ولنا دليل فى فتح صقلية التى انضم أهلها إلى المسلمين فى محاربة البيزنطيين.

وكانت هذه الحملات والغزوات تقترن عادة بضروب رائعة من العبث والسفك من الجانبين المتحاربين، وكانت تغذى أسواق المشرق كلها وقصوره بأسراب السرارى والرقيق. بيد أنا نلاحظ أن خوارج البحر المسلمين كانوا

يختصون الثغور النصرانية بعدوانهم، مما يدل على أن نزعة قومية أو دينية كانت غالبة فيهم، وكانوا يؤدون إلى الحكومات الإسلامية خدمات جليلة بإضعاف جيوش الدولة البيزنطية وأساطيلها، واستبدال أسرى المسلمين بمن يأسرون فى غزواتهم، ثم نلاحظ فى النهاية أن البحارة المسلمين كانوا مستعمرين حقاً، فقد استعمروا إقريطش وغيرها من جزر الأرخبيل عصوراً، وكانوا عضداً قوياً دولة الإسلامية، التى قامت فى صقلية وازدهرت زهاء قرنين.

أمر قبرس (١)

قال الواقدى وغيره، غزا معاوية بن أبى سفيان فى البحر غزوة قبرس الأولى، ولم يركب المسلمون بحر الروم قبلها، وكان معاوية استأذن عمر فى غزو البحر فلم يأذن له. فلما ولى عثمان بن عفان كتب إليه يستأذنه فى غزوه قبرس ويعلمه قربها وسهولة الأمر فيها فكتب إليه أن قد شهدت ما رد عليك عمر حين استأمرته فى غزو البحر.

فلما دخلت سنة ٢٧ كتب إليه يهون عليه ركوب البحر إلى قبرس، فكتب إليه عثمان فان ركبت البحر ومعك امرأتك فاركبه مأنونا لك وإلا فلا، فركب البحر من عكا ومعه مراكب كثيرة وحمل امرأته فاختة بنت قرظة ابن عبد عمرو بن نوفل بن عبد مناف بن قُصى وحمل عبادة بن الصامت امرأته أم حرام بنت ملحان الأنصارية وذلك فى سنة ٢٨ بعد انحسار الشتاء، ويقال فى سنة ٢٩، فلما صار المسلمون إلى قبرس فأرقوا إلى ساحلها (وهى جزيرة فى البحر يكون فيما يقال ٨٠ فرخسا فى مثلها) بعث إليهم أركونها بطلب الصلح وقد أذعن أهلها به فصالحهم على سبعة ألف ومائتى دينار يؤدونها فى كل عام، وصالحهم الروم على مثل ذلك فهم يؤدون خرجين، واشترطوا أن لا يمنعهم المسلمون أداء الصلح إلى الروم.

واشترط عليهم المسلمون أن لا يقاتلوا عنهم من أرادهم من ورائهم، وأن يؤذنوا المسلمين بسير عدوهم من الروم، فكان المسلمون إذا ركبوا البحر لم يعرضوا لهم ولم ينصرهم أهل قبرس ولم ينصروا عليهم.

فلما كانت سنة ٣٢ أعانوا الروم على الغزاة فى البحر بمراكب أعطوهم أياها فغزاهم معاوية سنة ٣٣ فى خمس مائة مركب، ففتح قبرس عنوة فقتل

---

(١) فتوح البلدان للبلاذرى .

وسبى ثم أقرهم على صلحهم، وبعث إليها باثنى عشر ألفا كلهم أهل ديوان، فبنوا بها المساجد ونقل إليها جماعة من بعلبك، وبنى بها مدينة وأقاموا يعطون الأعطية إلى أن توفى معاوية وولى بعده ابنه يزيد، فأقفل ذلك البعث وامر بهدم المدينة، وبعض الرواة يزعم أن غزوة معاوية الثانية قبرس فى سنة ٣٥.

يقول البلاذرى :

وحدثنى محمد بن مصفى الحمصى عن الوليد، قال ، بلغنا أن يزيد بن معاوية رُشى مالا عظيما ذا قدر حتى اقفل جند قبرس، فلما قفلوا هدم أهل قبرس مدينتهم ومساجدهم.

وحدثنى محمد بن سعد، عن الواقدى، عن عبد السلام بن موسى، عن أبيه قال : لما غُزيت قبرس الغزوة الأولى ركبت أم حرام بنت ملحان مع زوجها عبادة بن الصامت، فلما انتهوا إلي قبرص خرجت من المركب وقدمت إليها دابة لتركبها، فعثرت بها فقتلتها، فقبرها بقبرس يدعى قبر المرأة الصالحة.

قالوا: وغزا مع معاوية أبو أيوب خالد بن زيد بن كليب الأنصارى، وأبو الدرداء، وأبو ذر الغفارى، وعبادة بن الصامت، وفضالة بن عبيد الأنصارى، وعمير بن سعد بن عبيد الأنصارى، وواثلة بن الأسقع الكنانى، وعبد الله بن بشر المازنى، وشداد بن أوس ابن ثابت، وهو ابن أخى حسان بن ثابت، والمقداد وكعب الخبر بن ماتع، وجُبير بن نفير الحضرمى.

حدثنى هشام بن عمار الدمشقى قال : حدثنا الوليد بن مسلم عن صفوان بن عمرو، أن معاوية بن أبى سفيان غزا قبرس بنفسه ومعه امرأته، ففتحها الله فتحا عظيما، وغنم المسلمون غنما حسنا، ثم لم يزل المسلمون يغزونهم، حتى صالحهم معاوية فى أيامه صلحا دائما على سبعة ألف دينار، وعلى النصيحة للمسلمين، وانذارهم عدوهم من الروم، هذا أو نحوه.

قالوا : وكان الوليد بن يزيد بن عبد الملك أجلى منهم خلقا إلى الشام لأمر اتهمهم به، فأنكر الناس ذلك، فردهم يزيد بن الوليد بن عبد الملك إلى بلدهم، وكان حُميد بن معيوف الهمدانى غزاهم في خلافة الرشيد لحدث أحدثوه فأسر منهم بشراً، ثم أنهم استقاموا للمسلمين فأمر الرشيد برد من أسر منهم فردوا .

حدثني محمد بن سعد عن الواقدى فى اسناده، قال : لم يزل أهل قبرس على صلح معاوية حتى ولى عبد الملك بن مروان فزاد عليهم ألف دينار فجرى ذلك إلى خلافة عمر بن عبد العزيز فحطها عنهم، ثم لما ولى هشام بن عبد الملك ردها ، فجرى ذلك إلى خلافة أبى جعفر المنصور، فقال : نحن أحق من انصفهم، ولم نتكثر بظلمهم فردهم إلى صلح معاوية.

وحدثني بعض أهل العلم من الشاميين وأبو عبيد القاسم بن سلام قالوا: أحدث أهل قبرس حدثا فى ولاية عبد الملك بن صالح بن على ابن عبد الله بن عباس الثغور فأراد نقض صلحهم، والفقهاء متوافرون فكتب إلى الليث بن سعد، ومالك بن أنس، وسفيان بن عيينة وموسى بن أعين، وإسماعيل بن عياش، ويحيى بن حمزة، وأبى إسحاق الفزارى، ومخلد بن الحسين فى أمرهم فأجابوه.

وكان فيما كتب به الليث بن سعد أن أهل قبرس قوم لم نزل نتهمهم بغش أهل الإسلام ومناصحة أعداء الله الروم،

وقد قال الله تعالى :

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الأنفال]

ولم يقل لا تنبذ إليهم حتى تستيقن خيانتهم وانى أرى أن تنبذ إليهم وينظروا سنة يأتمرون، فمن أحب منهم اللحاق ببلاد المسلمين على أن يكون ذمة يؤدى الخراج قبلت ذلك منه، ومن أراد أن ينتحى إلى بلاد الروم فعل، ومن أراد

المقام بقبرس على الحرب أقام، فكانوا عدوا يقتلون ويغزون فإن فى أنظار سنة قطعا لحجتهم ووفاء بعهدهم.

وكان فيما كتب به مالك بن أنس، أن أمان أهل قبرس كان قديما متظاهرا من الولاة لهم، وذلك لأنهم رأوا أن اقرارهم على حالهم ذلك صغار لهم وقوة للمسلمين عليهم، بما يأخذون من جزيتهم ويصيبون به من الفرصة فى عدوهم.

ولم أجد أحداً من الولاة نقض صلحهم ولا أخرجهم عن بلده، وأنا أرى أن لا تعجل بنقض عهدهم ومنابذتهم حتى تتجه الحجة عليهم فان الله يقول :

﴿ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ④ ﴾ [التوبة]

فإن هم لم يستقيموا بعد ذلك ويدعوا غشهم، ورأيت أن الغدر ثابت منهم أوقعت بهم، فكان ذلك بعد الاعذار فرزقت النصر، وكان بهم الذل والخزى إن شاء الله تعالى.

وكتب سفيان بن عيينة أنا لا نعلم النبى ﷺ عاهد قوما فنقضوا العهد الا استحل قتلهم، غير أهل مكة فإنه من عليهم، وكان نقضهم أنهم نصروا حلفاءهم على حلفاء رسول الله ﷺ من خزاعة، وكان فيما أخذ على أهل نجران أن لا يأكلوا الربا، فحكم فيهم عمر حين أكلوه بأجلائهم فإجماع القوم أنه من نقض عهدا فلا ذمة له.

وكتب موسى بن أعين : قد كان يكون مثل هذا فيما خلا، فيعمل الولاة فيه النظرة، ولم أر أحداً ممن مضى نقض أهل قبرس ولا غيرها، ولعل عامتهم

وجماعتهم لم يمالئوا على ما كان من خاصتهم، وأنا أرى الوفاء لهم، والتمام على شرطهم، وإن كان منهم الذى كان.

وقد سمعت الأوزاعى يقول : فى قوم صالحوا المسلمين، ثم أخبروا المشركين بعورتهم ودلوهم عليها أنهم إن كانوا ذمة فقد نقضوا عهدهم وخرجوا من ذمتهم، فإن شاء الوالى قتل وصلب، وإن كانوا صلحا لم يدخلوا فى ذمة المسلمين، نبذ إليهم الوالى على سواء

﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢) ﴾ [يوسف] .

وكتب إسماعيل بن عياش، أهل قبرس أذلاء مقهورون يغلبهم الروم على أنفسهم ونسائهم فقد يحق علينا أن نمنعهم ونحميهم، وقد كتب حبيب بن مسلمة لأهل تفليس فى عهده، أنه إن عرض للمسلمين شغل عنكم وقهركم عدوكم فإن ذلك غير ناقض عهدكم بعد أن تفوا للمسلمين، وأنا أرى أن يقروا على عهدهم وذمتهم، فإن الوليد بن يزيد قد كان أجلاهم إلى الشام فاستقطع ذلك المسلمون، واستعظمه الفقهاء.

فلما ولي يزيد بن الوليد بن عبد الملك ردهم إلى قبرس، فاستحسن المسلمون ذلك من فعله ورأوه عدلا، وكتب يحيى بن حمزة أن أمر قبرس كأمر عريسوس، فإن فيها قدوة حسنة، وسنة متبعة.

وكان من أمرها أن عمير بن سعد قال لعمر بن الخطاب وقدم عليه أن بيننا وبين الروم مدينة يقال لها عريسوس، وأنهم يخبرون عدونا بعوراتنا ولا يظهرونا على عورات عدونا، فقال عمر : فإذا قدمت فخبرهم أن تعطيهم مكان كل شاة شاتين، ومكان كل بقرة بقرتين، ومكان كل شئ شيئين، فإذا رضوا بذلك فأعطهم إياه وأجلهم واخربها، فإن أبوا فانبذ إليهم، وأجلهم سنة ثم اخربها .

فانتهى عمير إلى ذلك فأبوا، فأجلهم سنة، ثم أخربها وكان لهم عهد كعهد أهل قبرس، وترك أهل قبرس على صلحهم والاستعانة بما يؤدون على أمور المسلمين أفضل، وكل أهل عهد لا يقاتل المسلمون من ورائهم ويجرى عليهم أحكامهم في دارهم فليسوا بذمة، ولكنهم أهل فدية، يكف عنهم ما كفوا ويوفي لهم بعهدهم ما وفوا ورضوا، ويقبل عفوهم ما أدوا .

وقد روى عن معاذ بن جبل أنه كره أن يصالح أحداً من العدو على شيء معلوم، الا أن يكون المسلمون مضطرون إلى صلحهم لأنه لا يدرى لعل صلحهم نفع وعز للمسلمين.

وكتب أبو إسحاق الفزارى ومخلد بن الحسين أنا لم نر شيئا أشبه بأمر قبرس من أمر عريسوس، وما حكم به فينا عمر بن الخطاب، فإنه عرض عليهم ضعف مالهم على أن يخرجوا منها، أو نظرة سنة بعد نبذ عهدهم إليهم، فأبوا الأولى فأُنظروا ثم أخربت.

وقد كان الأوزاعى يحدث أن قبرس فتحت فتركوا على حالهم وصولحوا على أربعة عشر ألف دينار، سبعة ألف للمسلمين، وسبعة ألف للروم على أن لا يكتموا الروم أمر المسلمين، وكان يقول ما وفى لنا أهل قبرس قط وأنا لنرى أنهم أهل عهد وأن صلحهم وقع على شيء فيه شرط لهم وشرط عليهم ولا يستقيم نقضه إلا بأمر يعرف فيه غدرهم ونكثهم.

أمر السامرة(١)

حدثني هشام بن عمار، عن الوليد بن مسلم، عن صفوان بن عمرو أن أبا عبيدة ابن الجراح صالح السامرة بالأردن وفلسطين، وكانوا عيونا وأدلاء للمسلمين، على جزية رؤوسهم، وأطعمهم أرضهم، فلما كان يزيد بن معاوية وضع الخراج على أرضهم. وأخبرني قوم من أهل المعرفة بأمر جندي الأردن وفلسطين، أن يزيد بن معاوية وضع الخراج على أراضي السامرة بالأردن، وجعل على رأس كل أمرىء منهم خمسة دنانير، والسامرة يهود، وهم صنفان صنف يقال لهم الدستان، وصنف يقال لهم الكوشان.

قالوا: وكان بفلسطين في أول خلافة أمير المؤمنين الرشيد طاعون جارف، ربما أتى على جميع أهل البيت، فخربت أرضوهم وتعطلت، فوكل السلطان بها من عمرها، وتألف الأكرة[١] والمزارعين إليها فصارت ضياعا للخلافة، وبها السامرة، فلما كانت سنة ٢٤٦ رفع أهل قرية من تلك الضياع تدعى بيت ماما من كورة نابلس، وهم سامرة يشكون ضعفهم وعجزهم عن أداء الخراج على خمسة دنانير، فأمر المتوكل على الله بردهم إلى ثلاثة دنانير.

حدثني هشام بن عمار قال : حدثنا الوليد بن مسلم، عن صفوان ابن عمرو وسعيد بن عبد العزيز، أن الروم صالحت معاوية على أن يؤدي إليهم مالا، وارتهن معاوية منهم رهناء فوضعهم ببعلبك، ثم إن الروم غدرت، فلم يستحل معاوية والمسلمون قتل من في أيديهم من رهنهم، وخلوا سبيلهم وقالوا: وفاء بغدر خير من غدر بغدر، قال هشام وهو قول العلماء ، الأوزاعي وغيره.

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري .

(٢) الحراث

أمر الجراجمة (١)

حدثني مشايخ من أهل أنطاكية، أن الجراجمة من مدينة على جبل اللكام عند معدن الزاج فيما بين بياس وبوقا يقال لها الجرجومة وأن أمرهم كان في أيام استيلاء الروم على الشام وأنطاكية، إلى بطريق أنطاكية وواليها، فلما قدم أبو عبيدة أنطاكية وفتحها لزموا مدينتهم، وهموا باللحاق بالروم إذ خافوا على أنفسهم فلم ينته المسلمون لهم، ولم ينبهوا عليهم.

ثم إن أهل أنطاكية، نقضوا وغدروا، فوجه إليهم أبو عبيدة من فتحها ثانية، وولاها بعد فتحها حبيب بن مسلمة الفهري، فغزا الجرجومة فلم يقاتله أهلها، ولكنهم بدروا بطلب الأمان والصلح فصالحوه على أن يكونوا أعواناً للمسلمين وعيونا ومسالح في جبل اللكام وأن لا يؤخذوا بالجزية وأن ينفلوا أسلاب من قتلوا من عدو المسلمين إذا حضروا معهم حربا في مغازيهم، ودخل من كان في مدينتهم من تاجر وأجير وتابع من الأنباط وغيرهم، وأهل القرى في هذا الصلح، فسموا الرواديف لأنهم تلوهم وليسوا منهم.

ويقال أنهم جاءوا بهم إلى عسكر المسلمين، وهم أرداف لهم، فسموا رواديف، فكان الجراجمة يستقيمون للولاة مرة ويعوجون أخرى، فيكاتبون الروم ويمالئونهم. فلما كانت أيام ابن الزبير ومروان بن الحكم وطلب عبد الملك الخلافة بعده لتوليته أياه عهده واستعداده للشخوص إلى العراق لمحاربة المصعب بن الزبير، خرجت خيل للروم إلى جبل اللكام وعليها قائد من قوادهم، ثم صارت إلى لبنان وقد ضوت إليها جماعة كثيرة من الجراجمة، وانباط وعبيد أباق[٢] من عبيد المسلمين.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) هاربون.

فاضطر عبد الملك إلى أن صالحهم على ألف دينار فى كل جمعة، وصالح طاغية الروم على مال يؤديه إليه لشغله عن محاربته وتخوفه أن يخرج إلى الشام فيغلب عليه، واقتدى فى صلحه بمعاوية حين شغل بحرب أهل العراق فانه صالحهم على أن يؤدى إليهم مالا وارتهن منهم رهناء وضعهم ببعلبك، ووافق ذلك أيضا عمرو بن سعيد بن العاصى الخلافة، وإغلاقه أبواب دمشق حين خرج عبد الملك عنها، فازداد شغلا وذلك فى سنة ٧٠.

ثم أن عبد الملك وجه إلى الروم سُحيم بن المهاجر فتلطف حتى دخل عليه متنكرا فاظهر الممالاة له وتقرب إليه بذم عبد الملك وشتمه وتوهين أمره حتى أمنه وأغتر به، ثم أنه انكفى عليه بقوم من موالى عبد الملك وجنده كان أعدهم لمواقعته ورتبهم بمكان عرفه، فقتله ومن كان معه من الروم، ونادى فى سائر من ضوى إليه بالأمان، فتفرق الجراجمة بقرى حمص ودمشق، ورجع أكثرهم إلى مدينتهم باللكام، وأتى الأنباط قراهم فرجع العبيد إلى مواليهم.

وكان ميمون الجرجمانى عبداً رومياً لبنى أم الحكم أخت معاوية بن أبى سفيان وهم ثقفيون، وإنما نسب إلى الجراجمة لاختلاطه بهم وخروجه بجبل لبنان معهم، فبلغ عبد الملك عنه بأس وجاعة، فسأل مواليه أن يعتقوه ففعلوا وقوده على جماعة من الجند، وصيره بأنطاكية، فغزا مع مسلمة بن عبد الملك الطوانة وهو على ألف من أهل أنطاكية، فاستشهد بعد بلاء حسن وموقف مشهود، فغم عبد الملك مُصابه وأغزى الروم جيشاً عظيماً طلباً بثأره.

قالوا: ولما كانت سنة ٨٩، اجتمع الجراجمة إلى مدينتهم وأتاهم قوم من الروم من قبل الاسكندرية وروسس، فوجه الوليد بن عبد الملك إليهم مسلمة بن عبد الملك فأناخ عليهم فى خلق فافتتحها على أن ينزلوا بحيث أحبوا من الشام، ويجرى على كل امرىء منهم ثمانية دنانير، وعلى عيالاتهم القوت من القمح والزيت، وهو مديان من قمح، وقسطان من زيت، وعلى أن لا يكرهوا، ولا أحدا

من أولادهم على ترك النصرانية، وعلى أن يلبسوا لباس المسلمين، ولا يؤخذ منهم ولا من أولادهم ونسائهم جزية، وعلى أن يغزوا مع المسلمين فينفلوا أسلاب من يقتلونه مبارزة، وعلى أن يؤخذ من تجاراتهم، وأموال موسريهم، ما يؤخذ من أموال المسلمين فأخرب مدينتهم، وأنزلهم فأسكنهم جبل الحوار وسنح اللون وعمق تيزين، وصار بعضهم إلى حمص، ونزل بطريق الجرجومة فى جماعة معه أنطاكية، ثم هرب إلى بلاد الروم، وقد كان بعض العمال الزم الجراجمة بأنطاكية جزية رؤوسهم، فرفعوا إلى الوثائق بالله وهو خليفة، فأمر باسقاطها عنهم.

وحدثنى بعض من أثق به من الكتاب، أن المتوكل على الله أمر بأخذ الجزية من هؤلاء الجراجمة، وأن يجرى عليهم الأرزاق، إذ كانوا ممن يستعان به فى المسالح وغير ذلك، وزعم أبو الخطاب الأزدى أن أهل الجرجومة كانوا يغيرون فى أيام عبد الملك على قرى أنطاكية والعمق، وإذا غزت الصوائف[1] قطعوا على المتخلف واللاحق ومن قدروا عليه ممن فى أواخر العسكر، وغالوا فى المسلمين فأمر عبد الملك، ففرض لقوم من أهل أنطاكية وانباطها، وجعلوا مسالح، وأردفت بهم عساكر الصوائف ليؤذنوا الجراجمة عن أواخرها، فسموا الرواديف، وأجرى على كل امرىء منهم ثمانية دنانير، والخبر الأول أثبت.

وحدثنى أبو حفص الشامى، عن محمد بن راشد، عن مكحول قال : نقل معاوية فى سنة ٤٩ أو سنة ٥٠ إلى السواحل قوما من زُطّ البصرة والسباتجة، وأنزل بعضهم أنطاكية، قال أبو حفص فبأنطاكية محلة تعرف بالزط وبيوقا من عمل أنطاكية قوم من أولادهم يعرفون بالزُط، وقد كان الوليد بن عبد الملك نقل إلي أنطاكية قوما من الزُط السند ممن حمله محمد بن القاسم إلى الحجاج، فبعث بهم الحجاج إلى الشام.

(١) وقت الصيف

وحدثنى محمد بن سعد، عن الواقدى، قال : خرج بجبل لبنان قوم شكوا عامل خراج بعلبك، فوجه صالح بن على بن عبد الله بن عباس من قتل مقاتلهم وأقر من بقى منهم على دينهم وردهم إلي قراهم وأجلى قوما من أهل لبنان. فحدثى القاسم بن سلام أن محمد بن كثير حدثه أن الأوزاعى كتب إلى صالح رسالة طويلة حُفظ منها، وقد كان من أجلاء أهل الذمة من جبل لبنان ممن لم يكن ممالئا لمن خرج على خروجه ممن قتلت بعضهم، ورددت باقيهم إلى قراهم ما قد علمت فكيف تؤخذ عامة بذنوب خاصة، حتى يخرجوا من ديارهم وأموالهم وحكم الله تعالى :

﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ ﴾ [النجم].

وهو أحق ما وقف عنده واقتدى به وأحق الوصايا أن تحفظ وترعى وصية رسول الله ﷺ فانه قال من ظلم معاهداً وكلفه فوق طاقته، فأنا حجيجه، ثم ذكر كلاماً.

حدثنى محمد بن سهم الأنطاكى قال : حدثنى معاوية بن عمرو عن أبى إسحاق الفزارى قال : كانت بنو أمية تغزو الروم بأهل الشام والجزيرة صائفة وشاتية مما يلى ثغور الشام والجزيرة، وتقيم المراكب للغزو، وترتب الحفظة فى السواحل، ويكون الاغفال والتفريط خلال الحزم والتيقظ.

فلما ولى أبو جعفر المنصور تتبع حصون السواحل ومدنها فغمرها وحصنها وبنى ما احتاج إلى البناء منها وفعل مثل ذلك بمدن الثغور، ثم لما استخلف المهدى استتم ما كان بنى من المدن والحصون وزاد فى شحنها.

قال معاوية بن عمرو، وقد رأينا من اجتهاد أمير المؤمنين هارون فى الغزو، ونفاذ بصيرته فى الجهاد، أمراً عظيما أقام من الصناعة مالم يقم قبله، وقسم الأموال فى الثغور والسواحل واشجى الروم، وقمعهم، وأمر المتوكل على الله بترتيب المراكب فى جميع السواحل وأن تشحن بالمقاتلة وذلك فى سنة ٢٤٧.

الثغور الشامية

حدثنى مشايخ من أهل أنطاكية وغيرهم، قالوا كانت ثغور المسلمين الشامية أيام عمر وعثمان وما بعد ذلك أنطاكية وغيرها من المدن التى سماها الرشيد عواصم، فكان المسلمون يغزون ما وراءها كغزوهم اليوم ما وراء طرسوس، وكان فيما بين الاسكندرونة وطرسوس حصون ومسالح للروم، كالحصون والمسالح التى يمر بها المسلمون اليوم، فربما أخلاها أهلها وهربوا إلى بلاد الروم خوفا، وربما نُقل إليها من مقاتلة الروم من تشحن به، وقد قيل أن هرقل أدخل أهل هذه المدن معه عند انتقاله من أنطاكية لئلا يسير المسلمون فى عمارة ما بين أنطاكية وبلاد الروم، والله أعلم.

وحدثنى ابن طسون البغراسى عن أشياخهم أنهم قالوا: الأمر المتعالم عندنا أن هرقل نقل أهل هذه الحصون معه وشعثها فكان المسلمون إذا غزوا لم يجدوا بها أحداً، وربما كمن عندها القوم من الروم فأصابوا غرة المتخلفين عن العسكر والمنقطعين عنها، فكان ولاة الشواتى والصوائف إذا دخلوا بلاد الروم خلفوا بها جندا كثيفاً إلى خروجهم.

وقد اختلفوا فى أول من قطع الدرب، وهو درب بغراس فقال بعضهم : قطعة ميسرة بن مسروق العبسى، وجهه أبو عبيدة بن الجراح، فلقى جمعاً للروم ومعهم مستعربة من غسان وتنوخ وإياد، يريدون اللحاق بهرقل، فأوقع بهم وقتل منهم مقتلة عظيمة : ثم لحق به مالك الأشتر النخعى مدداً من قبل أبى عبيدة وهو بأنطاكية،.

وقال بعضهم أول من قطع الدرب عُمير بن سعد الأنصارى حين توجه فى أمر جبلة بن الأيهم. وقال أبو الخطاب الأزدى، بلغنى أن أبا عبيدة نفسه غزا الصائفة فمر بالمصيصة وطرسوس، وقد جلا أهلها وأهل الحصون التى تليها فادرب، فبلغ فى غزاته زنتدة.

وقال غيره إنما وجه ميسرة بن مسروق فبلغ زندة. حدثنى أبو صالح الفراء عن رجل من أهل دمشق يقال له عبد الله بن الوليد عن هشام بن الغاز، عن عُبادة بن نُسى، فيما يحسب أبو صالح، قال : لما غزا معاوية غزوة عمورية فى سنة ٢٥، وجد الحصون فيما بين أنطاكية وطرسوس خالية، فوقف عندها جماعة من أهل الشام والجزيرة وقنسرين، حتى انصرف من غزاته، ثم أغزى بعد ذلك بسنة أو سنتين يزيد بن الحر العبسى الصائفة، وأمره ففعل مثل ذلك، وكانت الولاة تفعله.

وقال هذا الرجل، ووجدت فى كتاب مغازى معاوية أنه غزا سنة ٣١ من ناحية المصيصة فبلغ درولية، فلما خرج كان لا يمر بحصن فيما بينه وبين أنطاكية الا هدمه.

وحدثنى محمد بن سعد الواقدى وغيره قال : لما كانت سنة ٨٤ غزا على الصائفة عبد الله بن عبد الملك بن مروان، فدخل من درب أنطاكية وأتى المصيصة فبنى حصنها على أساسه القديم، ووضع بها سكانا من الجند فيهم ثلاثمائة رجل أنتخبهم من نوى البأس والنجدة المعروفين، ولم يكن المسلمون سكنوها قبل ذلك، وبنى فيها مسجدا فوق تل الحصن، ثم سار فى جيشه حتى غزا حصن سنان ففتحه ووجد يزيد بن حُنين الطاى الأنطاك فأغار، ثم انصرف إليه.

وقال أبو الخطاب الأزدى كان أول من ابتنى حصن المصيصة فى الإسلام عبد الملك بن مروان على يد ابنه عبد الله بن عبد الملك فى سنة ٨٤، على أساسها القديم فتم بناؤها وشحنها فى سنة ٨٥، وكانت فى الحصن كنيسة جُعلت هريا[1] وكانت الطوالع من أنطاكية تطلع عليها فى كل عام فتشتوا بها، ثم تنصرف وعدة من كان يطلع إليها ألف وخمس مائة إلى الألفين.

---

(١) الهرى : صومعة للغلال .

قال : وشخص عمر بن عبد العزيز حتى نزل هرى المصيصة وأراد هدمها، وهدم الحصون بينها وبين أنطاكية، وقال : أكره أن يحاصر الروم أهلها، فأعلمه الناس أنها عُمرت ليدفع من بها من الروم عن أنطاكية وأنه إن أخربها لم يكن للعدو ناهية دون أنطاكية، فأمسك وبنى لأهلها مسجلا جامعاً من ناحية كفربيا واتخذ فيه صهريجا، وكان اسمه عليه مكتوباً.

ثم أن المسجد خرب فى خلافة المعتصم بالله وهو يدعى مسجد الحصن. قال ثم بنى هشام بن عبد الملك الربض، ثم بنى مروان بن محمد الخصوص فى شرقى جيحان، وبنى عليها حائطا وأقام عليه باب خشب وخندق خندقاً، فلما استخلف أبو العباس فرض بالمصيصة لأربع مائة رجل زيادة فى شحنتها، وأقطعهم.

ثم لما استخلف المنصور فرض بالمصيصة لأربع مائة رجل ، ثم لما دخلت سنة ١٣٩ أمر بعمران مدينة المصيصة، وكان حائطها متشعثا من الزلازل وأهلها قليل فى داخل المدينة، فبنى سور المدينة وأسكنها أهلها سنة ١٤٠، وسماها المعمورة وبنى فيها مسجداً جامعاً فى موضع هيكل كان بها، وجعله مثل مسجد عمر مرات.

ثم زاد فيه المأمون أيام ولاية عبد الله بن طاهر بن الحسيني المغرب، وفرض المنصور فيها لألف رجل، ثم نقل أهل الخصوص وهم فُرس وصقالبة، وانباط نصارى، وكان مروان اسكنهم إياها وأعطاهم خططا فى المدينة عوضا عن منازلهم على ذرعها، ونقض منازلهم، وأعانهم على البناء، وأقطع الفرض قطائع وفلاكن.

ولما استكلف المهدى فرض بالمصيصية لألفى رجل ولم يقطعهم لأنها قد كانت شُحنت من الجند والمطوعة، ولم تزل الطوالع تأتيها فن أنطاكية فى كل عام حتى وليها سالم البرللى، وفرض فوضعه لخمس فائة فقاتل على خاصة عشرَة دنانير، فكثر من بها وقووا، وذلك فى خلافة المهدى.

وحدثنى محمد بن سهم عن مشايخ الثغر، قالوا: الحت الروم على أهل المصيصة فى أول أيام الدولة المباركة حتى جلوا عنها، فوجه صالح بن على جبريل بن يحيي البجلى إليها فعمرها وأسكنها الناس فى سنة ١٤٠، وبنى الرشيد كفربيا، ويقال بل كانت ابتديت فى خلافة المهدى، ثم غير الرشيد بناءها وحصنها بكندق، ثم رفع إلى المأمون فى أمر غلة كانت على فنازلها فأبطلها، وكانت منازلها كالخانات، وأقر فجعل لها سور فرفع فلم يلتتم حتى تاوفى، فأقر المعتصم بالله بأتمامه وتشريفه.

قالوا: وكان الذى حصن المثقب هشام بن عبد الملك على يد حلان بن ماهويه الأنطاكى، ووجد فى خندقه حين حفر عظم ساق مفرط الطول فبعث به إلى هشام. وبنى هشام حسن قطرغاش على يدى عبد العزيز بن حيان الأنطاكى، وبنى هشام حصن فورة على يدى رجل من أهل أنطاكية، وكان سبب بنائه إياه أن الروم عرضوا لرسول له فى درب اللكام عند العقبة البيضاء، ورتب فيه أربعين رجلا وجماعة من الجراجمة، وقام ببغراس مسلحة فى خمسين رجلا وابتنى لها حصناً. وبنى هشام حصن بوقا من عمل أنطاكية، ثم جدد وأصلح حديثا. وبنى محمد بن يوسف المروزى المعروف بأبى سعيد حصنا بلاحل أنطاكية بعد غارة الروم على ساحلها فى خلافة المعتصم بالله «رحه». حدثنى داود بن عبد الحميد قاضى الرقة عن أبيه، عن جده، أن عمر بن عبد العزيز -رضى الله عنه- أراد هدم المصيصة، ونقل أهلها عنها، لما كانوا يلقون من الروم فتوفى قبل ذلك.

وحدثنى بعض أهل أنطاكية وبغراس، أن مسلمة بن عبد الملك لما غزا عمورية حمل معه الماء، وكانت بنوا أمية تفعل ذلك إرادة الجد فى القتال للغيرة على الحرم، فلما صار فى عقبة بغراس عند الطريق المتدقة التى تشرف على الوادى سقط فحمل فيه امرأة إلى الحضيض فأقر مسلمة أن تمشى سائر

البلاد فمشين، فسميت تلك العقبة عقبة البلاد، وقد كان المعتصم بالله بنى على حد تلك الطريق حائطا قصيرا من حجارة.

وقال أبو النعمان الأنطاكي، كان الطريق فيما بين أنطاكية والمصيصة مسبعة يعترض للناس فيها الأسد، فلما كان الوليد بن عبد الملك، شكى ذلك إليه، فوجه أربعة ألف جاموسة وجاموس فنفع الله بها. وكان محمد بن القاسم الثقفي، عافل الحجاج على اللند، بعث منها بألوف جواميس فبعث الحجاج إلى الوليد منها بما بعث من الأربعة ألف وألقى باقيها فى آجام كسكر،

ولما خلع يزيد بن المهلب، فقتل وقبض يزيد بن عبد الملك أموال بنى المهلب أصاب لهم أربعة ألف جاموسة كانت بكور دجلة وكسكر، فوجه بها يزيد بن عبد الملك إلى المصيصة أيضا مع زُطها.

فكان أصل الجواميس بالمصيصة ثمانية ألف جاموسة، وكان أهل أنطاكية وقنسرين قد غلبوا على كثير منها واختاروه لأنفسم فى أيام فتنة مروان بن محمد بن مروان فلما استخلف المنصور أمر بردها إلى المصيصة وأما جواميس أنطاكية فكان أصلها ما قدم به الزط معهم وكذلك جواميس بُوقا.

وقال : أبو الخطاب بن الجسر الذى على طريق أذنه من المصيصة، وهو على تسعة أميال من المصيصة سنة ١٢٥ فهو يُدعى جسر الوليد، وهو الوليد بن يزيد بن عبد الملك المقتول.

وقال أبو النعمان الأنطاكي وغيره بنيت أذنة فى سنة ١٤١ أو ١٤٣، والجنود من أهل خراسان معسكرون عليها مع مسلمة بن يحيى البجلى، ومن أهل الشام مع مالك بن أدهم الباهلى، وجههما صالح بن على.

ولما كانت سنة ١٦٥ أغزى المهدى ابنه هارون الرشيد بلاد الروم، فنزل على الخليج ثم خرج، فرم المصيصة ومسجدها وزاد فى شحنتها وقوى أهلها،

وبنى القصر الذى عند جسر أذنة على سيحان.

وقد كان المنصور أغزى صالح بن على بلاد الروم، فوجه هلال بن ضيغم فى جماعة من أهل دمشق والأردن وغيرهم، فبنى ذلك القصر ولم يكن بناؤه محكماً فهدمه الرشيد وبناه، ثم لما كانت ١٩٤ بنا أبو سليم فرج الخادم أذنة، فأحكم بناءها وحصنها وندب إليها رجالا من أهل خراسان وغيرهم على زيادة فى العطاء، وذلك بأمر محمد بن الرشيد، فرم قصر سيحان، وكان الرشيد توفى سنة ١٩٣، وعامله على أعشار الثغور أبو سليم، فأقره محمد، وأبو سليم هذا هو صاحب الدار بأنطاكية.

وحدثنى محمد بن سعد، عن الواقدى قال : غزا الحسن بن قحطبة الطائى بلاد الروم سنة ١٦٢ فى أهل خراسان، وأهل الموصل والشام وأمداد اليمن ومطوعة العراق والحجاز، خرج مما يلى طرسوس فأخبر المهدى بما فى بنائها وتحصينها وشحنتها بالمقاتلة، من عظيم الغناء عن الإسلام والكبت للعدو والوقم[1] له فيما يحاول ويكيد، وكان الحسن قد أبلى فى تلك الغزاة بلاء حسناً ودوخ أرض الروم حتى سموه الشيتن، وكان معه فى غزاته مندل العنزيى المحدث الكوفى، ومعتمر بن سليمان البصرى.

وحدثنى محمد بن سعد قال : حدثنى سعد بن الحسن قال : لما خرج الحسن من بلاد الروم، نزل مرج طرسوس فركب إلى مدينتها، وهى خراب، فنظر إليها وأطاف بها من جميع جهاتها، وحزر عدة من يسكنها فوجدهم مائة ألف، فلما قدم على المهدى، وصف له أمرها وما فى بنائها وشحنتها من غيظ العدو وكبته، وعز الإسلام وأهله، وأخبره فى الحدث أيضا بخبر رغبة فى بناء مدينتها، فأمره ببناء طرسوس وأن يبدأ بمدينة الحدث فبنيت.

---

(١) القهر والذل

وأوصى المهدى ببناء طرسوس، فلما كانت سنة ١٧١ بلغ الرشيد أن الروم ائتمروا بينهم بالخروج إلى طرسوس لتحصينها وترتيب المقاتلة فيها، فأغزى الصائفة فى سنة ١٧١ هرثمة بن أعين، وأمره بعمارة طرسوس وبنائها وتمصيرها، ففعل وأجرى أمرها على يد فرج بن سليم الخادم بأمر الرشيد فوكل فرج ببنائها.

وتوجه أبو سليم إلى مدينة السلام فأشخص الندبة الأولى من أهل خراسان وهم ثلاثة ألف رجل، فوردوا طرسوس، ثم أشخص الندبة الثانية وهم ألفا رجل، ألف من أهل المصيصة، وألف من أهل انطاكية على زيادة عشرة دنانير لكل رجل من أصل عطائه، فعسكروا مع الندبة الأولى بالمدائن على باب الجهاد فى مستهل المحرم سنة ١٧٢، إلى أن استتم بناء طرسوس وتحصينها، وبناء مسجدها ومسح[1] فرج ما بين النهر إلى النهر، فبلغ ذلك أربعة آلاف خطة[2]، كل خطة ٢٠٠ ذراعاً فى مثلها واقطع أهل طرسوس الخطط، وسكنتها الندبتان فى شهر ربيع الآخر سنة ١٧٢.

قالوا: وكان عبد الملك بن صالح قد استعمل يزيد بن مخلد الفزارى على طرسوس فطرده من بها من أهل خراسان، واستوحشوا منه للهبيرية، فاستخلف أبا الفوارس فأقره عبد الملك بن صالح، وذلك فى سنة ١٧٣.

قال محمد بن سعد : حدثنى الواقدى قال : جلا أهل سيسيه ولحقوا بأعلي الروم فى سنة ١٩٤ أو ١٩٣، وسيسية مدينة تل عين زربة، وقد عمرت فى خلافة المتوكل على الله على يدى على بن يحيى الأرمنى، ثم اخربتها الروم.

قالوا، فكان الذى أحرق أنطاكية المحترقة ببلاد الروم، عباس بن الوليد بن

---

(١) قاس .

(٢) الحى السكنى .

عبد الملك، قالوا : وتل جبير نُسبت إلى رجل من فُرس أنطاكية كانت له عنده وقعة، وهو من طرسوس على أقل من ١٠ أميال، قالوا: والحصن المعروف بذى الكلاع، إنما هو الحصن ذو القلاع لأنه على ثلاث قلاع فحرف اسمه، وتفسير اسمه بالرومية الحصن الذى مع الكواكب. وقالوا: سميت كنيسة الصلح لأن الروم لما حملوا صلحهم إلى الرشيد نزلوها.

ونُسب مرج حسين إلى حسين بن مُسلم الأنطاكى، وذلك أنه كانت له به وقعة ونكاية فى العدو، قالوا: وأغزى المهدى ابنه هارون الرشيد فى سنة ١٦٣ فحاصر أهل ضمالوا وهى التى تدعوها العامة سمالوا، فسألوه الأمان لعشرة أهل أبيات، فيهم القومس، فأجابهم إلى ذلك، وكان فى شرطهم أن لا يفرق بينهم، فانزلوا ببغداد على باب الشماسية، فسموا موضعهم سمالو فهو معروف.

ويقال : بل نزلوا على حكم المهدى، فاستحياهم وجمعهم بذلك الموضع وأمر أن يسمى سمالوا، وأمر الرشيد فنودى على من بقى فى الحصن فبيعوا، وأخذ حبشى كان يشتم الرشيد والمسلمين، فصلب على برج من أبراجه.

وحدثنى أحمد بن الحارث الواسطى، عن محمد بن سعد، عن الواقدى قال : لما كانت سنة ١٨٠ أمر الرشيد بابتناء مدينة عين زربة وتحصينها وندب إليها نُدبة من أهل خراسان وغيرهم، فأقطعهم[١] بها المنازل، ثم لما كانت سنة ١٨٣ أمر ببناء الهارونية، فبنيت وشحنت أيضا بالمقاتلة ومن نزح إليها من المطوعة ونسبت إليه. ويقال أنه بناها فى خلافة المهدى، ثم أتمت فى خلافته. قالوا: وكانت الكنيسة السوداء من حجارة سود بناها الروم على وجه الدهر، ولها حصن قديم أخرب فى ما أخرب، فأمر الرشيد ببناء مدينة الكنيسة السوداء وتحصينها وندب إليها المقاتلة فى زيادة العطاء[٢].

(١) التخصيص والتمليك .

(٢) الرواتب .

وأخبرنى بعض أهل الثغر عزون بن سعد أن الروم أغارت عليها، والقاسم بن الرشيد مقيم بدابق فاستاقوا مواشى أهلها وأسروا عدة منهم فنفر إليهم أهل المصيصة، ومطوعتها فاستنقذا جميع ما صار إليهم وقتلوا منهم بشراً، ورجع الباقون منكوبين مفلولين فوجه القاسم من حصن المدينة ورمها، وزاد فى شحنتها، وقد كان المعتصم بالله نقل إلى عين زربة ونواحيها بشراً من الزُط الذين قد كانوا غلبوا على البطائح بين واسط والبصرة فانتفع أهلها بهم.

حدثنى أبو صالح الأنطاكى قال : كان أبو إسحاق الفزارى يكره شرى أرض بالثغر، ويقول غلب عليه قوم فى بدء الأمر وأجلوا الروم عنه، فلم يقتسموه، وصار إلى غيرهم، وقد دخلت فى هذا الأمر شبهة العاقل حقيق بتركها، وكانت بالثغر ايغارات قد تحيفت ما يرتفع من أعشاره حتى قصرت عن نفقاته فأمر المتوكل فى سنة ٢٤٣ بابطال تلك الإيغارات فأبطلت.

فتوح الجزيرة

حدثنى داود بن عبد الحميد قاضى الرقة، عن أبيه، عن جده، عن ميمون بن مهران قال : الجزيرة كلها فتوح عياض بن غنم بعد وفاة أبي عبيدة، ولاه إياها عمر بن الخطاب، وكان أبو عبيدة استخلفه على الشام، فولى عمر بن الخطاب يزيد بن أبى سفيان، ثم معاوية من بعده الشام، وأمر عياضا بغزو الجزيرة.

وحدثنى الحسين بن الأسود، قال حدثنا يحيى بن آدم عن عدة من الجزريين، عن سليمان بن عطاء القرشى، قال : بعث أبو عبيدة عياض بن غنم إلى الجزيرة، فمات أبو عبيدة وهو بها فولاه عمر إياها بعد.

وحدثنى بكر بن الهيثم قال : حدثنا النفيلى عبد الله بن محمد قال: حدثنا سليمان بن عطاء قال : لما فتح عياض بن غنم الرها، وكان أبو عبيدة وجهه وقف على بابها، على فرس له كميت، فصالحوه على أن لهم هيكلهم وما حوله، وعلى أن لا يحدثوا كنيسة، إلا ما كان لهم ، وعلى معونة المسلمين على عدوهم، فان تركوا شيئا مما شرط عليهم فلا ذمة لهم.

ودخل أهل الجزيرة فيما دخل فيه أهل الرها. وقال : محمد بن سعد قال الواقدى: أثبت ما سمعنا فى أمر عياض، ان أبا عبيدة مات فى طاعون عمواس سنة ١٨، واستخلف عياضا فورد عليه كتاب عمر بتوليته حمص وقسرين والجزيرة.

فسار إلى الجزيرة يوم الخميس للنصف من شعبان سنة ١٨ فى خمسة آلاف، وعلى مقدمته ميسرة بن مسروق العبسى، وعلى ميمنته سعيد بن عامر بن حذيم الجمحى، وعلى ميسرته صفوان بن المعطل السلمى، وكان خالد بن الوليد على ميسرته.

ويقال أن خالدا لم يسر تحت لواء أحد بعد أبى عبيدة، ولزم حمص حتى توفى بها سنة ٢١، وأوصى إلى عمر وبعضهم يزعم أنه مات بالمدينة وموته بحمص أثبت.

قالوا: فانتهت طليعة عياض إلى الرقة فأغاروا على حاضر كان حولها للعرب، وعلى قوم من الفلاحين فأصابوا مغنماً، وهرب من نجا من أولئك فدخلوا مدينة الرقة.

واقبل عياض فى عسكره حتى نزل باب الرها وهو أحد أبوابها فى تعبئة، فرمى المسلمون ساعة، حتى جرح بعضهم، ثم أنه تأخر عنهم لئلا تبلغه حجارتهم وسهامهم، وركب فطاف حول المدينة، ووضع على أبوابها روابط، ثم رجع إلى عسكره وبث السرايا، فجعلوا يأتون بالأسرى من القرى، وبالأطعمة الكثيرة، وكانت الزروع مستحصدة.

فلما مضت خمسة أيام، أو ستة وهم على ذلك أرسل بطريق المدينة إلى عياض يطلب الأمان، فصالحه عياض على أن أمن جميع أهلها على أنفسهم وذراريهم[1] وأموالهم ومدينتهم، وقال عياض : الأرض لنا قد وطئناها وأحرزناها فاقرها فى أيديهم على الخراج، ودفع منها ما لم يرده أهل الذمة فرفضوه إلى المسلمين على العشر ووضع الجزية على رقابهم فالزم كل رجل منهم ديناراً فى كل سنة، وأخرج النساء والصبيان، ووظف عليهم مع الدينار اقفزة من قمح، وشيئا من زيت، وخل، وعسل.

فلما ولى معاوية جعل ذلك جزية عليهم، ثم أنهم فتحوا أبواب المدينة، وأقاموا للمسلمين سوقاً على باب الرها، فكتب لهم عياض:

بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى عياض بن غنم، أهل الرقة يوم

---

(١) أبناؤهم .

دخلها، أعطاهم أمانا لأنفسهم، وأموالهم وكنائسهم، لا تخرب ولا تسكن إذا أعطوا الجزية التى عليهم، ولم يحدثوا مغيلة، وعلى أن لا يحدثوا كنيسة ولا بيعة، ولا يظهروا ناقوساً ولا باعوثاً، ولا صليباً، شهد الله وكفى بالله شهيداً. وختم عياض بخاتمه ..

ويقال أن عياضا ألزم كل حالم من أهل الرقة أربعة دنانير، وثبت أن عمر كتب بعد إلى عُمير بن سعد وهو واليه، أن ألزم كل امرىء منهم أربعة دنانير، كما ألزم أهل الذهب.

قالوا: ثم سار عياض إلى حران فنزل بأجدى وبعث مقدمته. فأغلق أهل حران أبوابها دونهم ثم، اتبعهم فلما نزل بها بعث إليه الحرنانية من أهلها يعلمونه أن فى أيديهم طائفة من المدينة، ويسألونه أن يصير إلى الرها فما صالحوه عليه من شئ قنعوا به وخلوا بينه وبين النصارى حتى يصيروا إليه.

وبلغ النصارى ذلك فارسلوا إليه بالرضى بما عرض الحرنانية وبذلوا، فأتى الرها وقد جمع له أهلها فرموا المسلمين ساعة، ثم خرجت مقاتلتهم فهزمهم المسلمون حتى الجأوهم إلى المدينة، فلم ينشبوا أن طلبوا الصلح والأمان فأجابهم عياض إليه وكتب لهم كتابا نسخته :

بسم الله الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من عياض بن غنم، لأسقف الرها أنكم ان فتحتم لى باب المدينة على أن تؤدوا إلي عن كل رجل ديناراً، ومديى قمح، فأنتم آمنون على أنفسكم وأموالكم ومن تبعكم وعليكم ارشاد الضال، واصلاح الجسور والطرق، ونصيحة المسلمين، شهد الله وكفى بالله شهيداً.

وحدثنى داود بن عبد الحميد عن أبيه، عن جده، أن كتاب عياض لأهل الرها:

بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من عياض بن غنم ومن معه من المسلمين لأهل الرها، إنى آمنتهم على دمائهم وأموالهم وذراريهم ونسائهم ومدينتهم وطواحينهم، إذا أدوا الحق الذى عليهم أن يصلحوا جسورنا ويهدوا ضالنا، شهد الله وملائكته والمسلمون.

قال : ثم أتى عياض حران ووجه صفوان بن المعطل، وحبيب بن مسلمة الفهرى إلى سميساط، فصالح عياض أهل حران على مثل صلح الرها، وفتحوا له أبوابها وولاها رجلا.

ثم سار إلى سميساط فوجد صفوان ابن المعطل، وحبيب بن مسلمة مقيمين، وقد غلبا على قر وحصون من قراها وحصونها، فصالحه أهلها على مثل صلح أهل الرها، وكان عياض يغزو من الرها ثم يرجع إليها.

وحدثنى محمد بن سعد، عن الواقدى، عن معمر، عن الزهرى قال : لم يبق بالجزيرة موضع قدم إلا فتح على عهد عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- على يدى عياض بن غنم، فتح حران، والرها والرقة وقرقيسيا ونصيبين وسنجار.

وحدثنى محمد، عن الواقدى، عن عبد الرحمن بن مسلمة، عن فرات ابن سلمان، عن ثابت بن الحجاج قال : فتح عياض الرقة وحران والرها ونصيبين وميافارقين وقرقيسيا، وقرى الفرات ومدائنها صلحاً، وأرضها عنوة.

وحدثنى محمد، عن الواقدى، عن ثور بن يزيد، عن راشد بن سعد أن عياضا افتتح الجزيرة ومدائنها صلحاً وأرضها عنوة. وقد رُوى أن عياضا لما أتى حران من الرقة، وجدها خالية قد انتقل أهلها إلى الرها، فلما فتحت الرها، صالحوا عن مدينتهم وهم بها، وكان صلحهم مثل صلح الرها.

وحدثنى أبو أيوب السرقى المؤدب قال : حدثنى الحجاج بن أبى منبع الرصافى عن أبيه، عن جده، قال : فتح عياض الرقة ثم الرها، ثم حران، ثم

سميساط على صلح واحد، ثم أتى سروج وراسكيفا والأرض البيضاء، فغلب على أرضها وصالح أهل حصونها على مثل صلح الرها، ثم أن سُميساط كفروا، فلما بلغه ذلك رجع إليه فحاصرها حتى فتحها.

وبلغه أن أهل الرها قد نقضوا، فلما أناخ عليهم فتحوا له أبواب مدينتهم، فدخلها وخلف بها عامله فى جماعة، ثم أتى قريات الفرات وهى جسر منبج ونواتها، ففتحها على ذلك، وأتى عين الوردة وهى رأس العين فامتنعت عليه فتركها، وأتى تل موزن ففتحها على مثل صلح الرها وذلك فى سنة ١٩.

ووجه عياض إلى قرقيسيا حبيب بن مسلمة الفهرى، ففتحها صلحا على مثل صلح الرقة، وفتح عياض آمد بغير قتال على مثل صلح الرها، وفتح ميافارقين على مثل ذلك، وفتح حصن كفرتوثا، وفتح نصيبين بعد قتال على مثل صلح الرها، وفتح طور عبدين، وحصن ماردين ودارا، على مثل ذلك، وفتح قردى وبازبدى، على مثل صلح نصيبين، وأتاه بطريق الزوزان فصالحه عن أرضه على أتاوة وكل ذلك فى سنة ١٩، وأيام من المحرم سنة ٢٠ ثم سار إلى أرزن ففتحها على مثل صلح نصيبين.

ودخل الدرب فبلغ بدليس وجازها إلى خلاط وصلح بطريقها، وانتهى إلى العين الحامضة من أرمينية فلم يعدها، ثم عاد فضمن صاحب بدليس خراج خلاط وجماجمها وما على بطريقها، ثم أنه انصرف إلى الرقة، ومضى إلى حمص وقد كان عمر ولاه إياها، فمات سنة ٢٠ وولى عمر سعيد بن عامر بن حذى، فلم يلبث إلا قليلا حتى مات، فولى عمر عُمير بن سعد الأنصارى ففتح عين الوردة بعد قتال شديد.

وقال الواقدى : حدثنى من سمع إسحاق بن أبى فروة يحدث عن أبى وهب الجيشانى ديلم بن الموسع، أن عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- ، كتب

إلى عياض يأمره أن يوجه عُمير بن سعد إلى عين الوردة، فوجهه إليها فقدم الطلائع أمامه، فأصابوا قوما من الفلاحين وغنموا مواشى من مواشى العدو، ثم أن أهل المدينة غلقوا أبوابها ونصبوا العرادات عليها، فقتل من المسلمين بالحجارة والسهام بشر، واطلع عليهم بطريق من بطارقتها فشتمهم، وقال : لسنا كمن لقيتم، ثم إنها فتحت بعد على صلح.

حدثنى عمرو بن محمد عن الحجاج بن أبى منيع، عن أبيه، عن جده قال: امتنعت رأس العين على عياض بن غنم، ففتحها عُميربن سعد، وهو والى عمر على الجزيرة، بعد أن قاتل أهلها المسلمين قتالا شديداً، فدخلها المسلمون عنوة، ثم صالحوهم بعد ذلك على أن دفعت الأرض اليهم، ووضعت الجزية على رؤوسهم، على كل رأس أربعة دنانير، ولم تُسب نساؤهم ولا أولادهم.

وقال الحجاج : وقد سمعت مشايخ من أهل رأس العين يذكرون أن عُميراً لما دخلها قال لهم، لا بأس لا بأس، إلىَّ إلىَّ، فكان ذلك أماناً لهم وزعم الهيثم بن عدى، أن عمر بن الخطاب -رضى الله عنه-، بعث أبا موسى الأشعرى إلى عين الوردة، فغزاها بجند الجزيرة بعد وفاة عياض والثبت أن عُميرا فتحها عنوة فلم تُسب وجعل عليهم الخراج والجزية، ولم يقل هذا أحد غير الهيثم.

وقال الحجاج بن أبى منبع جلا خلق من أهل رأس العين، واعتمل المسلمون أراضيهم وإزدرعوها باقطاع.

وحدثنى محمد بن المفضل الموصلى عن مشايخ من أهل سنجار، قالوا: كانت سنجار فى أيدى الروم، ثم أن كسرى المعروف بأبرويز أراد قتل مائة رجل من الفرس كانوا حُملوا إليه بسبب خلاف ومعصية، فكلم فيهم، فأمر أن يوجهوا إلى سنجار، وهو يومئذ يعانى فتحها فمات منهم رجلان ووصل إليها ثمانية وتسعون رجلا، فصاروا مع المقاتلة الذين كانوا بازائها ففتحوها دونهم وأقاموا

بها وتناسلوا، فلما انصرف عياض من خلاط وصار إلى الجزيرة، بعث إلى سنجار، ففتحها صلحا واسكنها قوما من العرب.

وقد قال بعض الرواة أن عياضا فتح حصنا من الموصل، وليس ذلك بثبت.

قال ابن الكلبى عُمير بن سعد عامل عمر، هو عُمير بن سعد بن شهيد بن عمرو وأحد الأوس، وقال الواقدى هو عُمير بن سعد بن عُبيد، وقتل أبوه سعد يوم القادسية، وسعد هذا هو الذى يروى الكوفيون أنه أحد من جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ ، قال الواقدى : وقد روى قوم أن خالد بن الوليد ولى لعمر بعض الجزيرة فاطلى فى حمام بآمد أو غيرها بشىء فيه خمر، فعزله عمر وليس ذلك بثبت.

وحدثنى عمرو الناقد قال : حدثنى الحجاج بن أبى منبع عن أبيه عن جده عن ميمون بن مهران قال، أخذ الزيت والخل والطعام لمرفق المسلمين بالجزيرة مدة، ثم خففر عنهم واقتصر بهم على ثمانية وأربعين درهما، وأربعة وعشرين واثنا عشر، نظراً من عمر للناس، وكان على كل إنسان مع جزيته مداً قمح وقسطان من زيت وقسطان من خل.

وحدثنى عدة من أهل الرقة، قالوا: لما مات عياض وولى الجزيرة سعيد بن عامر بن حذيم، بنى مسجد الرقة ومسجد الرها ثم توفى فبنى المساجد بديار مُضر وديار ربيعة عُمير بن سعد.

ثم لما ولى معاوية الشام والجزيرة لعثمان بن عفان -رضى الله عنه- أمره أن ينزل العرب بمواضع نائية عن المدن والقرى، ويأذن لهم فى اعتمال الأرضين التى لا حق فيها لأحد فأنزل بنى تميم الرابيه، وأنزل المازجين والمدبير اخلاطا من قيس وأسد وغيرهم.

وفعل ذلك فى جميع نواحى ديار مضر، ورتب ربيعة فى ديارهم على ذلك.

وألزم المدن والقرى والمسالح من يقوم بحفظها ويذب عنها من أهل العطاء ثم جعلهم من عماله.

وحدثنى أبو حفص الشامى عن حماد بن عمرو النصيبى قال : كتب عامل نصيبين إلى معاوية وهو عامل عثمان على الشام والجزيرة يشكو إليه أن جماعة من المسلمين ممن معه أصيبوا بالعقارب، فكتب إليه يأمره أن يوظف على أهل كل حيز من المدينة عدة من العقارب مسماة فى كل ليلة ففعل، فكانوا يأتونه بها فيأمربقتلها.

وحدثنى أبو أيوب المؤدب الرقى عن أبى عبد الله القرقسانى عن أشياخه أن عمير بن سعد لما فتح رأس العين سلك الخابور وما يليه حتى أتى قرقيسيا، وقد نقض أهلها فصالحهم على مثل صلحهم الأول، ثم أتى حصون الفرات حصنا حصناً ففتحها على ما فتحت على قرقيسيا، ولم يلق فى شيء منها كثير قتال، وكان بعض أهلها ربما رموا بالحجارة.

فلما فرغ من تلبس وعانات، أتى الناوسة وآلوسة وهيت، فوجد عمار بن ياسر، وهو يومئذ عامل عمر بن الخطاب على الكوفة، وقد بعث جيشاً يستغزى ما فوق الأنبار، عليه سعد بن عمرو بن حرام الأنصارى وقد أتاه أهل هذه الحصون فطلبوا الأمان، فأمنهم واستثنى على أهل هيت نصف كنيستهم فانصرف عُمير إلى الرقة.

وحدثنى بعض أهل العلم قال : كان الذى توجه إلى هيت والحصون التى بعدها من الكوفة مدلاج بن عمرو السلمى حليف بنى عبد شمس، وله صحبة، فتولى فتحها وهو بنى الحديثة التى على الفرات وولده بهيت وكان منهم رجل يكنى أبا هارون باقى الذكر هناك. ويقال : أن مدلاجا كان من قبل سعد بن عمرو بن حرام، والله أعلم.

قالوا : وكان موضع نهر سعيد بن عبد الملك بن مروان (وهو الذى يقال له سعيد الخير) وكان يظهر نسكاً غيضة ذات سباع فاقطعه أياها الوليد فحفر النهر وعمر ما هناك، وقال بعضهم، الذى اقطعه ذلك عمر ابن عبد العزيز. قالوا: ولم يكن للرافقة أثر قديم، إنما بناها أمير المؤمنين المنصور سنة ١٥٥ على بناء مدينته ببغداد ورتب فيها جندا من أهل خراسان، وجرت على يدى المهدى وهو ولى عهد ثم أن الرشيد بنى قصورها فكان بين الرقة والرافقة، فضاء مزارع.

فلما قدم على بن سليمان بن على واليا على الجزيرة نقل أسواق الرقة إلى تلك الأرض، فكان سوق الرقة الأعظم فيما مضى يعرف بسوق هشام العتيق ثم لما قدم الرشيد الرقة استزاد فى تلك الأسواق، فلم تزل تجتبى مع الصوافى، وأما رصافة هشام بن عبد الملك أحدثها.

وكان ينزل قبلها الزيتونة، وحفر الهنى والمرى، وأحدث فيها واسط الرقة، ثم إن تلك الضيعة قبضت فى أول الدولة ثم صارت لأم جعفر زبيدة بنت جعفر بن المنصور، فابتنت فيها القطيعة التى تنسب إليها وزادت فى عمارتها ولم يكن للرحبة التى فى أسفل قرقيسيا أثر قديم إنما بناه وأحدثها مالك بن طوق بن عتاب التغلبى فى خلافة المأمون.

وكانت أذرمة من ديار ربيعة قرية قديمة فأخذها الحسن بن عمر بن الخطاب التغلبى من صاحبها وبنى بها قصراً وحصنها، وكانت كفرتوثا حصنا قديماً فاتخذها ولد أبى رمثة منزلا فمدنوها وحصنوها.

حدثنى معافى بن طاوس عن أبيه قال : سألت المشايخ عن أعشار بلد وديار ربيعة والبرية، فقال هى أعشار ما أسلمت عليه العرب أو عمرته من الموات الذى ليس فى يد أحد أو رفضه النصارى، فمات وغلت عليها الدغل فاقطعه العرب.

حدثنى أبو عفان الرقى عن مشايخ من كتاب الرقة وغيرهم. قالوا: كانت عين الرومية وماؤها للوليد بن عقبة بن أبى معيط، فأعطاها أبا زبيد الطائى، ثم صارت لأبى العباس أمير المؤمنين فأقطعها ميمون بن حمزة مولى على بن عبد الله بن عباس، ثم ابتاعها الرشيد من ورثته وهى من أرض الرقة. قالوا: وكان ابن هبيرة أقطع غابة ابن هُبيرة فقبضت وأقطعها بشر بن ميمون صاحب الطاقات ببغداد بناحية باب الشام، ثم ابتاعها الرشيد وهى من أرض سروج، وكان هشام اقطع عائشة ابنته قطيعة برا سكيفا تعرف بها فقبضت.

وكانت لعبد الملك وهشام قرية تدعى سلعوس ونصف قرية تدعى كفرجداً من الرها، وكانت بحران للغمر بن يزيد تل عفراء وأرض تل مذابا وأرض المصلى وصوافى فى ربض حران ومستغلاتها.

وكان مرج عبد الواحد حمى المسلمين قبل أن تبنى الحدث وزبطرة، فلما بنيتا استغنى بهما فعمر، فضمه الحسين الخادم إلى الأحوار فى خلافة الرشيد، ثم نوثب الناس عليه فغلبوا على مزارعه حتى قدم عبد الله بن طاهر الشام، فرده إلى الضياع، وقال أبو أيوب الرقى سمعت أن عبد الواحد الذى نُسب المرج إليه، عبد الواحد بن الحارث ابن الحكم بن أبى العاصى وهو ابن عمز عبد الملك، كان المرج له فجعله حى للمسلمين وهو الذى مدحه القطامى فقال:

أهل المدينة لا يحزنك شأنهم   إذا تخطا عبد الواحد الأجل

أمر نصارى بنى تغلب بن وائل

حدثنا شيبان بن فروح قال : حدثنا أبو عوانة عن المغيرة عن السفاح الشيبانى أن عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- أراد أن يأخذ الجزية من نصارى بنى تغلب فانطلقوا هاربين ولحقت طائفة منهم ببعد من الأرض فقال النعمان بن زرعة أو زرعة بن النعمان، أنشدك الله فى بنى تغلب فانهم قوم من العرب نائفون من الجزية، وهم قوم شديدة نكايتهم فلا يعن عدوك عليك بهم، فأرسل عمر فى طلبهم فردهم وأضعف عليهم الصدقة.

حدثنا شيبان قال : حدثنا عبد العزيز بن مُسلم قال : حدثنا ليث عن رجل، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس قال : لا توكل ذبائح نصارى بى تغلب ولا تنكح نساؤهم ليسوا مناً ولا من أهل الكتاب.

حدثنا عباس بن هشام عن أبيه عن عوانة بن الحكم وأبى مخنف قالا: كتب عُمير بن سعد إلى عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- يعلمه أنه أتى شق الفرات الشامى ، ففتح عانات وسائر حصون الفرات، وأنه أراد من هناك من بنى تغلب على الإسلام فأبوه وهموا باللحاق بأرض الروم وقبلهم ما أراد من فى الشق الشرقى على ذلك، فامتنعوا منه وسألوه أن يأذن لهم فى الجلاء واستطلع رأيه فيهم، فكتب إليه عمر - رضى الله عنه - يأمره أن يضعف عليهم الصدقة التى تؤخذ من المسلمين فى كل سائمة وأرض، وأن أبوا ذلك حاربهم حتى يبيدهم أو يسلموا، فقبلوا أن يؤخذ منهم ضعف الصدقة، وقالوا أما إذ لم تكن جزية كجزية الأعلاج (الكفار)، فأنا نرضى ونحفظ ديننا .

حدثنى عمرو الناقد قال، حدثنى أبو معاوية، عن الشيبانى، عن السفاح، عن داود بن كردوس قال : صالح عمر بن الخطاب بنى تغلب بعد ما قطعوا الفرات وأرادوا اللحاق بأرض الروم على أن لا يصبغوا صبيا ولا يكرهوه على

دينهم وعلى أن عليهم الصدقة مضعفة. قال : وكان داود بن كردوس يقول ليست لهم ذمة، لأنهم قد صبغوا فى دينهم يعنى المعمودية. فحدثنى الحسين بن الأسود قال : حدثنا يحيى بن أدم عن ابن المبارك، عن يونس بن يزيد الأيلى، عن الزهرى، قال ليس فى مواشى أهل الكتاب صدقة، إلا نصارى بن تغلب أو قال نصارى العرب الذين عامة أموالهم، المواشى فان عليهم ضعف ما على المسلمين.

حدثنا سعيد بن سليمان سعدويه عن هُشيم عن مغيرة، عن السفاح ابن المثنى، عن زرعة بن النعمان، أنه كان كلم عمر فى نصارى بنى تغلب، وقال قوم عرب نائفون من الجزية وإنما هم أصحاب حروث ومواشى، وكان عمر قد هم أن يأخذ الجزية منهم، فتفرقوا فى البلاد فصالحهم على أن أضعف عليهم ما يؤخذ من المسلمين من صدقاتهم فى الأرض، والماشية، واشترط عليهم أن لا ينصروا أولادهم. قال مُغيرة فكان عليٌّ يقول : لئن تفرغت لبنى تغلب ليكونن لى فيهم رأى لأقتلن مقاتلتهم ولأسبين ذريتهم فقد نقضوا العهد وبرئت منهم الذمة حين نصروا أولادهم.

وحدثنى أبو نصر الثمار قال : حدثنا شريك بن عبد الله، عن إبراهيم بن مهاجر، عن زيادة بن حُدير الأسدى، قال : بعثنى عمر إلي نصارى بنى تغلب أخذ منهم نصف عشر أموالهم، ونهانى أن أعشر مسلما أو ذميا يؤدى الخراج.

حدثنى محمد بن سعد عن الواقدى، عن ابن أبي سبرة، عن عبد الملك بن نوفل، عن محمد بن إبراهيم بن الحارث، أن عثمان أمر لا يقبل من بنى تغلب فى الجزية إلا الذهب والفضة، فجاءه الثبت أن عمر أخذ منهم ضعف الصدقة فرجع عن ذلك.

قال الواقدى، وقال سفيان الثورى، والأوزاعى، ومالك بن أنس، وابن أبى

ذئب، وأبو حنيفة، وأبو يوسف، يؤخذ من التغلبى ضعف ما يؤخذ من المسلم فى أرضه وماشيته وماله.

فأما الصبى والمعتوه منهم، فان أهل العراق يرون أن يؤخذ ضعف الصدقة من أرضه، ولا يأخذون من ماشيته شيئاً، قال أهل الحجاز: يؤخذ ذلك من ماشيته وأرضه، وقالوا جميعا أن سبيل ما يؤخذ من أموال بنى تغلب سبيل مال الخراج، لأنه بدل من الجزية.

الثغور الجزرية

قالوا: لما استخلف عثمان بن عفان -رضى الله عنه- كتب إلى معاوية بولايته الشام، وولى عمير بن سعد الأنصارى الجزيرة، ثم عزله وجمع لمعاوية الشام، والجزيرة وثغورهما، وأمره أن يغزو شمشاط وهى أرمينية الرابعة أو يغزيها، فوجه إليها حبيب بن مسلمة الفهرى، وصفوان بن معطل السلمى، ففتحاها بعد أيام من نزولهما عليها على مثل صلح الرها. وأقام صفوان بها، وبها توفى فى آخر خلافة معاوية، ويقال : بل غزاها معاوية نفسه، وهذان معه فولاها صفوان، فأوطنها وتوفى بها.

قالوا: وقد كان قسطنطين الطاغية اناخ عليها بعد نزوله فى ملطية فى سنة ١٣٣ فلم يمكنه فيها شىء، فأغار على ما حولها ثم انصرف، ولم تزل شمشاط خراجية حتى صيرها المتوكل على الله - رحمه الله - عشرية أسوة بغيرها من الثغور.

وقالوا: غزا حبيب بن مسلمة حصن كمخ، بعد فتح شمشاط فلم يقدر عليه، وغزاه صفوان فلم يمكنه فتحه، ثم غزاه فى سنة ٥٩ وهى السنة التى مات فيها ومعه عُمير بن الحباب السلمى فعلا عُمير سوره، ولم يزل يجالد عليه وحده حتى كشف الروم، وصعد المسلمون، ففتحه لعمير بن الحباب، وبذلك كان يفخر ويفخر له.

ثم أن الروم غلبوا عليه ففتحه مسلمة بن عبد الملك، ولم يزل يفتح وتغلب الروم عليه، فلما كانت سنة ١٤٩، شخص المنصور على بغداد حتى نزل حديثة الموثل، ثم أغزى منها الحسن بن قحطبة، وبعده محمد بن الأشعث، وجعل عليهما العباس بن محمد، وأمره أن يغزو بهم كمخ، فمات محمد بن الأشعث بآمد.

وسار العباس والحسن حتى صارا إلى ملطية فحملا منها الميرة، ثم أناخا على كمخ، وأمر العباس بنصب المنجنيق عليه، فجعلوا على حصتهم خشب العرعر لئلا يضربه حجارة المنجنيق، ورموا المسلمين فقتلوا منهم بالحجارة مائتى رجل فاتخذ المسلمون الدبابات، وقاتلوا قتالا شديداً حتى فتحوه.

وكان مع العباس بن محمد بن على فى غزاته هذه مطر الوراق، ثم إن الروم اغلقوا كمخ، فلما كانت سنة ١٧٧ غزا محمد ابن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى عمرة الأنصارى، وهو عامل عبد الملك ابن صالح على شمشاط، ففتحه ودخله لأربع عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الآخر من هذه السنة، فلم يزل مفتوحا حتى كان هيج محمد بن الرشيد فهرب أهله، وغلبت عليه الروم.

ويقال: أن عبيد الله بن الأقطع دفعه إليهم، وتخلص ابنه وكان أسيراً عندهم، ثم أن عبد الله بن طاهر فتحه فى خلافة المأمون، فكان فى أيدى المسلمين حتى لطف قوم من نصارى شمشاط وقاليقلا وبقراط بن أشوط بطريق خلاط فى دفعه إلى الروم والتقرب إليهم بذلك بسبب ضياع لهم فى عمل شمشاط.

ملطيـة

وقالوا: وجه عياض بن غنم، حبيب بن مسلمة الفهرى، من شمشاط إلي ملطية ففتحها، ثم أغلقت. فلما ولى معاوية الشام والجزيرة وجه إليها حبيب بن مسلمة، ففتحها عنوة ورتب فيها رابطة من المسلمين مع عاملها وقدمها معاوية وهو يريد دخول الروم، فشحنها بجماعة من أهل الشام والجزيرة وغيرهما فكانت طريق الصوائف. ثم أن أهلها انتقلوا عنها فى أيام عبد الله بن الزبير، وخرجت الروم فشعثتها ثم تركتها فنزلها قوم من النصارى من الأرمن والنبط.

وحدثنى محمد بن سعد، عن الواقدى فى إسناده قال : كان المسلمون نزلوا طرندة بعد أن غزاها عبد الله بن عبد الملك سنة ٨٣ وبنوا بها مساكن وهى من ملطية على ثلاث مراحل واغلة فى بلاد الروم، وملطية يومئذ خراب ليس بها الأناس من أهل الذمة من الأرمن وغيرهم، فكانت تأتيهم طالعة من جند الجزيرة فى الصيف، فيقيمون بها إلى أن ينزل الشتاء، وتسقط الثلوج، فإذا كان ذلك قفلوا .

فلما ولى عمر بن عبد العزيز –رضى الله عنه– رحل أهل طرندة عنها وهم كارهون، وذلك لاشفاقه عليهم من العدو، واحتملوا فلم يدعوا لهم شيئا حتى كسروا خوابى الخل والزيت، ثم أنزلهم ملطية، واخرب طرندة، وولى على ملطية جعونة بن الحارث أحد بنى عامر بن صعصعة.

قالوا : وخرج عشرون ألفا من الروم فى سنة ١٢٣، فنزلوا على ملطية فاغلق أهلها أبوابها وظهر النساء على السور عليهن العمائم فقاتلن، وخرج رسول لأهل ملطية مستغيثا، فركب البريد وسار حتى لحق بهشام بن عبد الملك وهو بالرصافة، فندب هشام الناس إلى ملطية، ثم أتاه الخبر بأن الروم قد رحلت عنها، فدعا، فدعا الرسول فأخبره، وبعث معه خيلا ليرابط بها، وغزا هشام نفسه

ثم نزل ملطية وعسكر عليها حتى بنيت، فكان ممره بالرقة دخلها متقلدا سيفاً، ولم يتقلده قبل ذلك فى أيامه.

قال الواقدى : لما كانت سنة ١٣٣ أقبل قسطنطين الطاغية عامداً لملطية، وكمخ يومئذ فى أيدى المسلمين وعليها رجل من بنى سليم، فبعث أهل كمخ الصريخ إلى أهل ملطية، فخرج إلي الروم منهم ثمانى مائة فارس، فواقعهم خيل الروم فهزمتهم، ومال الرومى فأناخ على ملطية فحصر من فيها والجزيرة يومئذ مفتونة، وعاملها موسى بن كعب بحران فوجهوا رسولا لهم إليه، فلم يمكنه إغاثتهم.

وبلغ ذلك قسطنطين، فقال لهم : يا أهل ملطية، انى لم آتكم إلا على علم بأمركم، وتشاغل سلطانكم عنكم، انزلوا على الأمان واخلوا المدينة اخربها، وأمضى عنكم، فأبوا عليه، فوضع عليها المجانيق، فلما جهدهم البلاء، واشتد عليهم الحصار، سألوه أن يوثق لهم ففعل، ثم استعدوا للرحلة، وحملوا ما استدق لهم وألقوا كثيراً مما ثقل عليهم فى الآبار والمخابى.

ثم خرجوا، وأقام لهم الروم صفين من باب المدينة إلى منقطع آخرهم مخترطى السيوف طرف سيف كل واحد منهم مع طرف سيف الذى يقابله حتى كأنها عقد قنطرة، ثم شيعوهم حتى بلغوا مأمنهم وتوجهوا نحو الجزيرة فتفرقوا فيها.

وهدم الروم ملطية، فلم يبقوا منها إلا هربا فإنهم شعثوا منه شيئا يسيراً، وهدموا حصن قلوذية. فلما كانت سنة ١٣٩، كتب المنصور إلى صالح بن على يأمره ببناء ملطية وتحصينها، ثم رأى أن يوجه عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام، والياً على الجزيرة وثغورها فتوجه فى سنة ١٤٠ ومعه الحسن بن قحطبة فى جنود أهل خراسان، فقطع البعوث على أهل الشام والجزيرة، فتوافى معه سبعون ألفا، فعسكر على ملطية، وقد جمع الفعلة من كل بلد، فأخذ فى بنائها.

وكان الحسن بن قحطبة، ربما حمل الحجر حتى يناوله البناء، وجعل يغدى الناس ويعيشهم من ماله مبرزا مطابخه، فغاظ ذلك عبد الوهاب فكتب إلى أبى جعفر يعلمه أنه يطعم الناس، وأن الحسن يطعم أضعاف ذلك إلتماساً لأن يطوله ويفسد ما يصنع ويهجنه بالإسراف والرياء، وأن له منادين ينادون الناس إلى طعامه.

فكتب إليه أبو جعفر، يا صبى يطعم الحسن من ماله، وتطعم من مالى ما أتيت إلا من صغر خطرك وقلة همتك، وسفه رأيك، وكتب إلى الحين أن اطعم ولا تتخذ مناديا، فكان الحسن يقول من سبق إلى شرفة فله كذا، فجد الناس فى العمل حتى فرغوا من بناء ملطية ومسجدها فى ستة أشهر، وبنى للجند الذين أسكنوها لكل عرافة بيتان سفليان، وعليتان فوقهما، واصطبل (والعرافة عشة نفر إلى خمسة عشر رجلاً).

وبنى لها مسلحة على ثلاثين ميلاً منها، ومسلحة على نهر يدعى قُباقب، يدفع فى الفرات واسكن المنصور ملطية أربعة ألف مقاتل من أهل الجزيرة، لأنها من ثغورهم على زيادة عشرة دنانير فى عطاء كل رجل، ومعونة مائة دينار سوى الجعل الذى يتجاعله القبائل بينها؛ ووضع فيها شحنتها من السلاح، وأقطع الجند المزارع وبنى حصن قلوذية، وأقبل قسطنطين الطاغية فى أكثر من مائة ألف فنزل جيحان فبلغه كثرة العرب فأحجم عنها.

وسمعت من يذكر أنه كان مع عبد الوهاب فى هذه الغزاة نصر بن مالك الخزاعى، ونصر بن سعد الكاتب مولي الأنصار فقال الشاعر :

تكنفك النصران نصر بن مالك   ونصر بن سعد عز نصرك من نصر

وفى سنة ١٤١ أغزى محمد بن إبراهيم ملطية فى جند من أهل خراسان، وعلى شرطته المسيب بن زهير، فرابط بها لئلا يطمع فيها العدو

فتراجع إليها من كان باقياً من أهلها، وكانت الروم عرضت لملطية فى خلافة الرشيد فلم تقدر عليها وغزاهم الرشيد -رحمه الله- ، فأشجاهم وقمعهم. وقالوا: وجه أبو عبيدة ابن الجراح، وهو بمنبج خالد بن الوليد إلى ناحية مرعش ففتح حصنها على أن جلا أهله ثم أخربه وكان سفيان بن عوف الغامدى لما غزا الروم فى سنة ٣٠، رحل من قبل مرعش فساح فى بلاد الروم.

وكان معاوية بنى مدينة مرعش، واسكنها جندا، فلما كان موت يزيد بن معاوية كثرت غارات الروم عليهم فانتقلوا عنها، وصالح عبد الملك الروم بعد موت أبيه مروان بن الحكم وطلبه للخلافة على شيء كان يؤديه إليهم، فلما كانت سنة ٧٤ غزا محمد بن مروان الروم وانتقض الصلح، ولما كانت سنة ٧٥ غزا الصائفة أيضا محمد بن مروان.

وخرجت الروم فى جمادى الأولى من قبل مرعش إلى الأعماق فزحف إليهم المسلمون وعليهم أبان بن الوليد بن عقبة بن أبى معيط ومعه ديار بن دينار مولى عبد الملك بن مروان، وكان على قنسرين وكورها فالتقوا بعمق مرعش فاقتتلوا قتالا شديداً، فهزمت الروم وأتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون.

وكان دينار لقى فى هذا العام جماعة من الروم بجسر بغرا، وهو من شمشاط على نحو من عشرة أميال، فظفر بهم، ثم أن العباس بن الوليد بن عبدالملك صار إلى مرعش فعمرها وحصنها، ونقل الناس إليها وبنى لها مسجداً جامعاً، وكان يقطع فى كل عام على أهل قنسرين بعثاً إليها.

فلما كانت أيام مروان بن محمد وشغل بمحاربة أهل حمص خرجت الروم وحصرت مدينة مرعش حتى صالحهم أهلها على الجلاء، فخرجوا نحو الجزيرة وجند قنسرين بعيالاتهم، ثم أخربوها، وكان عامل مروان عليها يومئذ الكوثر بن زفر بن الحرث الكلابى، وكان الطاغية يومئذ قسطنطين بن اليون.

ثم لما فرغ مروان من أمر حمص وهدم سورها بعث جيشا لبناء مرعش فبنيت ومدنت فخرجت الروم فى فتنته فأخربتها، فبناها صالح بن على فى خلافة أبى جعفر المنصور وحصنها وندب الناس إليها على زيادة العطا، واستخلف المهدى فزاد فى شحنتها وقوى أهلها.

قال البلاذرى :

حدثنى محمد بن سعد عن الواقدى، قال خرج ميخائيل من درب الحدث فى ثمانين ألفا فأتى عمق مرعش فقتل وأحرق وسبى من المسلمين خلقا، وصار إلى باب مدينة مرعش وبها عيسى بن علىّ، وكان قد غزا فى تلك السنة فخرج إليه موالى عيسى، وأهل المدينة ومقاتلتهم، فرشقوه بالنبل والسهام فاستطرد لهم حتى إذا نحاهم عن المدينة كر عليهم فقتل من موالى عيسى ثمانية نفر، واعتصم الباقون بالمدينة فأغلقوها فحاصرهم بها.

ثم انصرف حتى نزل جيحان وبلغ الخبر ثُمامة بن الوليد العبسى وهو بدابق، وكان قد ولى الصائفة سنة ١٦١ فوجه إليه خيلاً كثيفة فأصيبوا إلا من نجا منهم فأحفظ ذلك المهدى واحتفل لاغزاء الحسن بن قحطبة فى العام المقبل وهو سنة ١٦٢.

قالوا: وكان حصن الحدث مما فتح أيام عمر فتحه حبيب بن مسلمة من قبل عياض بن غنم، وكان معاوية يتعهده بعد ذلك وكان بنو أمية يسمون درب الحدث السلامة للطيرة، لأن المسلمين كانوا أصيبوا به، فكان ذلك الحدث فيما يقول بعض الناس، وقال قوم لقى المسلمين غلام حدث على الدرب فقاتلهم فى أصحابه فقيل درب الحدث.

ولما كان زمن فتنة مروان بن محمد، خرجت الروم فهدمت مدينة الحدث وأجلت عنها أهلها، كما فعلت بملطية، ثم لما كانت سنة ١٦١ خرج ميخائيل إلى

عمق مرعش ووجه المهدى الحسن بن قحطبة ساح فى بلاد الروم فثقلت وطأته على أهلها، حتى صوروه فى كنائسهم، وكان دخوله من درب الحدث، فنظر إلى موضع مدينتها فأخبر أن ميخائيل خرج منه فارتاد الحسن موضع مدينته هناك.

فلما انصرف كلم المهدى فى بنائها وبناء طرسوس فأمر بتقديم بناء الحدث وكان فى غزاة الحسن هذه مندل العنزى المحدث الكوفى ومعتمد بن سليمان البصرى فأنشأها على بن سليمان بن على، وهو على الجزيرة وقنسرين وسميت المحمدية وتوفى المهدى مع فراغهم من بنائها فهى المهدية والمحمدية، وكان بناؤها باللبن وكانت وفاته سنة ١٦٩.

واستخلف موسى الهادى ابنه، فعزل على بن سليمان وولى الجزيرة وقنسرين محمد بن إبراهيم بن محمد بْن على وقد كان على بن سليمان فرغ من بناء مدينة الحدث، وفرض لها فرضا من أهل الشام والجزيرة وخراسان فى أربعين ديناراً من العطاء، وأقطعهم المساكن وأعطى كل امرىء ثلثمائة درهم.

وكان الفراغ منها فى سنة ١٦٩، وقال أبو الخطاب فرض على بن سليمان بمدينة الحدث، لأربعة ألف فاسكنهم إياها، ونقل إليها من ملطية، وشمشاط وسميساط وكيسوم ودلوك ورغبان، ألفى رجل.

قال الواقدى ولما بنيت مدينة الحدث هجم الشتاء والثلوج وكثرت الأمطار ولم يكن بناؤها بمستوثق منه ولا محتاط فيه فتثلمت المدينة وتشعثت ونزل بها الروم فتفرق عنها من كان فيها من جندها وغيرهم، وبلغ الخبر موسى فقطع بعثا مع المسيب بن زهير، وبعثا مع روح بن حاتم، وبعثا مع حمزة بن مالك، فمات قبل أن ينفذوا. ثم ولى الرشيد الخلافة فأمر ببنائها وتحصينها وشحنتها واقطاع مقاتلتها المساكن والقطائع.

وقال غير الواقدى أناخ بطريق من عظماء بطارقة الروم فى جمع كثيف

على مدينة الحدث حين بنيت. وكان بناؤها بلبن قد حُمل بعضها على بعض واضرب به الثلوج وهرب عاملها ومن فيها ودخلها العدو فحرق مسجدها وأخربها واحتمل أمتعة أهلها، فبناها الرشيد حين استخلف.

وحدثني بعض أهل منبج قال، أن الرشيد كتب إلى محمد بن إبراهيم بإقراره على عمله فجرى أمر مدينة الحدث وعمارتها من قبل الرشيد على يده ثم عزله، قالوا: وكان مالك بن عبد الله الخثعمي الذي يقال له مالك الصوائف وهو من أهل فلسطين غزا بلاد الروم سنة ٤٦ وغنم غنائم كثيرة ثم قفل، فلما كان من درب الحدث على خمسة عشر ميلاً بموضع يدعى الرهوة، أقام فيها ثلاثا فباع الغنائم وقسم سهام الغنيمة، فسميت تلك الرهوة رهوة مالك.

قالوا: وكان مرج عبد الواحد حمى لخيل المسلمين فلما بنى الحدث وزيطرة استغنى عنه فازدرع.

قالوا: وكانت زيطرة حصناً قديماً رومياً ففتح مع حصن الحدث القديم، فتحه حبيب بن مسلمة الفهري وكان قائما إلى أن أخربته الروم في أيام الوليد بن يزيد فبنى بناء غير محكم، فأناخت الروم عليه في أيام فتنة مروان بن محمد فهدمته فبناه المنصور ثم خرجت إليه فشعثته، فبناه الرشيد على يدى محمد بن إبراهيم وشحنه.

فلما كانت خلافة المأمون طرقه الروم فشعثوه، واغاروا على سرح أهله فاستاقوا لهم مواشى فأمر المأمون بمرمته وتحصينه. وقدم وفد طاغية الروم فى سنة ٢١٠ يسأل للصلح فلم يجبه إليه، وكتب إلي عمال الثغور فساحوا فى بلاد الروم فأكثروا فيها القتل ودوخوها، وظفروا ظفراً حسنا إلا أن يقظان بن عبد الأعلى بن أحمد بن يزيد بن أسيد السلمى أصيب.

ثم خرجت الروم إلى زيطرة فى خلافة المعتصم بالله أبى إسحق بن

الرشيد فقتلوا الرجال وسبوا النساء وأخربوها فاحفظه ذلك وأغضبه فغزاهم حتى بلغ عمورية، وقد أخرب قبلها حصونا فأناخ عليها، حتى فتحها فقتل المقاتلة وسبى النساء والذرية ثم أخربها وأمر ببناء زيطرة وحصنها وشحنها فرامها الروم بعد ذلك فلم يقدروا عليها.

وحدثنى أبو عمرو الباهلى وغيره قالوا: نُسب حصن منصور إلى منصور بن جعونة بن الحارث العامرى من قيس وذلك أنه تولى بناءه ومرمته، وكان مقيما به أيام مروان، ليرد العدو ومعه جند كثيف من أهل الشام والجزيرة، وكان منصور هذا على أهل الرها حين امتنعوا فى أول الدولة فحصرهم المنصور، وهو عامل أبى العباس على الجزيرة وأرمينية فلما فتحها هرب منصور، ثم أومن فظهر فلما خلع عبد الله بن على أبا جعفر المنصور ولاه شرطته، فلما هرب عبد الله إلى البصرة استخفى فدف عليه فى سنة ١٤١ فأتى المنصور به فقتله بالرقة منصرفه من بيت المقدس، وقوم يقولون أنه أومن بعد هرب ابن على فظهر ثم وجدت له كتب إلى الروم بغش الإسلام، فلما قدم المنصور الرقة من بيت المقدس سنة ١٤١ وجه من أتاه به فضرب عنقه بالرقة، ثم انصرف إلي الهاشمية بالكوفة.

وكان الرشيد بنى حصن منصور وشحنه فى خلافة المهدى.

نقل ديوان الرومية

قالوا ولم يزل ديوان الشام بالرومية حتى ولى عبد الملك بن مروان فلما كانت سنة ٨١ أمر بنقله، وذلك أن رجلا من كتاب الروم احتاج أن يكتب شيئا فلم يجد ماء قبال فى الدواة، فبلغ ذلك عبد الملك فأدبه وأمر سليمان بن سعد بنقل الديوان، فسأله أن يعينه بخراج الأردن سنة ففعل ذلك وولاه الأردن فلم تنقض السنة حتى فرغ من نقله وأتى به عبدالملك فدعا بسرجون كاتبه فعرض ذلك عليه فضمه، وخرج من عنده كئيباً، فلقيه قوم من كتاب الروم، فقال اطلبوا المعيشة من غير هذه الصناعة، فقد قطعها الله عنكم، قال ، وكانت وظيفة الأردن التى قطعها معونة مائة ألف وثمانين ألف دينار، ووظيفة فلسطين ثلاثمائة ألفا، وخمسين ألف دينار، ووظيفة دمشق أربعمائة ألف دينار، ووظيفة حمص مع قنسرين والكور التى تدعى اليوم العواصم، ثمانى مائة ألف دينار، ويقال سبع مائة ألف دينار.

فتوح أرمينية

قال البلاذرى: حدثنى محمد بن إسماعيل من ساكنى برذعة وغيره عن أبى براء عنبسة ابن بحر الأرمنى.

وحدثنى محمد بن بشر القالى عن أشياخه وبرمك بن عبد الله الدبيلى، ومحمد بن المخيس الخلاطى وغيرهم عن قوم من أهل العلم بأمور أرمينية سقت حديثهم، وردت من بعضه على بعض قالوا: كانت شمشاط وقاليقلا وخلاط وأرجيش وباجنيس تدعى أرمينية الرابعة، وكانت كورة البفرجان ودبيل، وسراج طير، وبغروند، تدعى أرمينية الثالثة، وكانت جرزان، تدعى أرمينية الثانية، وكانت السيسجان وأران تدعى أرمينية الأولى.

ويقال كانت شمشاط وحدها أرمينية الرابعة، وكانت قاليقلا وخلاط وأرجيش وباجنيس تدعى أرمينية الثالثة، وسراج طير وبغروند ودبيل والبسفرجان تدعى أرمينية، وسيسجان وأران وتفليس تدعى أرمينية الأولى.

وكانت جرزان وأران فى أيدى الخزر، وسائر أرمينية فى أيدى الروم يتولاها صاحب أرمنياقس، وكانت الخزر، تخرج فتغير وربما بلغت الدينور فوجه قباذ بن فيروز الملك قائداً من عظماء قواده فى اثنى عشر ألفا، فوطىء بلاد أران وفتح ما بين النهر الذى يعرف بالرس إلى شروان.

ثم أن قُباذ لحق به فبنى بأران مدينة البيلقان، ومدينة بردغة وهى مدينة الثغر كله، ومدينة قبلة، وهى الخزر، ثم بنى سد اللبن فيما بين أرض شروان، وباب اللان، وبنى على سد اللبن ثلاثمائة وستين مدينة، خربت بعد بناء الباب والأبواب.

ثم أنه ملك بعد قُباذ ابنه أنوشروان كسرى ابن قُباذ فبنى مدينة الشابران ومدينة مسقط، ثم بنى مدينة الباب والأبواب وإنما سميت أبوابا لأنها بنيت على

طريق فى الجبل، وأسكن ما بنى من هذه المواضع قوما سماهم السياسيجين، وبنى بأرض أران أبواب شكن والقميران وأبواب الدوذانية، وهم أمه يزعمون أنهم من بنى دودان بن أسد بن خزيمة وبنى الدرذوقية، وهى اثنا عشر بابا كل باب منها قصر من حجارة.

وبنى بأرض جرزان مدينة يقال لها سغدبيل وأنزلها قوما من السغد وابناء فارس وجعلها مسلحة، وبنى مما يلى الروم فى بلاد جرزان قصرا يقال له باب فيروز قُباذ وقصرا يقال له باب لاذقة، وقصرا يقال له باب بارقة، وهو على بحر طرابزندة، وبنى باب اللان وباب سمسخى، وبنى قلعة الجردمان وقلعة شمشلدى.

وفتح أنوشررون جميع ما كان فى أيدى الروم من أرمينية وعمر مدينة دبيل وحصنها وبنى مدينة النشوى وهى مدينة كورة البسفرجان وبنى حصن ويص، وقلاعا بأرض السيسجان، منها قلعة الكلاب، وساهيونس، وأسكن هذه الحصون والقلاع ذوى البأس والنجدة من سياسيجية.

ثم أن أنوشروان كتب إلى ملك الترك يسأله الموادعة والصلح، وأن يكون أمرهما واحدا، وخطب إليه ابنته ليؤنسه بذلك، وأظهر له الرغبة فى صهره، وبعث إليه بأمة كانت له تبنتها امرأة من نسائه، وذكر أنها ابنته إليه ثم قدم عليه فالتقيا بالبرشلية، وتنادما أياما، وأنس كل واحد منهما بصاحبه وأظهر بره.

وأمر أنوشروان جماعة من خاصته وثقاته، أن يبيتوا طرفا من عسكر التركى ويحرقوا فيه ففعلوا، فلما أصبح شكا ذلك إلى أنوشروان، فأنكر أن يكون أمر به، أو علم أن أحداً من أصحابه فعله، ولما مضت لذلك ليال، أمر أولئك القوم، بمعاودة مثل الذى كان منهم ففعلوا، فضج التركى من فعلهم حتى رفق به أنوشروان، واعتذر إليه فسكن.

ثم إن أنوشروان، أمر فألقيت النار فى ناحية من عسكره لم يكن بها إلا أكواخ قد اتخذت من حشيش وعيدان، فلما أصبح ضج أنوشروان إلى التركى وقال كاد أصحابك يذهبون بعسكرى، وقد كافأتنى بالظنة فحلف أنه لم يعلم لشىء مما كان سببا.

فقال أنوشروان : يا أخى جندنا وجندك قد كرهوا صلحنا لانقطاع ما انقطع عنهم من النيل فى الغارات والحروب التى كانت تكون بيننا ولا آمن أن يحدثوا أحداثا يفسد قلوبنا بعد تصافينا وتخالصنا، حتى نعود إلى العداوة بعد الصهروالمودة.

والرأى أن تأذن لى فى بناء حائط يكون بينى وبينك، ونجعل عليه بابا فلا يدخل إليك من عندنا وإلينا من عندك إلا من أردت وأردنا، فأجابه إلى ذلك فانصرف إلى بلاده وأقام أنوشروان لبناء الحائط، فبناه وجعله من قبل البحر بالصخر والرصاص وجعل عرضه ثلاثمائة ذراع وألحقه برؤوس الجبال، وأمر أن تحمل الحجارة فى السفن، وتغريقها فى البحر حتى إذا ظهرت على وجه الماء بنى عليها فقاد الحائط فى البحر ثلاثة أميال.

فلما فرغ من بنائه علق على المدخل منه أبواب حديد، ووكل به مائة فارس يحرسونه بعد أن كان موضعه يحتاج إلى خمسين ألفا من الجند، وجعل عليه دبابة فقيل لخاقان بعد ذلك، أنه خدعك وزوجك غير ابنته، وتحصن منك فلم يقدر على حياة.

وملك أنوشروان ملوكا رتبهم، وجعل لكل امرىء منهم شاهية ناحية فمنهم خاقان الجبل وهو صاحب السرير، ويدعى وهرارزانشاه ومنهم ملك فيلان، وهو فيلان شاه، ومنهم سبرطرانشاه، وملك اللكز ويدعى جرشانشاه، وملك مسقط وقد بطلت مملكته، وملك ليران ويدعى ليرانشاه، وملك شروان ويدعى شروانشاه.

وملك صاحب بخ على بخ، وصاحب زريكران عليها، وأقر ملوك جبل القبق على ممالكهم وصالحهم على الاتاوة، فلم تزل أرمينية فى أيدى الفرس حتى ظهر الإسلام، فرفض كثير من السياسجين حصونهم ومدائنهم حتى خربت، وغلب الخزر والروم على ما كان فى أيديهم بدياً.

قالوا: وقد كانت أمور الروم تستتب فى بعض الأزمنة وصاروا كملوك الطوائف فملك أرمنياقس رجل منهم، ثم مات فملكتهابعده امرأته، وكانت تسمى قالى فبنت مدينة قاليقلا، وسمتها قاليقاله ومعنى ذلك احسان قالى، قال: وصورت على باب من أبوابها فأعربت الغرب قاليقاله فقالوا قاليقلا.

قالوا: ولما استخلف عثمان بن عفان، كتب إلي معاوية وهو عامله على الشام والجزيرة وثغورهما، يأمره أن يوجه حبيب بن مسلمة الفهرى إلى أرمينية وكان حبيب ذا أثر جميل فى فتوح الشام وغزو الروم قد علم ذلك منه عمر ثم عثمان -رضى الله عنهما- ثم من بعده.

ويقال بل كتب عثمان إلى حبيب يأمره بغزو أرمينية وذلك أثبت، فنهض إليها فى ستة ألف، ويقال فى ثمانية ألف من أهل الشام والجزيرة، فأتى قاليقلا فأناخ عليها، وخرج إليه أهلها فقاتلهم ثم ألجاهم إلى المدينة، فطلبوا الأمان على الجلاء والجزية فجلا كثير منهم فلحقوا ببلاد الروم. وأقام حبيب بها فيمن معه أشهراً.

ثم بلغه أن بطريق أرمنياقس، قد جمع للمسلمين جمعاً عظيماً وانضمت إليه أمداد أهل اللان، وأفخار وسمندر من الخزر، فكتب إلي عثمان يسأله أن يشخص إليه من أهل الشام والجزيرة قوما ممن يرغب فى الجهاد والغنيمة، فبعث إليه معاوية ألفى رجل أسكنهم قاليقلا واقطعهم بها القطائع وجعلهم مرابطة بها.

ولما ورد على عثمان كتاب حبيب، كتب إلى سعيد بن العاصى بن سعيد بن العاصى بن أمية، وهو عامله على الكوفة يأمره بامداده بجيش عليه سلمان بن ربيعة الباهلى، وهو سلمان الخيل، وكان خيرا فاضلا غزاه، فسار سلمان الخيل إليه فى ستة ألف رجل من أهل الكوفة وقد اقبلت الروم ومن معها فنزلوا على الفرات، وقد أبطأ على حبيب المدد فبيتهم المسلمون فاجتاحوهم وقتلوا عظيمهم.

وقالت أم عبد الله بنت يزيد الكلبية، امرأة حبيب ليلتئذ له أين موعدك قال : سرادق الطاغية أو الجنة فلما انتهى إلى السرادق وجدها عنده.

قالوا: ثم إن سلمان ورد وقد فرغ المسلمون من عدوهم، فطلب أهل الكوفة إليهم أن يشركوهم فى الغنيمة، فلم يفعلوا حتى نغالظ حبيب وسلمان فى القول، وتوعد بعض المسلمين سلمان بالقتل، قال الشاعر:

إن تقتلوا سلمان نقتل حبيبكم   وإن ترحلوا نحو ابن عفان نرحل

وكتب إلى عثمان بذلك، فكتب أن الغنيمة باردة لأهل الشام وكتب إلى سلمان يأمره بغزو أران، وقد روى بعضهم أن سلمان بن ربيعة توجه إلى أرمينية فى خلافة عثمان فسبى وغنم وانصرف إلى الوليد بن عقبة وهو بحديثة الموصل سنة ٣٥، فأتاه كتاب عثمان يعلمه أن معاوية كتب يذكر أن الروم قد اجلبوا على المسلمين بجموع عظيمة يسأل المدد، ويأمره أن يبعث إليه ثمانية ألف رجل فوجه بهم، وعليهم سلمان بن ربيعة الباهلى، ووجه معاوية حبيب بن مسلمة الفهرى معه فى مثل تلك العدة فافتحا حصونا وأصابا سبيا وتنازعا الإمارة، وهم أهل الشام بسلمان فقال الشاعر :

إن تقتلوا ... (وهو البيت السابق).

يقول البلاذرى :

والخبر الأول أثبت، حدثني به عدة من مشايخ أهل قاليقلا وكتب إليّ به العطاف بن سفيان أبو الأصبغ قاضيها.

وحدثني محمد بن سعد، عن الواقدي، عن عبد الحميد بن جعفر عن أبيه، قال : حاصر حبيب بن مسلمة أهل دبيل فأقام عليها فلقيه الموريان الرومي، فبيته وقتله وغنم ما كان في عسكره، ثم قدم سلمان عليه، والثبت عندهم أنه قيه بقاليقلا.

وحدثني محمد بن بشر وابن ورز القاليان عن مشايخ أهل قاليقلا، قالوا، لم تزل مدينة قاليقلا مذ فتحت ممتنعة بمن فيها من أهلها حتى خرج الطاغية في سنة ١٣٣، فحصر أهل ملطية وهدم حائطها، وأجلى من بها من المسلمين إلى الجزيرة، ثم نزل مرج الحي، فوجه كوسان الأرمني، حتى أناخ على قاليقلا فحصرها، وأهلها يومئذ قليل وعاملها أبو كريمة، فنقب أخوان من الأرمن من أهل مدينة قاليقلا ردما كان في سورها وخرجا إلى كوسان، فأدخلاه المدينة، فغلب عليها فقتل وسبى وهدمها، وساق ما حوى إلى الطاغية، وفرق السبي على أصحابه.

وقال الواقدي لما كانت سنة ١٣٠، فادى المنصور بمن كان حيا من أسارى أهل قاليقلا، وبنى قاليقلا وعمرها ورد من فادى به إليها، وندب إليها جندا من أهل الجزيرة وغيرهم، وقد كان طاغية الروم خرج إلي قاليقلا في خلافة المعتصم بالله فرمى سورها حتى كاد يسقط فانفق المعتصم عليها خمس مائة ألف درهم حتى حصنت.

قالوا: ولما فتح حبيب مدينة قاليقلا سار حتى نزل مربالا فأتاه بطريق خلاط بكتاب عياض بن غنم وكان عياض قد أمنه على نفسه وماله وبلاده، وقاطعه على إتاوة فأنفذه حبيب له، ثم نزل منزلا بين الهزك، ودشت الورك فأتاه

بطريق خلاط بما عليه من المال، وأهدى له هدية لم يقبلها منه، ونزل خلاط، ثم سار منها إلى الصانة فلقيه بها صاحب مكس[1]، وهى ناحية من نواحى البسفرجان فقاطعه على بلاده ووجه معه رجلا وكتب له كتاب صلح وأمان.

ووجه إلى قرى أرجيش وباجنيس من غلب عليها وجبى جزى رؤوس أهلها، وأتاه وجوهم فقاطعهم على خراجها، فأما بحيرة الطريخ فلم يعرض لها، ولم تزل مباحة حتى ولى محمد بن مروان بن الحكم الجزيرة وأرمينية فحوى صيدها وباعه فكان يستغلها، ثم صارت لمروان بن محمد فقبضت عنه.

قال ثم سار حبيب وأتى أزدساط، وهى قرية القرمز، وأجاز نهر الأكراد ونزل مرج دبيل فسرب الخيول إليها، ثم زحف حتى نزل على بابها فتحصن أهلها ورموه، فوضع عليها منجنيقا ورماهم حتى طلبوا الأمان والصلح، فأعطاهم إياه وجالت خيوله فنزلت جرنى وبلغت أشوش وذات اللجم والجبل كوته؟ ووادى الأحرار وغلبت على جميع قرى دبيل ووجه إلي سراج طير وبغروند فأتاه بطريقها، فصالحه عنها علي أتاوة يؤديها وعلى مناصحة المسلمين، وقراهم ومعاونتهم على أعدائهم، وكان كتاب صلح دبيل :

بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من حبيب بن مسلمة، لنصارى أهل دبيل ومجوسها ويهودها، شاهدها وغائبهم أنى أمنتكم علي أنفسكم، وأموالكم، وكنائسكم، وبيعكم، وسور مدينتكم، فأنتم آمنون، وعلينا الوفاء لكم بالعهد، ما وفيتهم وأديتم الجزية والخراج شهد الله، وكفى به شهيدا. وختم حبيب بن مسلمة.

ثم أتى حبيب النشوى ففتحها على مثل صلح دبيل وقدم عليه بطريق السفرجان فصالحه عن جميع بلاده وأرضى هصابلية، وأقارسته، على خرج

---

(١) من يفرط الإتاوات على التجار وغيرهم .

يؤديه في كل سنة، ثم أتى السيسجان فحاربهم أهلها، فهزمهم وغلب على ولص، وصالح أهل القلاع بالسيسجان على خرج يؤدونه ثم سار إلى جرزان.

حدثني مشايخ من أهل دبيل منهم برمك بن عبد الله قالوا: سار حبيب بن مسلمة بمن معه يريد جرزان، فلما انتهوا إلى ذات اللجم، سرحوا بعض دوابهم، وجمعوا لجمها فخرج عليهم قوم من العلوج فأعجلوهم عن الإلجام فقاتلوهم، فكشفهم العلوج، وأخذوا تلك اللجم وما قدروا عليه من الدواب، ثم أنهم كروا عليهم، فقتلوهم وارتجعوا ما أخذوا منهم فسمي الموضع ذات اللجم، قالوا: وأتى حبيبا رسول بطريق جرزان وأهلها وهو يريدها، فأدى إليه رسالتهم وسأله كتاب صلح وأمان لهم فكتب حبيب إليهم :

أما بعد فان نقلي رسولكم قدم علي، وعلى الذين معي من المؤمنين فذكر عنكم أنا أمة اكرمنا الله وفضلنا وكذلك فعل الله، وله الحمد كثيرا، وصلى الله على محمد نبيه، وخيرته من خلقه وعليه السلام وذكرتم أنكم أحببتم سلمنا وقد قومت هديتكم، وحسبتها من جزيتكم وكتبت لكم أماناً واشترطت فيه شرطاً، فإن قبلتموه ووفيتم به وإلا فأذنوا بحرب من الله ورسوله والسلام على من اتبع الهدى.

ثم ورد تفليس وكتب لأهلها صلحا.

بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من حبيب بن مسلمة لأهل تفليس من منجليس، من جرزان القرمز بالأمان على أنفسهم، وبيعهم، وصوامعهم وصلواتهم، ودينهم، على إقرار بالصغار والجزية على كل أهل بيت دينار، وليس لكم أن تجمعوا بين أهل البيوتات تخفيفا للجزية، ولا لنا أن نفرق بينهم استكثاراً منها.

ولنا نصيحتكم وضلعكم على أعداء الله ورسوله ﷺ ما استطعتم وقرى

المسلم المحتاج ليلة المعروف من حلال طعام أهل الكتاب لنا، وإن انقطع برجل من المسلمين عندكم فعليكم أداؤه إلى أدنى فئة من المؤمنين إلا أن يحال دونهم.

وإن أثبتم وأقمتم الصلاة فاخواننا في الدين وإلا فالجزية عليكم، وأن عرض للمسلمين شغل عنكم فقهركم عدوكم فغير مأخوذين بذلك ولا هو ناقض عهدكم، هذا لكم وهذا عليكم شهد الله وملائكته وكفى بالله شهيدا.

وكتب الجراح بن عبد الله الحكمي لأهل تفليس كتابا نسخته :

بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من الجراح بن عبد الله لأهل تفليس من رستاق منجليس، من كورة جرزان، أنه أتوني بكتاب أمان لهم من حبيب بن مسلمة على الإقرار بصغار الجزية، وأنه صالحهم على أرضين لهم وكروم وأرجاء يقال لها أوارى وسابينا من رستاق منجليس، وعن طعام وديدونا من رستاق قحويط من كورة جرزان على أن يؤدوا عن هذه الأرحاء، والكروم في كل سنة مائة درهم بلا ثانية، فانفذت لهم أمانهم وصلحهم، وأمرت الإيراد عليهم فمن قرىء عليه كتابي فلا يتعد ذلك فيهم إن شاء الله . وكتب.

قالوا وفتح حبيب، جوارح وكسفربيس وكسال، وخان وسمسخى، والجردمان وكستسجى، وشوشت وبازليت صلحا على حقن دماء أهلها وإقرار مصلياتهم وحيطانهم وعلى أن يؤدوا أتاوة عن أرضهم ورؤوسهم. وصالح أهل قلرجيت، وأهل ثرياليت، وخاخيط، وخوخيط وأرطهال وباب اللآل وصالح الصنارية والدودانية على اتاوة.

قالوا: وسار سلمان بن ربيعة الباهلي حين أمره عثمان بالمسير إلى أران، ففتح مدينة البيلقان صلحا، على أن أمنهم علي دمائهم وأموالهم وحيطان مدينتهم، واشترط عليهم أداء الجزية والخراج، ثم أتى سلمان برذعة فعسكر على الثرثور وهو نهر منها على أقل من فرسخ، فأغلق أهلها دونه أبوابهم، فعاناها

أياما وشن الغارات فى قراها، وكانت زروعها مستحصدة فصالحوه على مثل صلح البيلقان، وفتحوا له أبوابها فدخلها وأقام بها، ووجه خيله ففتحت شفشين والمسفوان وأوذ والمصريان والهرحليان، وتبار وهى رساتيق وفتح غيرها من أران ودعا أكراد البلاسجان، إلى الإسلام، فقاتلوه فظفر بهم، فأقر بضعهم بالجزية، وأدى بعض الصدقة وهم قليل.

وحدثنى جماعة من أهل برذعة، قالوا كانت شمكور مدينة قديمة، فوجه سلمان بن ربيعة الباهلى من فتحها، فلم تزل مسكونة معمورة حتى أخربها الساوردية وهم قوم تجمعوا فى أيام انصراف يزيد بن أسيد عن أرمينية، فغلظ أمرهم وكثرت نوائبهم، ثم أن بغا مولى المعتصم بالله (رحمه الله) عمرها فى سنة ٢٤٠ وهو والى أرمينية، وأذربيجان وشمشاط واسكنها قوما خرجوا إليه من الخزر مستأمنين لرغبتهم في الإسلام، ونقل إليها التجار من برذعة وسماها المتوكلية.

قالوا: وسار سلمان إلى مجمع الرس والكر خلف برديج فعبر الكر ففتح قبلة وصالحه صاحب شكن والقميران على أتاو، وصالحه أهل خيزان وملك شروان، وسائر ملوك الجبال، وأهل مسقط والشابران ومدينة الباب، ثم أغلقت بعده، ولقيه خاقان فى خيوله خلف نهر البلنجر فقتل (رحمه الله) فى أربعة ألف من المسلمين فكان يسمع فى مأزقهم التكبير. وكان سلمان بن ربيعة أول من أستقضى بالكوفة أقام أربعين يوما لا يأتيه خصم وقد روى عن عمر بن الخطاب، وفى سلمان وقتيبة بن مسلم، يقول ابن جمانة الباهلى :

وإن لنـا قبريـــن قبـر بلنجــر

وقبر بصين استان يا لك من قبر

فذاك الذى بالصين عمت فتوحه

وهذا الذى يسقى به سبل القطر

وكان مع سلمان ببلنجر قرطة بن كعب الأنصارى وهو جاء بنعيه إلى عثمان.

قالوا: ولما فتح حبيب ما فتح من أرض أرمينية كتب به إلى عثمان ابن عفان، فوفاه كتابه وقد نعى إليه سلمان فهم أن يوليه جميع أرمينية ثم رأى أن يجعله غازيا بثغور الشام والجزيرة لغنائه فيما كان ينهض له من ذلك، فولى ثغر أرمينية حذيفة بن اليمان العبسى، فشخص إلى برذعة ووجه عماله على ما بينها وبين قاليقلا، وإلى خيزان فورد عليه كتاب عثمان يأمره بالانصراف وتخليف صلة بن زفر العبسى، وكان معه فخلفه، وسار حبيب راجعاً إلى الشام، وكان يغزو الروم ونزل حفص فنقله معاوية إلى دمشق فتوفى بها سنة ٤٢ وهو ابن ٣٥سنة، وكان معاوية وجه حبيباً فى جيش لنصرة عثمان حين حوصر. فلما انتهى إلى وادى القرى بلغه مقتل عثمان فرجع.

قالوا: وولى عثمان المغيرة بن شعبة أذربيجان وأرمينية، ثم عزله وولى القاسم بن ربيعة بن أمية بن أبى الصلت الثقفى أرمينية، ويقال ولاها عمرو بن معاوية بن المتفق العقيلى، وبعضهم يقول وليها رجل من بنى كلاب بعد المغيرة ١٥ سنة، ثم وليها العقيلى.

وولى الأشعث بن قيس لعلى بن أبى طالب -رضى الله عنه- أرمينية وأذربيجان، ثم وليها عبد الله بن حاتم بن النعمان بن عمرو الباهلى من قبل معاوية فمات بها، فوليها عبد العزيز بن حاتم بن النعمان أخوه، فبنى مدينة دبيل وحصنها وكبر مسجدها، وبنى مدينة النشوى، ورم مدينة برذعة ويقال أنه جدد بناءها، وأحكم حفر الفارقين حولها، وجدد بناء مدينة البيلقان وكانت هذه المدن متشعثة مستهدمة.

ويقال أن الذى جدد بناء برذعة محمد بن مروان فى أيام عبد الملك بن مروان. وقاله الواقدى : بنى عبد الملك، مدينة برذعة على يد حاتم بن النعمان

الباهلي أو ابنه، وقد كان عبد الملك ولى عثمان بن الوليد عقبة بن أبى معيط أرمينية.

قالوا ولما كانت فتنة ابن الزبير انتقضت أرمينية وحالف أحرارها وأتباعهم، فلما ولى محمد بن مروان من قبل أخيه عبد الملك أرمينية حاربهم فظفر بهم، فقتل وسبى وغلب على البلاد. ثم وعد من بقى منهم أن يعرض لهم فى الشرف، فاجتمعوا لذلك فى كنائس من عمل خلاط فأغلقها عليهم ووكل بأبوابها ثم خوفهم فى تلك الغزاة سبيت أم يزيد بن أسيد من السيسجان، وكانت بنت بطريقها.

قالوا: وولى سليمان بن عبد الملك أرمينية عدى بن عدى بن عميرة الكندى، وكان عدى بن عميرة ممن نزل الرفة مفارقا لعلى بن أبى طالب، ثم ولاه أياه عمر بن عبدالعزيز، وهو صاحب نهر عدى بالبيلقان.

وروى بعضهم أن عامل عمر كان حاتم بن النعمان وليس ذلك بثبت، ثم ولى يزيد بن عبد الملك معلق بن صفار البهرانى ثم عزله وولى الحارث بن عمرو الطائى، فغزا أهل اللكز ففتح رستاق حسمدان وولى الجراح بن عبد الله الحكمى من مذحج أرمينية، فنزل برذعة، فرفع إليه اختلاف مكاييلها وموازينها، فأقامها على العدل والوفاء واتخذ مكيالا يدعى الجراحى، فأهلها يتعاملون به إلى اليوم، ثم أنه عبر الكر، وسار حتى قطع النهر المعروف بالسمور وصار إلى الخزر فقتل منهم مقتلة عظيمة، وقاتل أهل بلاد حمزين ثم صالحهم على أن نقلهم إلى رستاق خيزان، وجعل لهم قريتين منه وأوقع بأهل غوميك، وسبى منهم ثم قفل فنزل شكى، وشتى جنده ببرذعة والبيلقان.

وجاشت الخزر وعبرت الرس فحاربهم فى صحراء ورثان ثم انحازوا إلى ناحية أردبيل فواقعهم على أربعة فراسخ مما يلى أرمينية فاقتتلوا ثلاثة أيام فاستشهد ومن معه فسمى ذلك النهر نهر الجراح، ونُسب جسر عليه إلى الجراح أيضا.

ثم أن هشام بن عبد الملك ولى مسلمة بن عبد الملك أرمينية، ووجه على مقدمته سعيد بن عمرو بن اسود الحرشي، ومعه إسحاق بن مسلم العقيلي واخوته، وجعونه بن الحارث بن خالد أحد بني عامر بن ربيعة بن صعصعة وذفافة خالد ابنا عُمير بن الحباب السلمي والفرات بن سلمان الباهي، والوليد بن القعقاع العبسي فواقع الخزر وقد حاصروا ورثان فكشفهم عنها وهزمهم، فأتوا ميمد من عمل أذربيجان .

فلما تهيأ لقتالهم أتاه كتاب مسلمة بن عبد الملك يلومه على قتاله الخزر قبل قدومه، ويعلمه أن قد ولى أمر عسكره عبد الملك بن مسلم العقيلي، فلماسلم العسكر أخذه رسول مسلمة فقيده وحمله إلى برذعة فحبس في سجنها وانصرف الخزر فاتبعهم مسلمة وكتب بذلك إلى هشام فكتب إليه :

أتتركهم بميمذ قد تراهم وتطلبهم بمنقطع التراب

وأمر باخراج الحرشي من السجن.

قالوا: وصالح مسلمة أهل خيزان وأمر بحصنها فهدم واتخذ لنفسه بهي ضياعا وهي اليوم تعرف بحوز خيزان، وسالمه ملوك الجبال فصار إليه شروانشاه، وليرانشاه، وطبرسرانشاه، وفيلانشاه، وجرشاشنشاه، وصار إليه صاحب مسقط، وصمد لمدينة الباب ففتحها، وكان في قلعتها ألف أهل بيت من الخزر فحاصرهم ورماهم بالحجارة، ثم تحديد اتخذه على هيئة الحجارة فلم ينتفع بذلك فعمد إلى العين، التي كان أنوشروان أجرى منها الماء إلى صهريجهم فذبح البقر والغنم وألقى فيه الفرث والحلتيث فلم يمكث ماؤهم إلا ليلة حتى دود وانتن وفسد فلما جن عليهم الليل هربوا وأخلوا القلعة.

وأسكن مسلمة بن عبد الملك مدينة الباب والأبواب أربعة وعشرين ألفا من أهل الشام على العطاء، فأهل الباب اليوم لا يدعون عاملا يدخل مدينتهم الا

ومعه مال يفرقه بينهم وبنى هريا للطعام، وهريا للشعير وخزانة للسلاح، وأمر بكبس الصهريج ورم المدينة وشرفها.

وكان مروان بن محمد مع مسلمة وواقع معه الخزر فأبلى وقاتل قتالا شديداً، ثم ولى هشام بعد مسلمة سعيد الحرشى فأقام بالثغر سنتين، ثم ولى الثغر مروان بن محمد، فنزل كسال وهو بنى مدينتها وهى من برذعة على أربعين فرخسا، ومن تفليس على عشرين فرسخا.

ثم دخل أرض الخزر مما يلى باب اللان، وأدخلهما أسيد بن زافر السلمى أبا يزيد، ومعه ملوك الجبال من ناحية الباب، والأبواب فأغار مروان على صقالبة كانوا بأرض الخزر، فسى منهم عشرين ألف أهل بيت فأسكنهم خاخيط، ثم أنهم قتلوا أميرهم وهربوا فلحقهم وقتلهم.

قالوا: ولما بلغ عظيم الخزر كثرة من وطء به مروان بلاده من الرجال وما هم عليه فى عدتهم وقوتهم نخب ذلك قلبه وملأه رعباً، فلما دنا منه أرسل إليه رسولا يدعوه إلى الإسلام أو الحرب فقال قد قبلت الإسلام فأرسل إلىّ من يعرضه على ففعل، فأظهر الإسلام ووادع مروان على أن أقره فى مملكته وسار مروان معه بخلق من الخزر فأنزلهم ما بين السمور والشابران فى سهل أرض اللكز.

ثم أن مروان دخل أرض السرير فأوقع بأهلها وفتح قلاعا فيها ودان له ملك السرير، وأطاعه فصالحه علي ألف رأس، خمس مائة غلام وخمسمائة جارية سود الشعور والحواجب فى كل سنة وعلى مائة ألف مدى تصب فى اهراء الباب، وأخذ منه الرهن وصالح مروان أهل تُومان على مائة رأس خمسين جارية، وخمسين غالماً خمسين سود الشعور والحواجب، وعشرين ألف مدى للأهراء فى كل سنة ثم دخل أرض زريكران فصالحه ملكها على خمسين رأسا وعشرة ألف مدى للإهراء فى كل سنة.

ثم أتى أرض حمزين، فأبى حمزين أن يصالحه فافتتح حصنهم بعد أن حاصرهم يه شهراً، فأحرق وأخرب وكان صلحه إياهز على خمس مائة رأس يؤدونها دفعة واحدة، ثم لا يكون عليه سبيل وعلى أن يحمل ثلاثين ألف مدى إلى إهراء الباب فى كل سنة.

ثم أتى سدان، فافتتحها صلحا على مائة رأس يعطيه إياها صاحبها دفعة، ثم لا يكون عليه سبيل فيما يستقبل وعلى أن يحمل فى كل سنة إلى إهراء الباب خمسة ألف مدى ووظف على أهل سبرسرانشاه عشر ألف مدى في كل سنة تحمل إلى إهراء الباب ولم يوظف على فيلانشاه شيئا، وذلك لحسن غنائه وجميل بلائه واحماده أمره.

ثم نزل مروان على قلعة اللكز وقد امتنع من أداء شيء من الوظيفة، وخرج يريد صاحب الخزر فقتله راع بسهم رماه به وهو لا يعرفه فصالح أهل اللكز على عشرين ألف مدى تحمل إلى الأهراء.

وولى عليهم خشوما السلمى، وسار مروان إلى قلعة صاحب شروان، وهى تدعى خرش، وهى على البحر فأذعن بالطاعة والانحدار إلى السهل، وألزمهم عشرة ألف مدى فى كل سنة، وجعل على صاحب شروان أن يكون فى المقدمة إذا بدأ المسلمون بغزو الخزر وفى الساقة إذا رجعوا، وعلى فيلانشاه أن يغزو معهم فقط، وعلى طبرسرانشاه أن يكون فى الساقة إذا بدأوا، وفى المقدمة إذا انصرفوا.

وسار مروان إلى الدودانية، فأوقع بهم ثم جاءه قتل الوليد بن يزيد، وخالف عليه ثابت بن نعيم الجذامى، وأتى مسافر القصاب وهو ممن مكنه بالباب الضحاك دالخارى فوافقه على رأيه وولاه أرمينية وأذربيجان، وأتى أردبيل مستخفيا، فخرج معه قوم من الشراة منها باجروان فوجدوا بها قوما يرون

رأيهم فانضموا إليهم، فأتوا ورثان فصحبهم أهلها بشر كثير كانوا على مثل رأيهم، وعبروا إلى البيلقان فصحبتهم منهم جماعة كثيرة كانوا على مثل رأيهم، ثم نزل يونان، وولى مروان بن محمد، اسحاق بن مسلم أرمينية، فلم يزل يقاتل مسافرا وكان فى قلعة الكلاب بالسيسجان.

ثم لما جاءت الدولة المباركة، وولى أبو جعفر المنصور الجزيرة وأرمينية فى خلافة السفاح أبى العباس (رحمه الله) وجه إلى مسافر وأصحابه قائلا من أهل خراسان فقاتلهم حتى ظفر بهم وقتل مسافرا، وكان أهل البلقان متحصنين فى قلعة الكلاب ورئيسهم قدد بن أصفر البيلقانى فاستنزلوا بأمان.

ولما استخلف المنصور (رحمه الله) ولى يزيد بن أسيد السلمى الصنارية حتى أدوا الخراج فكتب إليه المنصور يأمره بمصاهرة ملك الخزر ففعل وولدت له ابنته منه إبنا فمات وماتت فى نفاسها وبعث يزيد إلى نفاطة أرض شروان وملاحاتها فجباها، ووكل به وبنى يزيد مدينة أرجيل الصغرى ومدينة أرجيل الكبرى، وأنزلهما أهل فلسطين.

حدثنى محمد بن إسماعيل عن جماعة من مشايخ أهل برذعة قالوا الشماخية التى فى عمل شروان نسبت إلى الشماخ بن شجاع، فكان ملك شروان فى ولاية سعيد بن سالم الباهلى أرمينية.

وحدثنى محمد بن إسماعيل عن المشيخة، أن أهل أرمينية، انتقضوا فى ولاية الحسن بن قحطبة الطائى بعد عزل ابن أسيد وبكار بن مسلم العقيلى، وكان رئيسهم موشاتيل الأرمنى، فبعث إليه المنصور (رحمه الله) الأمداد، وعليهم عامر بن إسماعيل فواقع الحسن موشائيل فقتل وفضت جموعه واستقامت له الأمور، وهو الذى نسب إليه نهرالحسن بالبيلقان، والباغ الذى يعرف بباغ الحسن ببرذعة والضياع المعروفة بالحسنية،

وولى بعد الحسن بن قحطبة عثمان بن عمارة بن خريم ثم روح ابن حاتم المهلبى ثم خزيمة بن خازم، ثم يزيد بن مزيد الشيبانى، ثم عبيدالله بن المهدى، ثم الفضل بن يحيى، ثم سعيد بن سالم، ثم محمد بن يزيد بن مزيد.

وكان خزيمة أشدهم ولاية، وهو الذي سن المساحة بدبيل والنشوى ولم يكن قبل ذلك، ولم يزل بطارقة أرمينية مقيمين فى بلادهم يحى كل واحد منهم ناحيته، فإذا قدم الثغر عامل من عماله داروه، فإن رأوا منه عفة وصرامة، وكان فى قوة وعدة أدوا إليه الخراج، واذعنوا له بالطاعة وإلا غمزوا فيه واستخفوا بأمره.

ووليهم خالد بن يزيد بن مزيد فى خلافة المأمون فقبل هداياهم، وخلطهم بنفسه فأفسدهم ذلك من فعله، وجرأهم على من بعده من عمال المأمون.

ثم ولى المعتصم بالله الحسن بن على الباذغيسى، المعروف بالمأمونى، الثغر، فأهمل بطارقته وأحراره ولأن لهم حتى ازدادوا فسادا على السلطان وكلبا على من يليهم من الرعية وغلب إسحاق بن إسماعيل بن شعيب مولى بنى أمية على جرزان.

ووثب سهل بن سنباط البطريق على عامل حيدر بن كاوس الأفشين على أرمينية فقتل كاتبه، وأفلت بحشاشة نفسه، ثم ولى أرمينية عمال كانوا يقبلون من أهلها العفو ويرضون من خراجها بالميسور.

ثم إن أمير المؤمنين المتوكل على الله، ولى يوسف بن محمد بن يوسف المروزى أرمينية لسنتين من خلافته، فلما صار بخلاط أخذ بطريقها بقراط بن أشوط فحمله إلى سر من رأى فأوحش البطارقة والأحرار والمتغلبة ذلك منه.

ثم انعمد عامل له يقال له العلاء بن أحمد إلى دير بالسيسجان يعرف بدير الأقداح، لم تزل نصارى أرمينية تعظمه وتهدى إليه، فأخذ منه جميع ما كان فيه

وعسف أهله فاكبرت البطارقة ذلك وأعظمته وتكاتبت فيه وحض بعضها على بعض الخلاف والنقض ودسوا إلى الخويبية، وهم علوج يعرفون بالأرطان، فى الوثوب بيوسف وحرضوهم عليه لما كان من حملة بقراط بطريقهم.

ووجه كل امرىء منهم ومن المتغلبة خيلا، ورجالا ليؤيدوهم على ذلك فوثبوا به بطرون، وقد فرق أصحابه فى القرى فقتلوه واحتووا علي ما كان فى عسكره، فولى أمير المؤمنين المتوكل على الله، بغا الكبير أرمينية، فلما صار إلى بدليس أخذ موسى بن زرارة.

وكان ممن هوى قتل يوسف وأعان عليه غضبا لبقراط، وحارب الخويثية، فقتل منهم مقتلة عظيمة وسبى سبيا كثيرا، ثم حاصر أشوط بن حمزة بن جاجق بطريق البفرجان وهو بالباق فاستنزله من قلعته وحمله إلى سر من رأى وسار إلى جرزان فظفر بإسحاق بن إسماعيل فقتله صبرا .

وفتح جرزان وحمل من بأران وظاهر أرمينية من بالسيسجان من أهل الخلاف والمعصية من النصارى وغيرهم حتى صلح ذلك الثغر صلاحا لم يكن على مثله ثم قدم سر من رأى فى سنة ٢٤١.

فتوح مصر والمغرب

قالوا: وكان عمر بن العاص حاصر قيسارية بعد انصراف الناس من حرب اليرموك، ثم استخلف عليها ابنه حين ولى يزيد بن أبى سفيان ومضى إلى مصر من تلقاء نفسه فى ثلاثة ألف وخمس مائة، فغضب عمر لذلك وكتب إليه يوبخه ويعنفه على افتتانه عليه برأيه وأمره بالرجوع إلى موضعه أن وافاه كتابه دون مصر فورد الكتاب عليه وهو بالعريش.

وقيل أيضا أن عمر كتب إلى عمرو بن العاص يأمره بالشخوص إلى مصر فوافاه كتابه وهو محاصر قيسارية، وكان الذى أتاه شريك بن عبدة فأعطاه ألف دينار فأبى شريك قبولها، فسأله أن يستر ذلك ولا يخبر به عمر.

قالوا: وكان مسير عمرو إلى مصر فى سنة ١٩ فنزل العريش ثم أتى القرماء، وبها قوم مستعدون للقتال فحاربهم فهزمهم وحوى عسكرهم ومضى قدما إلى الفسطاط فنزل جنان الريحان وقد خندق أهل الفسطاط، وكان اسم المدينة اليونة فسماها المسلمون فسطاطا لأنهم قالوا هذا فسطاط القوم ومجمعهم وقوم يقولون أن عمرا ضرب بها فطاطاً فسميت بذلك.

قالوا: ولم يلبث عمرو بن العاص وهو محاصر أهل الفسطاط أن ورد عليه الزبير بن العوام بن خويلد فى عشرة ألف، ويقال فى اثنى عشر ألفاً، فيهم خارجة بن حذافة العدوى، وعمير بن وهب الجمحى، وكان الزبير قد هم بالغزو وأراد أتيان أنطاكية فقال له عمر : يا أبا عبد الله هل لك فى ولاية مصر فقال لا حاجة لى فيها،

ولكى أخرج مجاهداً وللمسلمين معاونا، فإن وجدت عمراً قد فتحها لم أعرض لعمله وقصدت إلى بعض السواحل فرابطت به وإن وجدته فى جهاد كنت معه فسار على ذلك.

قالوا: وكان الزبير يقاتل من وجه، وعمرو بن العاص من وجه، ثم أن الزبير اتى بسلم فصعد عليه حتى أوفى على الحصن، وهو مجرد سيفه فكبر وكبر المسلمون واتبعوه، ففتح الحصن عنوة واستباح المسلمون ما فيه وأقر عمرو أهله على أنهم أهل ذمة ووضع عليهم الجزية فى رقابهم والخراج فى أرضهم، وكتب بذلك إلى عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- فأجازه، واختط الزبير بمصر وابتنى داراً معروفة وإياها نزل عبد الله بن الزبير حين غزا افريقية مع ابن أبى سرح وسلم الزبير باق فى مصر.

وحدثنا عفان بن مسلم قال حدثنا حماد بن سلمة، عن هشام بن عروة أن الزبير بن العوام بعث إلى مصر فقيل له أن بها الطعن والطاعون فقال إنما جئنا للطعن والطاعون قال فوضعوا السلالم فصعدوا عليها.

وحدثنى عمرو الناقد قال : حدثنى عبد الله بن وهب المصرى، عن ابن لهيعة، عن يزيد بن أبى حبيب، أن عمرو بن العاص دخل مصر ومعه ثلاثة ألف وخمس مائة، وكان عمر بن الخطاب قد أشفق لما أخبر به من أمرها، فأرسل الزبير بن العوام فى اثنى عشر ألفا، فشهد الزبير فتح مصر واتخط بها.

وحدثنى عمرو الناقد عن عبد الله بن وهب المصرى عن ابن لهيعة عن يزيد بن أبى حبيب، عن عبد الله بن المغيرة بن أبى بردة عن سفيان بن وهب الخولانى، قال: لما فتحنا مصر بغير عهد قام الزبير فقال اقسمها يا عمرو فأبى فقال الزبير: والله لتقسمنها كما قسم رسول الله ﷺ خيبر، فكتب عمرو إلى عمر فى ذلك فكتب إليه عمر اقرها حتى يغزو منها حبل الحبلة. قال وقال عبد الله بن وهب، وحدثنى ابن لعيهة عن خالد بن ميمون، عن عبد الله بن المغيرة، عن سفيان بن وهب بنحوه.

وحدثنى القاسم بن سلام قال : حدثنا أبو الأسود عن ابن لهيعة، عن يزيد بن أبى حبيب، أن عمرو بن العاص دخل مصر فى ثلاثة ألف وخمس مائة،

وكان عمر قد أشفق من ذلك، فأرسل الزبير بن العوام فى اثنى عشر ألفا، فشهد معه فتح مصر، قال : فاختلط الزبير بمصر والاسكندرية خطتين.

وحدثنى إبراهيم بن مسلم الخوارزمى، عن عبد الله بن المبارك عن ابن لهيعة، عن يزيد بن أبى حبيب، عن أبى فراس، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال اشتبه على الناس أمر مصر فقال قوم فتحت عنوة، وقال آخرون فتحت صلحا، والثلج فى أمرها أن أبي قدمها فقاتله أهل اليونة ففتحها قهرا وأدخلها المسلمين.

وكان الزبير أول من علا حصنها فقال صاحبها لأبى أنه قد بلغنتا فعلكم بالشام، ووضعكم الجزية علي النصارى، واليهود وإقراركم الأرض فى أيدى أهلها، يعمرونه ويؤدون خراجها، فان فعلتم بنا مثل ذلك كان أرد عليكم من قتلنا وسبيناوإجلائنا.

قال : فاستشار أبى المسلمين فأشاروا عليه بأن يفعل ذلك إلا نفر منهم سألوا أن يقسم الأرض بينهم، فوضع على كل حالم دينارين جزية، إلا أن يكون فقيرا، وألزم كل ذى أرض مع الدينارين ثلاثة أرادب حنطة، وقسطى زيت، وقسطى عسل، وقسطى خل رزقا للمسلمين تجمع فى دار الرزق وتقسم فيهم وأحصى المسلمون فالزم جميع أهل مصر لكل رجل منهم جبة صوف وبرنسا أو عمامة وسراويل وخفين فى كل عام، أو عدل الجبة الصوف ثوبا قبطيا، وكتب عليهم بذلك كتابا، وشرط لهم إذا وفوا بذلك أن لا تباع نساؤهم وأبناؤهم ولا يسبوا وأن تقر أموالهم وكنوزهم فى أيديهم فكتب بذلك إلى أمير المؤمنين عمر فأجازه.

وصارت الأرض أرض خراج، إلا أنه لما وقع هذا الشرط والكتاب ظن بعض الناس أنها فتحت صلحا. قال ولما فرغ ملك البونة من أمر نفسه ومن معه فى مدينته صالح عن جميع أهل مصر على مثل صلح أليونة، فرضوا به.

وقالوا: هؤلاء الممتنعون قد رضوا وقنعوا بهذا فنحن به أقنع لأننا فرش لا منعة لنا، ووضع الخراج على أرض مصر فجعل على كل جريب ديناراً وثلاثة أرادب طعاماً، وعلى رأس كل حالم دينارين، وكتب بذلك إلى عمر بن الخطاب – رضى الله عنه–.

وحدثنى عمرو الناقد، عن عبد الله بن وهب المصرى، عن الليث، عن يزيد بن أبى حبيب أن المقوقس صالح عمرو بن العاص على أن يسير من الروم من أراد ويقر من أراد الإقامة من الروم على أمر سماه، وأن يفرض على القبط دينارين فبلغ ذلك ملك الروم فتسخطه وبعث الجيوش فأغلقوا باب الاسكندرية وآذنوا عمر بالحرب.

فخرج إليه المقوقس فقال : أسألك ثلاثا أن لا تبذل للروم مثل الذى بذلت لى، فأنهم قد استغشونى، وإن لا تنقض بالقبط فإن النقض لم يأت من قبلهم، وإن مت فمر بدفنى فى كنيسة بالاسكندرية ذكرها، فقال عمرو هذه اهونهن على.

وكانت قرى من مصر قاتلت فسبى منهم، والقرى بلهيت والخيس وسلطيس فوقع سباؤهم بالمدينة، فردهم عمر بن الخطاب وصيرهم وجماعة القبط أهل ذمة، وكان لهم عهد لم ينقضوه، وكتب عمرو بفتح الاسكندرية إلى عمر.

أما بعد فان الله قد فتح علينا الاسكندرية عنوة قسرا بغير عهد ولا عقد وهى كلها صلح فى قول يزيد بن أبى حبيب.

حدثنى أبو أيوب الرقى، عن عبد الغفار، عن ابن لهيعة، عن يزيد بن أبى حبيب قال : جبى عمرو خراج مصر وجزيتها ألفى ألف، وجباها عبد الله بن سعد بن أبى سرح أربعة ألف ألف، فقال عثمان لعمرو أن اللقاح بمصر بعدك

قد درت ألبانها، قال : ذاك لأنكم أعجفتم أولادها . قال : وكتب عمر بن الخطاب في سنة ٢١ إلى عمرو بن العاص يعلمه ما فيه أهل المدينة من الجهد، ويأمره أن يحمل ما يقبض من الطعام في الخراج، إلى المدينة في البحر فكان ذلك يحمل ويحمل معه الزيت، فإذا ورد الجار تولى قبضه سعد الجار، ثم جعل في دار بالمدينة، وقسم بين الناس بمكيال، فانقطع ذلك في الفتنة الأولى، ثم حمل في أيام معاوية ويزيد، ثم انقطع إلى زمن عبد الملك بن مروان ثم لم يزل يحمل إلى خلافة أبي جعفر وقبيلها .

وحدثني بكر بن الهيثم قال حدثني أبو صالح عبد الله بن صالح، عن الليث بن سعد، عنو يزيد بن أبي حبيب أن أهل الجزية بمصر صولحوا في خلافة عمر بعد الصلح الأول مكان الحنطة والزيت والعسل والخل على دينارين دينارين فألزم كل رجل أربعة دنانير فرضوا بذلك وأحبوه.

وحدثني أبو أيوب الرقي قال : حدثني عبد الغفار الحراني عن ابن لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب عن الجيشاني، قال سمعت جماعة ممن شهد فتح مصر يخبرون أن عمرو بن العاص لما فتح الفسطاط، وجه عبد الله بن حذافة السهمي إلى عين شمس، فغلب على أرضها وصالح أهل قراها على مثل حكم الفسطاط، ووجه خارجة بن حذافة العدوي إلى الفيوم والأشمونين وإخميم والبشرودات وقرى الصعيد ففعل مثل ذلك.

ووجه عمير بن وهب الجمحي إلى تنيس ودمياط وتونة ودميرة وشطا ودقهلة وبنا وبوصير، ففعل مثل ذلك ووجه عقبة بن عامر الجهني ويقال وردان مولاه صاحب سوق وردان بمصر إلى سائر قرى أسفل الأرض ففعل مثل ذلك، فاستجمع عمرو بن العاص فتح مصر فصارت أرضها أرض خراج.

وحدثنا القاسم بن سلام قال حدثنا عبد الغفار الحراني عن ابن لهيعة عن

إبراهيم بن محمد، عن أيوب بن أبى العالية عن أبيه قال سمعت عمرو بن العاص يقول على المنبر لقد قعدت مقعدى هذا وما لأحد من قبط مصر على عهد ولا عقد، إن شئت قتلت، وإن شئت خمست، وإن شئت بعت، إلا أهل أنطابلس فان لهم عهدا يوفى لهم به.

وحدثنى القاسم بن سلم قال حدثى به عبد الله بن صالح، عن موسى بن على بن رباح اللخمى، عن أبيه قال المغرب كله عنوة.

حدثنا أبو عبيد عن سعيد بن أبى مريم عن ابن لهيعة عن الصلت ابن أبى عاصم كاتب حيان بن شريح أنه قرأ كتاب عمر بن عبد العزيز إلى حيان، وكان عامله على مصر أن مصر فتحت عنوة بغير عهد ولا عقد.

وحدثنى أبو عبيدة قال حدثنا سعيد بن أبى مريم، عن يحيى بن أيوب، عن عبيد الله بن أبى جعفر قال كتب معاوية إلى وردان مولى عمرو أن زد على كل امرىء من القبط قيراطا، فكتب إليه كيف أزيد عليهم وفى عهدهم أن لا يزاد عليهم.

وحدثنى محمد بن مسعد، عن الواقدى، عن عبد الحميد بن جعفر، عن أبيه، قال: سمعت عروة بن الزبير يقول : أقمت بمصر سبع سنين، وتزوجت بها فرأيت أهلها مجاهيد، قد حمل عليهم فوق طاقتهم، وإنما فتحها عمرو بصلح وعهد وشىء مفروض عليهم.

وحدثنى بكر بن الهيثم، عن عبد الله بن صالح، عن الليث بن سعد، عن يزيد بن أبى علاقة، عن عقبة بن عامر الجهنى قال : كان لأهل مصر عهد وعقد كتب لهم عمرو أنهم آمنون على أموالهم ودمائهم ونسائهم وأولادهم، لا يباع منهم أحد، وفرض عليهم خراجاً لا يزاد عليهم، وأن يدفع عنهم خوف عدوهم قال عقبة، وأنا شاهد على ذلك.

وحدثنى الحسين بن الأسود، قال حدثنى يحيى بن آدم، عن عبد الله بن المبارك، عن ابن لهيعة، عن يزيد بن أبى حبيب، عن من سمع عبد الله بن المغيرة بن أبى بردة قال : سمعت سفيان بن وهب الخولانى يقول : لما افتتحنا مصر بلا عهد قام الزبير بن العوام فقال : يا عمرو اقسمها بيننا، فقال عمرو لا والله لا أقسمها حتى أحتب إلى عمر، فكتب إلى عمر، فكتب إليه فى جواب كتابه أن أقرها حتى يغزو منها حبل الجبلة (أو قال يغدو).

وحدثنى محمد بن سعد، عن الواقدى محمد بن عمر عن أسامة بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن جده، قال : فتح عمرو بن العاص مصر سنة ٢٠ ومعه الزبير، فلما فتحها صالحه أهل البلد على وظيفة وظفها عليهم، وهى ديناران على كل رجل، وأخرج النساء والصبيان من ذلك فبلغ خراج مصر فى ولايته ألفى ألف دينار، فكان بعد ذلك يبلغ أربعة ألف ألف دينار.

وحدثنى أبو عبيد قال : حدثنا عبد الله بن صالح عن الليث عن يزيد بن أبى حبيب، أن المقوقس صاحب مصر صالح عمرو ابن العاص، على أن فرض على القبط دينارين، فبلغ ذلك هرقل صاحب الروم، فسخط أشد السخط، وبعث الجيوش إلى الاسكندرية وأغلقها، ففتحها عمرو بن العاص عنوة.

وحدثنى ابن الفتات وهو أبو مسعود، عن الهيثم عن المجالد، عن الشعبى أن على بن الحسين أو الحسينى نفسه كلم معاوية فى جزية أهل قرية أم إبراهيم بن رسول الله ﷺ بمصر فوضعها عنهم، وكان النبى ﷺ يوصى بالقبطخيرا.

وحدثنى عمرو عن عبد الله بن وهب، عن مالك والليث، عن الزهرى، عن ابن لكعب بن مالك أن النبى ﷺ قال : «إذا فتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيراً فان لهم ذمة ورحماً، وقال الليث كانت أم إسماعيل منهم.

حدثني أبو الحسن المدائني عن عبد الله بن المبارك قال كان عمر بن الخطاب يكتب أموال عماله إذا ولاهم، ثم يقاسمهم ما زاد على ذلك، وربما أخذه منهم، فكتب إلى عمرو بن العاص أن قد فشت لك فاشية من متاع ورقيق وآنية وحيوان لم يكن حين وليت مصر، فكتب إليه عمرو أن أرضنا أرض مزدرع ومتجر فنحن نصيب فضلا عن ما نحتاج إليه لنفقتنا، فكتب إليه أني قد خبرت من عمال السوء ما كفى، وكتابك إلى كتاب من قد أقلقه الأخذ بالحق، وقد سؤت بك ظنا، وقد وجهت إليك محمد بن مسلمة ليقاسمك مالك، فاطلعه طلعة وأخرج إليه ما يطالبك، وأعفه من الغلظة عليك، فانه برح الخفاء فقاسم ماله.

حدثني المدائني، عن عيسى بن يزيد قال : لما قاسم محمد بن مسلمة عمرو بن العاص، قال عمرو أن زمانا عاملنا فيه ابن حنتمة هذه المعاملة لزمان سوء، لقد كان العاص يلبس الخز بكفاف الديباج، فقال محمد مه[1] لولا زمان ابن خنتمة، هذا الذي تكرهه ألقيت معتقلا عنزا بفناء بيتك يسرك غزرها، ويسوءك بكوءها، قال انشدك الله أن لا تخبر عمر بقولي فان المجالس بالأمانة، فقال لا أذكر شيئاً مما جرى بيننا وعمر حي.

وحدثني عمرو الناقد، عن عبد الله بن وهب، عن ابن لهيعة، عن عبد الله بن هبيرة أن مصر فتحت عنوة، وحدثني عمرو، عن ابن وهب، عن ابن لهيعة، عن ابن أنعم عن أبيه، عن جده وكان ممن شهد فتح مصر، قال فتحت مصر عنوة بغير عهد ولا عقد.

---

(١) مه : اسكت .

فتح الإسكندرية

قالوا: لما افتتح عمرو بن العاص مصر أقام بها، ثم كتب إلى عمر بن الخطاب يستأمره فى الزحف إلى الإسكندرية، فكتب إليه يأمره بذلك،

فسار إليها فى سنة ٢١، واستخلف على مصر خارجة بن حذافة بن غانم بن عامر بن عبد الله بن عبيد بن عويج بن عدى بن كعب بن لؤى بن غالب، وكان من دون الاسكندرية من الروم والقبط قد تجمعوا له وقالوا نغزوه بالفسطاط قبل أن يبلغنا، ويروم الاسكندرية، فلقيهم بالكريون فهزمهم وقتل منهم مقتلة عظيمة.

وكان فيهم من أهل سخا وبلهيت والخيس وسلطيس وغيرهم قوم رفدوهم وأعانوهم، ثم سار عمرو حتى انتهى إلى الاسكندرية، فوجد أهلها معدين لقتاله، إلا أن القبط فى ذلك يحبون الموادعة فأرسل إليه المقوقس يسأله الصلح والمهادنة إلى مدة، فأبى عمرو ذلك، فأمر المقوقس النساء أن يقمن على سور المدينة مقبلات بوجوههن إلى داخله، وأقام الرجال فى السلاح مقبلى بوجوههم إلى المسلمين ليرهبهم بذلك.

فأرسل إليه عمرو أنا قد رأينا ما صنعت وما بالكثرة غلبنا من غلبنا، فقد لقينا هرقل ملككم، فكان من أمره ما كان. فقال المقوقس لأصحابه قد صدق هؤلاء القوم، أخرجوا ملكنا من دار مملكته حتى أدخلوه القسطنطنية، فنحن أولى بالأذعان، فأغلظوا له القول وأبوا إلا المحاربة، فقاتلهم المسلمون قتالا شديداً، وحصورهم ثلاثة أشهر.

ثم إن عمرا فتحها بالسيف، وغنم ما فيها، واستبى أهلها ولم يقتل، ولم يسب، وجعلهم ذمة كأهل اليونة، فكتب إلى عمر بالفتح مع معاوية بن حديج الكندى، ثم السكونى، وبعث إليه معه بالحسن.

ويقال أن المقوقس صالح عمراً على ثلاثة عشر ألف دينار، على أن يخرج من الاسكندرية من أراد الخروج، ويقيم بها من أحب المقام، وعلى أن يفرض على كل حالم من القبط دينارين، فكتب لهم بذلك كتابا، ثم أن عمرو بن العاص استخلف على الاسكندرية عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدى بن سعد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤى فى رابطة من المسلمين، وانصرف إلى الفسطاط.

وكتب الروم إلى قسطنطين، بن هرقل، وهو كان الملك يومئذ يخبرونه بقلة من عندهم من المسلمين وبما هم فيه من الذلة، وأداء الجزية، فبعث رجلا من أصحابه يقال له منويل فى ثلاثمائة مركب مشحونة بالمقاتلة.

فدخل الاسكندرية وقتل من بها من روابط المسلمين إلا من لطف للهرب فنجا وذلك فى سنة ٣٥، وبلغ عمراً الخبر فسار إليهم فى خمسة عشر ألفا، فوجد مقاتلتهم قد خرجوا يعيثون فيما يلى الاسكندرية من قرى مصر، فلقيهم المسلمون فرشقوهم بالنشاب ساعة، والمسلمون منترسون، ثم صدقوهم الحملة فالتحمت بينهم الحرب فاقتتلوا قتالا شديداً.

ثم أن أولئك الكفرة ولوا منهزمين، فلم يكن لهم ناهياً ولا عرجة دون الاسكندرية فتحصنوا بها ونصبوا العرادات فقاتلهم عمرو عليها أشد قتال، ونصب المجانيق فأخذت جدرها، والح بالحرب حتى دخلها بالسيف عنوة فقتل المقاتلة وسبى الذرية وهرب بعض رومها إلى الروم.

وقتل عدو الله منويل، وهدم عمرو والمسلمون جدار الاسكندرية، وكان عمرو نذر لئن فتحها ليفعلن ذلك. وقال بعض الرواة إن هذه الغزاة كانت فى سنة ٢٣، وروى بعضهم أنهم نقضوا فى سنة ٢٣، وسنة ٢٥ والله أعلم.

قالوا: ووضع عمرو على أرض الاسكندرية الخراج، وعلى أهلها الجزية،

وروى أن المقوقس اعتزل أهل الاسكندرية حين نقضوا فأقره عمرو ومن معه على أمرهم الأول، وروى أيضا أنه قد كان مات قبل هذه الغزاة.

حدثنى محمد بن سعد، عن الواقدى، عن إسحاق بن عبد الله بن أبى قروة، عن حيان بن شريح، عن عمر بن عبد العزيز -رضى الله عنه- أنه قال لم نفتح قرية من المغرب على صلح إلا ثلاثاً : الاسكندرية، وكفرطيس، وسلطيس، فكان عمر يقول من أسلم من أهله هذه المواضع خلى سبيله وسبيل ماله.

حدثنى عمرو الناقد قد حدثنا ابن وهب المصرى، عن ابن لهيعة، عن يزيد بن أبى حبيب، أنه قال افتتح عمرو بن العاص الاسكندرية فسكنها المسلمون فى رباطهم، ثم غزوا وابتدروا إلى المنازل، فكان الرجل يأتى المنزل الذى كان ينزله فيجد صاحبه قد نزله وبدر إليه، فقال عمرو : إنى أخاف أن تخرب المنازل إذا كنتم تتعاورونها، فلما غزا فصاروا عند الكريون، قال لهم سيروا على بركة الله، فمن ركز منكم رمحاً فى دار فهى له ولبنى أبيه.

فكان الرجل يدخل الدار فيركز رمحه فى بعض بيوتها، ويأتى الآخر فيركز رمحه كذلك أيضا، فكانت الدار بين النفسين والثلاثة، فكانوا يسكنونها فاذا قفلوا سكنها الروم، فكان يزيد بن أبى حبيب يقول لا يحل لأحد شىء من كرائها، ولا تباع ولا تورث إنما كانت لهم سكنى أيام رباطهم.

فلما كان قتالها الآخر وقدمها منويل الرومى الخصى، أغلقها أهلها ففتحها عمرو وأخرب سورها. قالوا: ولما ولى عمر وردان مولاه الاسكندرية ورجع إلى الفسطاط فلم يلبث إلا قليلا حتى أتاه عزله فولى عثمان بعده، عبد الله بن لؤى، وكان أخا عثمان من الرضاعة ، وكانت ولايته فى سنة ٢٥.

ويقال : إن عبد الله بن سعد، كان على خراج مصر من قبل عثمان، فجرى بينه وبين عمرو كلام، فكتب عبد الله يشكو عمراً فعزله عثمان وجمع

العملين لعبد الله بن سعد، وكتب إليه يعلمه أن الاسكندرية فتحت مرة عنوة وانتقضت مرتين، ويأمره أن يلزمها رابطة لا تفارقها وان يدر عليهم الأرزاق ويعقب بينهم فى كل ستة أشهر.

وحدثنى محمد بن سعد عن الواقد ى أن ابن هرمز الأعرج القارئ كان يقول خير سواحلكم رباطا الاسكندرية، فخرج إليها من المدينة مرابطا فمات بها سنة ١١٧.

وحدثنى بكر بن الهيثم، عن عبد الله بن صالح، عن موسى بن على، عن أبيه قال: كانت جزية الاسكندرية ثمانية عشر ألف دينار فلما كانت ولاية هشام بن عبد الملك بلغت ستة وثلاثين ألف دينار.

حدثنى عمرو، عن ابن وهب، عن ابن لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب قال : كان عثمان عزل عمرو بن العاص عن مصر، وجعل عليها عبد الله بن سعد، فلما نزلت الروم الاسكندرية سأل أهل مصر عثمان أن يقر عمراً حتى يفرغ من قتال الروم لأن له معرفة بالحرب وهيبة فى أنفس العدو ففعل حتى هزمهم، فأراد عثمان أن يجعل عمرا على الحرب، وعبد الله على الخراج فأبى ذلك عمرو وقال أنا كماسك قرنى البقرة، والأمير يحلبها فولى عثمان بن سعد مصر، ثم أقامت الحبش من البيما بعد فتح مصر يقاتلون سبع سنين ما يقدر عليهم لما يفجرون من المياه فى الغياض، قال عبد الله بن وهب، وأخبرنى الليث بن سعد، عن موسى بن على، عن أبيه أن عمرا فتح الاسكندرية الفتح الآخر عنوة في خلافة عثمان بعد وفاة عمر - رضى الله عنه-.

فتح برقة وزويلة (١)

حدثنى محمد بن سعد، عن الواقدى، عن شرحبيل بن أبى عون، عن عبد الله بن هبيرة قال لما فتح عمرو بن العاص الاسكندرية سار فى جنده يريد المغرب حتى قدم برقة، وهى مدينة انطابلس، فصالح أهلها على الجزية وهى ثلاثة عشر ألف دينار يبيعون فيها من أبنائهم من أحبوا بيعه.

حدثنى بكر بن الهيثم، قال حدثنا عبد الله بن هبيرة قال : صالح عمرو بن العاص أهل انطابلس ومدينتها برقة وهى بن مصر وافريقية بعد أن حاصرهم وقاتلهم على الجزية، على أن يبيعوا من أبنائهم من أرادوا فى جزيتهم، وكتب لهم بذلك كتاباً.

حدثنى محمد بن سعد، عن الواقدي، عن مسلمة بن سعيد عن إسحق بن عبد الله بن أبى فروة قال : كان أهل برقة يبعثون بخراجهم إلى والى مصر من غير أن يأتيهم حاث أو مستحث فكانوا أخصب قوم بالمغرب، ولم يدخلها فتنة. قال الواقدى وكان عبد الله بن عمرو بن العاص يقول : لولا مالى بالحجاز لنزلت برقة فما أعلم منزلا أسلم ولا أعزل منها.

وحدثنى بكر بن الهيثم، قال حدثنا عبد الله بن صالح عن معاوية ابن صالح قال: كتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب يعلمه أنه قد ولى عقبة بن نافع الفهرى المغرب، فبلغ زويلة، وإن من بين زويلة وبرقة سلم كلهم أحسنة طاعتهم قد أدى مسلمهم الصدقة وأقر معاهدهم بالجزية، وأنه قد وضع على أهل زويلة ومن بينه وبينها ما رأى أنهم يطيقونه، وأمر عماله جميعا أن يأخذوا الصدقة من الأغنياء فيردوها فى الفقراء، ويأخذوا الجزية من أهل الذمة فتحمل إليه بمصر، وأن يؤخذ من أرض المسلمين العشر ونصف العشر، ومن أهل الصلح صلحهم.

(١) فتوح البلدان للبلاذرى .

وحدثنى بكر بن الهيثم قال سألت عبد الله بن صالح عن البربر فقال هم يزعمون أنهم ولد بر بن قيس وما جعل الله لقيس ولدا يقال له بر، وأنما هم من الجبارين الذى قاتلهم داود - عليه السلام- وكان منازلهم على أيادى الدهر فلسطين، وهم أهل عمود، فأتوا المغرب فتناسلوا به، حدثنا أبو عبيد القاسم بن سلام قال حدثنا عبد الله بن صالح عن الليث ابن سعد عن يزيد بن أى حبيب أن عمرو بن العاص كتب فى شرطه على أهل لواتة من البربر من أهل برقة، أن عليكم أن تبيعوا أبناءكم ونساءكم فيما عليكم من الجزية، قال الليث فلو كانوا عبيدا ما حل ذلك منهم.

وحدثنى بكر بن الهيثم، قال حدثنا عبد الله بن صالح عن ابن لهيعة، عن يزيد بن أبى حبيب أن عمرو بن عبد العزيز كتب فى اللواتيات أن من كانت عنده لواتية فليخطبها إلى أبيها أو فليردها إلى أهلها، قال ولواتة قرية من البربر كان لهم عهد.

فتح طرابلس

فحدثني بكر بن الهيثم عن عبد الله بن صالح، عن معاوية بن صالح عن على بن أبى طلحة، قال سار عمرو بن العاص حتى نزل أطرابلس فى سنة ٢٢ فقوتل ثم افتتحها عنوة، وأصاب بها أحمال بزيون كثيرة مع تجار من تجارها فباعه وقسم ثمنه بين المسلمين، وكتب إلى عمر بن الخطاب أنا قد بلغنا اطرابلس، وبينها وبين افريقية تسعة أيام فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لنا فى غزوها فعل. فكتب إليه ينهاه عنها ويقول ما هى بإفريقية ولكنها مفرقة غادرة مغدور بهاوذلك أن أهلها كانوا يؤدون إلى ملك الروم شيئا فكانوا يغدرون به كثيرا، وكان ملك الأندلس صالحهم، ثم غدر بهم وكان خبرهم قد بلغ عمر.

حدثنى عمرو والناقد قال حدثنا عبد الله بن وهب، عن الليث ابن سعد قال حدثنى مشيختنا أن اطرابلس فتحت بعهد من عمرو بن العاص.

فتح إفريقية

قالوا : لما ولى عبد الله بن سعد بن أبى سرح مصر والمغرب، بعث المسلمين فى جرائد خيل فأصابوا من أطراف افريقية وغنموا وكان عثمان بن عفان -رضى الله عنه- متوقفا عن غزوها، ثم أنه عزم على ذلك بعد أن استشار فيه، وكتب إلى عبد الله فى سنة ٢٧، ويقال فى سنة ٢٨، ويقال فى سنة ٢٩، يأمره بغزوها وأمده بجيش عظيم فيه معبد بن العباس بن عبدالمطلب، ومروان بن الحكم بن أبى العاصى بن أمية، والحارث بن الحكم وأخوه، وعبدالله بن الزبير بن العوام، والمسور بن مخرمة بن نوفل بن أهيب بن عبدمناف بن زهرة بن كلاب، وعبدالرحمن بن زيد بن الخطاب، وعبدالله بن عمر بن الخطاب، وعاصم بن عمر وعبيدالله بن عمر، وعبدالرحمن بن أبى بكر، وعبدالله بن عمرو بن العاصى، ويسر بن أبى أرطاة بن عُويمر العامرى وأبو ذؤيب خويلد بن خالد الهذلى الشاعر وبها توفى فقام بأمره ابن الزبير حتى واراه فى لحده، وخرج فى هذه الغزاة ممن حول المدينة من العرب خلق كثير.

حدثنى محمد بن سعد، عن الواقدى، عن أسامة بن زيد بن أسلم، عن نافع مولى آل الزبير، عن عبدالله بن الزبير قال : أغزانا عثمان بن عفان إفريقية، وكان بها بطريق سلانة من أطرابلس إلى طنجة، فسار عبدالله بن سعد بن أبى سرح حتى حل بعقوبة فقاتله أياما فقتله الله، وكنت أنا الذى قتلته، وهرب جيشه فتمزقوا وبث ابن أبى سرح السرايا ففرقها فى البلاد فأصابوا غنائم كثيرة، واستاقوا من المواشى ما قدروا عليه، فلما رأى ذلك عظماء إفريقية اجتمعوا فطلبوا إلى عبدالله بن سعد أن يأخذ منهم ثلاثمائة قنطار من ذهب على أن يكف عنهم ويخرج من بلادهم فقبل ذلك.

وحدثنى محمد بن سعد، عن الواقدى، عن أسامة بن زيد الليثى، عن ابن

كعب أن عبد الله بن سعد بن أبى سرح صالح بطريق افريقية على ألفى دينار وخمسمائة ألف دينار.

وحدثنى محمد بن سعد، عن الواقدى، عن موسى بن ضمرة المازنى، عن أبيه قال : لما صالح عبد الله بن سعد بطريق إفريقية رجع إلى مصر ولم يول على إفريقية أحداً، ولم يكن لها يومئذ قيروان ولا مصر جامع، قال : فلما قتل عثمان، وولى أمر مصر محمد بن أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة لم يوجه إليها أحداً، فلما ولى معاوية بن أبى سفيان، ولى معاوية بن خُديج السكونى مصر فبعث فى سنة ٦٩ عقبة بن نافع بن عبد قيس ابن لقيط الفهرى فغزاها واختطها، قالوا: ووجه عقبة بُسر بن أبى أرطأة إلى قلعة من القيروان فافتتحها وقتل وسبى، وهى اليوم تعرف بقلعة بُسر، وهى بالقرب من مدينة تدعى مجانة عند معدن الفضة، وقد سمعت من يذكر أن موسى بن نُصير وجه بُسرا، وبُسر ابن ٨٢ سنة إلى هذه القلعة فافتتحها، وكان مولد بُسر قبل وفاة النبى ﷺ بسنتين، وغير الواقدى يزعم أنه قد روى عن النبى ﷺ والله أعلم.

وقال الواقدى : ولم يزل عبد الله بن سعد واليا حتى غلب محمد بن أبى حذيفة على مصر، وهو كان انغلها على عثمان، ثم أن عليا -رضى الله عنه- ولى قيس بن سعد بن عُبادة الأنصارى مصر ثم عزله، واستعمل عليها محمد بن أبى بكر الصديق، ثم عزله وولى مالكا الأشتر، فاعتل بالقلزم،

ثم ولى محمد بن أبى بكر ثانية ورده عليها، فقتله معاوية بن خُديج، وأحرقه فى جوف حمار.

وكان الوالى عمرو بن العاصى من قبل معاوية بن أبى سفيان، فمات عمرو بمصر يوم الفطر سنة ٤٢، ويقال : سنة ٤٣، وولى عبد الله بن عمرو ابنه بعده.

ثم عزله معاوية، وولى معاوية خُديج فأقام بها ٤ سنين، ثم غزا فغنم، ثم قدم مصر فوجه عُقبة بن نافع بن قيس الفهرى، ويقال : بل ولاه معاوية المغرب فغزا إفريقية فى عشرة ألف من المسلمين، فافتتح إفريقية واختط قيروانا وكان موضع غيضة ذات طرفاء وشجر، لا يرام من السباع والحيات والعقارب القتالة، وكان ابن نافع رجلا صالحا مستجاب الدعوة فدعا ربه، فأذهب ذلك كله حتى أن كانت السباع لتحمل أولادها هاربة بها.

وقال الواقدى قلت لموسى بن علىّ، رأيت بناء إفريقية المتصل المجتمع الذى نراه اليوم من بناه؟ فقال : أول من بناها عُقبة بن نافع الفهرى اختطها ثم بنى وبنى الناس معه الدور والمساكن، وبنى المسجد الجامع بها. قال وبإفريقية استشهد معبد بن العباس - رحمه الله- في غزاة بن أبى سرح فى خلافة عثمان، ويقال بل مات فى أيام القتال، واستشهاده أثبت.

وقال الواقدى وغيره، عزل معاوية بن أبي سفيان معاوية بن حُديج وولى مصر والمغرب مسلمة بن مخلد الأنصارى، فولى المغرب أبا المهاجر مولاه، فلما ولى يزيد بن معاوية رد عقبة بن نافع على عمله فغزا السوس الأدنى، وهو خلف طنجه، وجول فيما هناك لا يعرض له أحد ولا يقاتله، فانصرف، ومات يزيد بن معاوية، وبويع لابنه معاوية بن يزيد، وهو أبو ليلى فنادى الصلاة جامعة، ثم تبرأ من الخلافة وجلس فى بيته ومات بعد شهرين.

ثم كانت ولاية مروان بن الحكم وفتنة ابن الزبير، ثم ولى عبد الملك بن مروان، فاستقام له الناس فاستعمل أخاه عبد العزيز على مصر، فولى إفريقية زهير بن قيس البلوى، ففتح تونس ثم انصرف إلى برقة، فبلغه أن جماعة من الروم خرجوا من مراكب لهم فعاثوا، فتوجه إليهم فى جريدة خيل فلقيهم فاستشهد ومن معه فقبره هناك، وقبورهم تدعى قبور الشهداء.

ثم ولى حسان بن النعمان الغسانى، فغزا ملكة البربر الكاهنة، فهزمته فأتى قصورا فى حيز برقة فنزلها، وهى قصور يضمها قصر سقوفه أزاج فسميت قصور حسان ثم أن حسان غزاها ثانية فقتلها وسبى سبيا من البربر وبعث به إلى عبد العزيز، فكان أبو محجن نُصيب الشاعر يقول : لقد حضرت عند عبد العزيز سبيا من البربر، ما رأيت قط وجوها أحسن من وجوههم.

قال ابن الكلبى ولى هشام كلثوم بن عياض بن وحوح القشيرى إفريقية، فانتقض أهلها عليه فقتل بها، وقال ابن الكلبى كان إفريقيس بن قيس ابن صيفى الحميرى غلب على إفريقية فى الجاهلية، فسميت به، وهو قتل جُرجير ملكها فقال للبرارة، ما أكثر بربرة هؤلاء، فسموا البرابرة.

وحدثنى جماعة من أهل إفريقية عن أشياخهم أن عقبة بن نافع الفهرى لما أراد تمصير القيروان فكر فى موضع المسجد منه فأرى فى منامه كأن رجلا أذن فى الموضع الذى جعل فيه مئذنته، فلما أصبح بنى المنابر فى موقف الرجل ثم بنى المسجد، وحدثنى محمد بن سعد، عن الواقدى قال : ولى محمد بن الأشعث الخزاعى إفريقية من قبل أبى العباس أمير المؤمنين فرم مدينة القيروان ومسجدها، ثم عزله المنصور وولى عمر بن حفص هزار مرد مكانه.

فتح طنجة

قال الواقدى : وجه عبد العزيز بن مروان موسى بن نُصير مولى بنى أمية، وأصله من عين التمر، ويقال بل هو من أراسة من بلّى ويقال هو من لخم ولياً على إفريقية، ويقال بل وليها فى زمن الوليد بن عبدالملك سنة ٨٩ ففتح طنجة ونزلها، وهو أول من نزلها واختط فيها للمسلمين، وانتهت خيله إلى السوس الأدنى وبينه وبين السوس الأقصى نيف وعشرون يوما فوطئهم، وسبى منهم وأدوا إليه الطاعة وقبض عامله منهم الصدقة، ثم ولاها طارق بن زياد مولاه وانصرف إلى قيروان إفريقية.

فتح الأندلس

قال الواقدى : غزا طارق بن زياد عامل موسى بن نُصير الأندلس، وهو أول من غزاها، وذلك فى سنة ٩٢، فلقيه أليان، وهو وال على مجاز الأندلس فأمنه طارق على أن حمله وأصحابه إلى الأندلس فى السفن، فلما صار إليها حاربه أهلها ففتحها وذلك فى سنة ٩٢، وكان ملكها فيما يزعمون من الأشبان(١) وأصلهم من أصبهان.

ثم أن موسى بن نصير كتب إلى طارق كتابا غليظا لتغريره بالمسلمين، وافتتانه عليه بالرأى فى غزوه، وأمر أن لا يجاوز قرطبة، وسار موسى إلى قرطبة من الأندلس فترضاه طارق فرضى عنه فافتتح طارق مدينة طليطلة، وهى مدينة مملكة الأندلس وهى مما يلى فرنجة وأصاب بها مائدة عظيمة أهداها موسى بن نصير إلى الوليد بن عبد الملك بدمشق حين قفل سنة ٩٦، والوليد مريض.

فلما ولى سليمان بن عبدالملك، أخذ موسى بن نصير بمائة ألف دينار، فكلمه فيه يزيد بن المهلب فأمسك عنه، ثم لما كانت خلافة عمر بن عبد العزيز -رضى الله عنه- ولى المغرب إسماعيل بن عبد الله بن أبى المهاجر، مولى بنى مخزوم، فسار أحسن سيرة، ودعى البربر إلى الإسلام، وكتب إليهم عمر بن عبد العزيز كتبا يدعوهم بعد إلى ذلك فقرأها إسماعيل عليهم فى النواحى فغلب الإسلام على المغرب.

قالوا : ولما ولى يزيد بن عبد الملك، ولى يزيد بن أبى مسلم مولى الحجاج بن يوسف إفريقية والمغرب، فقدم إفريقية فى سنة ١٠٢ وكان حرسه البربر فوسم كل امرىء منهم على يده «حرسى»، فانكروا ذلك وملوا سيرته فدب

---

(١) الأسبان.

بعضهم إلى بعض وتضافروا على قتله، فخرج ذات عشية لصلاة المغرب فقتلوه في مصلاه.

فولى يزيد بشر بن صفوان الكلبي فضرب عنق عبد الله بن موسى بن نصير بيزيد، وذلك أنه اتهم بقتله وتأليب الناس عليه، ثم ولى هشام بن عبدالملك، بشر بن صفوان أيضا فتوفى بالقيروان سنة ١٠٩، فولى مكانه عبيدة بن عبدالرحمن القيسى.

ثم استعمل بعده عبدالله ابن الحبحاب مولى بنى سلول، فأغزى عبد الرحمن بن حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع الفهرى السوس وأرض السودان فظفر ظفرا لم ير أحد مثله قط، وأصاب جاريتين من نساء ما هناك ليس للمرأة منهم الا ثدى واحد وهم يسمون تراجان.

ثم ولى بعد ابن الحبحاب كلثوم بن عياض القصيرى، فقدم إفريقية فى سنة ١٢٣ فقتل، ثم ولى بعده حنظلة بن صفوان الكلبى أخا بشر بن صفوان فقاتل الخوارج، وتوفى هناك وهو والٍ، وقام الوليد بن يزيد بن عبد الملك، فخالف عليه عبدالرحمن بن حبيب الفهرى، وكان محببا فى ذلك الثغر لما كان من آثار جده عقبة بن نافع فيه فغلب عليه.

وانصرف عنه حنظلة فبقى عبد الرحمن عليه، وولى يزيد بن الوليد الخلافة، فلم يبعث إلى المغرب عاملاً، وقام مروان بن محمد، فكاتبه عبد الرحمن بن حبيب وأظهر له الطاعة، وبعث إليه بالهدايا، وكان كاتبه خالد بن ربيعة الأفريقى، وكان بينه وبين عبدالحميد بن يحيى مودة ومكاتبة فأقر مروان عبد الرحمن على الثغر.

ثم ولى بعده الياس بن حبيب، ثم حبيب بن عبد الرحمن، ثم غلب البربر والإباضية من الخوارج، ثم دخل محمد بن الأشعث الخزاعى إفريقية واليا عليها

فى آخر خلافة أبى العباس، فى سبعين ألفا ويقال فى أربعين ألفا فوليها أربع سنين، فرم مدينة القيروان، ثم وثب عليه جند البلد وغيرهم.

وسمعت من تحدث أن أهل البلد والجند المقيمين فيه وثبوا به فمكث يقاتلهم أربعين يوماً، وهو فى قصره، حتى اجتمع إليه أهل الطاعة ممن كان شخص معه من أهل خراسان وغيرهم، وظفر بمن حاربه وعرضهم على الأسماء.

فمن كان اسمه معاوية أو سفيان أو مروان أو اسما موافقا لأسماء بنى أمية قتله، ومن كان اسمه خلاف ذلك استبقاه فعزله المنصور، وولى عمر بن حفص بن عثمان بن قبيصة بن أبى صفرة العتكى، وهو الذى سمى هزارمرد.

وكان المنصور به معجباً، فدخل إفريقية وغزا منها حتى بلغ أقصى بلاد البربر وابتنى هناك مدينة سماها العباسية، ثم إن أبا حاتم السدراتى الإباضى من أهل سدراته، وهو مولى لكندة قاتله فاستشهد، وجماعة من أهل بيته وانتقض الثغر، وهدمت تلك المدينة التى ابتناها.

وولى بعد هزارمرد يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب، فخرج فى خمسين ألفا وشيعة أبو جعفر المنصور إلى بيت المقدس، وانفق عليه مالا عظيما فسار يزيد حتى لقى أبا حاتم باطرابلس، فقتله ودخل إفريقية فاستقامت له، ثم ولى بعد يزيد بن حاتم روح بن حاتم، ثم الفضل بن روح فوثب الجند عليه فذبحوه.

وحدثنى أحمد بن ناقد مولى بن الأغلب قال: كان الأغلب بن سالم التميمى من أهل مرو الروذ، فيمن قدم مع المسودة من خراسان فولاه موسى الهادى المغرب فجمع له حريش، وهو رجل كان من جند الثغر من تونس جمعاً، وسار إليه وهو بقيروان إفريقية فحصره، ثم أن الأغلب خرج إليه فقاتله، فأصابه فى المعركة سهم فسقط ميتاً، وأصحابه لا يعلمون بمصابه ولم يعلم به أصحاب حريش.

ثم أن حريشا انهزم وجيشه فاتبعهم أصحاب الأغلب ثلاثة أيام فقتلوهم وقتلوا حريشا بموضع يعرف بسوق الأحد، فسمى الأغلب الشهيد، قال: وكان إبراهيم بن الأغلب من وجوه جند مصر، فوثب واثنا عشر رجلا معه فأخذوا من بيت المال مقدار أرزاقهم لم يزدادوا على ذلك شيئاً، وهربوا فلحقوا بموضع يقال له الزاب، وهو من القيروان على مسيرة أكثر من عشرة أيام، وعامل الثغر يومئذ من قبل الرشيد هارون هرثمة بن أعين.

واعتقد إبراهيم بن الأغلب على من كان من تلك الناحية من الجند وغيرهم الرياسة، وأقبل يهدى إلى هرثمة ويلاطفه ويكتب إليه يعلمه إنه لم يخرج يداً من طاعة، ولا اشتمل على معصية، وأنه إنما دعاه إلى ما كان منه الاحواج والضرورة فولاه هرثمة ناحيته واستكفاه أمرها.

فلما صرف هرثمة من الثغر، وليه بعده ابن العكى فساء أثره فيه حتى انتقض عليه، فاستشار الرشيد هرثمة فى رجل يوليه إياه ويقلده أمره، فأشار عليه باستصلاح إبراهيم واصطناعه وتوليته الثغر، فكتب إليه الرشيد يعلمه أنه قد صفح له عن جُرمه وأقاله هفوته، ورأى توليته بلاد المغرب اصطناعا له ليستقبل به الإحسان، ويستقبل به النصيحة.

فولى إبراهيم ذلك الثغر وقام به وضبطه، ثم أن رجلا من جند البلد يقال له عمران ابن مجالد خالف ونقض، فانضم إليه جند الثغر، وطلبوا أرزاقهم وحاصروا إبراهيم بالقيروان، فلم يلبثوا أن أتاهم العراض والمعطون ومعهم مال من خراج مصر.

فلما أعطوا تفرقوا فابتنى إبراهيم القصر الأبيض، الذى فى قبله القيروان على ميلين منها، وخط للناس حوله، فابتنوا، ومصر ما هناك، وبنى مسجدا جامعاً بالجص والأجر وعمد الرخام، وسقفه بالأرز وجعله مائتى ذراع.

وابتاع عبيداً أعتقهم، فبلغوا خمسة ألف وأسكنهم حوله وسمى تلك المدينة العباسية. وكان محمد بن الأغلب ابن إبراهيم بن الأغلب أحدث في سنة ٢٣ مدينة بقرب تاهرت، سماها العباسية أيضا، فأخربها أفلح بن عبدالوهاب الأباضي، وكتب إلى الأموى صاحب الأندلس يعلمه ذلك تقربا إليه به، فبعث إليه الأموى مائة ألف درهم. وبالمغرب أرض تعرف بالأرض الكبيرة، وبينها وبين برقة مسيرة خمسة عشرة يوما أو أقل من ذلك قليلاً، أو أكثر قليلاً، وبها مدينة على شاطئ البحر تدعى بارة.

وكان أهلها نصارى وليسوا بروم غزاها جبلة، مولى الأغلب فلم يقدر عليها، ثم غزاها خلفون البربرى، ويقال أنه مولى لربيعة ففتحها في أول خلافة المتوكل على الله، وقام بعده رجل يقال له المفرج بن سلام ففتح أربعة وعشرين حصناً، واستولى عليها وكتب إلى صاحب البريد بمصر يعلمه خبره، وأنه لا يرى لنفسه ومن معه من المسلمين صلاة إلا بأن يعقد له الإمام على ناحيته ويوليه إياها ليخرج من حد المتغلبين، وبنى مسجداً جامعاً.

ثم أن أصحابه شغبوا عليه فقتلوه، وقام بعده سوران فوجه رسوله إلى أمير المؤمنين المتوكل على الله يسأله عقداً وكتاب ولاية، فتوفى قبل أن ينصرف رسوله إليه، وتوفى المنتصر بالله، وكانت خلافته ستة أشهر، وقام المستعين بالله أحمد بن محمد بن المعتصم بالله، فأمر عامله على المغرب، وهو أوتامش مولى أمير المؤمنين بأن يعقد له على ناحيته فلم يشخص رسوله من سر من رأى حتى قتل أوتامش وولى الناحية وصيف مولى أمير المؤمنين فعقد له وأنفذه.

امبراطورية تيمور(١)

فى عام ١٣٨٣ كان تيمور قد بلغ الخمسين من عمره وهو يحكم امبراطورية واسعة الأرجاء نامية الثروة مترامية الأطراف، وقد ذاع لقب «الأمير تيمور» واشتهرت مملكته باسم امبراطورية ماوراء النهر، أو امبراطورية تيمور.

وكان الفاتح الكبير كلما هم بمسير اندفع حوله رجاله كالريح الهوجاء لا تصمد أمامها الحصون ولا تثبت حيالها الجيوش فالتتار كانوا قوما غير متمدينين، الحرب شريعتهم والغزو مبتغاهم لا معنى للمعركة عندهم غير القتل والتدمير والسبى والغنائم، وقد وصفهم ابن عربشاه، فقال :

«كان جيش تيمور مؤلفا من رجال توران وأبطال ايران، ونمور تركستان وفهود سجستان وصقور الدشت والخطا ونسور المغول وكواسر الحيتان وأفاعى حجند وثعابين ايدكان، وهوام خوارزم وجوارح جرجان وعقبان صغانيان، وضوارى حصار شادمان، وفوارس فارس، وأسود خراسان، وضياع الجبل وليوث جازندران وسباع الجبال وتماسيح رشمدار وطالقان، وأهل قبائل خور وكرمان وطلس أرباب طيالس أصبهان وذئاب الرى وغزنى وهمدان، وأفيال الهند والسند وملتان وكباش اللوروثيران شواهق الفور وعقارب شهرزور وحشرات عسكر عكرم وجند يسابور .. مع ما أضيف اليهم من أعيار الخدم وفواعل التراكمة والأوباش والحشم وكلاب النهاب من رعاع العرب وهمج العجم وحثالة عباد الوثن وأنجاس مجوس الأمم، مما لا يكتنفه ديوان ولا يحيط به دفتر حسبان».

ومهما يكن فى هذا الوصف الغريب من مبالغات وتشبيهات لاذعة، فإن أحدا لا يستطيع أن يدفع عن جيش تيمور ما لصق به من صفات الهمجية

---

(١) القائد الرهيب تيمور لنك ـ السيد فرج .

والوحشية، وما اقترن باغاراته واعتداءاته من حوادث مشئومة وأعمال نكراء ترفع عن أصحابها صفة الإنسانية وعلامات المدنية.

ولكن تلك الرقعة من السواد التى أحاطت بتاريخ تيمور لا تمنع من النظر بعين التقدير والاعتبار لتلك الشخصية العالمية الفذة التى لمعت فى الظلمة الحالكة وشقت طريقها فى الصخر والشوك، وانطلقت من النشأة المتواضعة إلى السيطرة العريضة والشهرة المدوية، واجتمع لهذه الشخصية من المواهب العسكرية والمزايا السياسية، ماجعل لصاحبها مكانته الثابتة فى التاريخ واسمه المدوى فى قائمة العباقرة من جميع العصور.

وقد برزت عبقرية تيمور العسكرية في قيادته الحكيمة لجمهرة همجية لا تعترف بالقواعد والأصول فخاض بها الأهوال، ونازل بها أعظم الجيوش في زمانه وغزا الحصون المنيعة، وقضى على الممالك العتيدة .. كما برزت عبقريته السياسية فى إدارته لدفة الحكم وإشرافه على جميع الشئون السياسية والاقتصادية والمدنية فى امبراطورية شاسعة الأرجاء مختلفة المذاهب متعددة الأجناس.

كان إذا غزا مملكة وأدخلها فى طاعته عين عليها واليا من أبنائها يسوس أمرها فى ظلال توجيهاته ومراميه، يجمع له الجزية ويدين له بالولاء، ويأخذ أبناء الأمراء إلى العاصمة سمرقند رهائن حرب فإذا ظهرت فى بلادهم مؤامرات، أو خيانات ، دفع هؤلاء الأمراء حياتهم مقدمة للانتقام.

وكان معنيا بترقية بلاده ومدنيتها، وقد اشتهر عنه ابتكاره لنظام البريد وإهتمامه بالمواصلات ففتح الطرق، وأقام الجسور، ومد أنابيب المياه ووضع الجمرك والمكوس[١]، وجعل فى الطرق الطويلة محطات للخيول والمياه.

---

(١) المكوس : الضرائب .

وجاء وصف نظام البريد الذى ابتدعه تيمور فى كتاب ابن بطوطة، ومنه :

البريد صنفان : بريد الخيل، وبريد الرجال، فأما بريد الخيل فيسمونه «الولاق» وهى خيل تكون للسلطان أو الحاكم أو الأمير فى كل مسافة أربعة أميال.

أما بريد الرجالة فيكون فى مسافة الميل الواحد أو يكون أقل من ذلك إلى الثلث، وترتيب ذلك أن يكون في كل ثلث ميل قرية معمورة ويكون بخارجها ثلاث قباب يقعد فيها الرجال مستعدين للحركة قد شدوا أوساطهم وعند كل واحد منهم مقرعة مقدار ذراعين بأعلاها جلاجل من نحاس، فإذا خرج البريد من المدينة أخذ الكتاب بأعلى يده والمقرعة ذات الجلاجل باليد الأخرى وخرج يشتد بمنتهى جهده، فإذا سمع الرجال الذين بالقباب صوت الجلاجل تأهبوا له فإذا وصلهم أخذ أحدهم الكتاب من يده ومرق بأقصى جهد وهو يحرك المقرعة حتى يصل إلى المحطة الأخرى .. ولا يزالون كذلك حتي يصل الكتاب إلى حيث يراد منه، وهذا البريد أسرع من بريد الخيل، وربما حملوا على هذا البريد الفواكه المستطرفة من مكان إلى آخر، وفقا لرغبة الأمير أو الحاكم أو من يقوم مقامه.

وجعل تيمور لجيشه نظاما وقواعد وحدودا لا يخرج عنها أحد، فكان «الضبط والربط» الذى عرفناه حديثا هو الأساس الذى بنى عليه جيشه فتحول الهمج إلى جند نظاميين يعرف كل منهم مكانه فى العمل وحدوده فى المعاملة، وكان الجندى يتناول راتبا معينا ولا يسمح له بالاعتداء على أحد أو التطاول على غيره.

وكان التجار يدفعون الضرائب على حسب تجارتهم، فكان ذلك من أسباب الدخل الوافر، وكان أكثر القوافل فى ذلك العهد تفد إلى مملكة تيمور وتمر من القسطنطينية إلى بلاد فارس فسمرقند فبلاد الهند ومن البحر الأسود إلى خليج

فارس إلى خراسان.. وبذلك كانت طرق التجارة العالمية تحت ناظريه، وكانت وارداته تفوق واردات ملك فرنسا فى عهده.

ومثلما اهتم تيمور بشئون التجارة كان معنيا بالزراعة واصلاح أحوال الفلاحين، فقد كان يعتقد أن الفلاحين هم مصدر الثروة ومنبع القوة للجيش والوطن.

وكان تيمور شخصية يحف بها الجلال وتحوطها الهيبة، وكان يطيل المكث بين حرسه الخاص الذى كان يبلغ خمسة وستين ألفا من الرجال الشجعان ذوى البسالة والإخلاص، وقد كان يجزل لهم فى العطاء .. وكانت شخصيته كجندى ترتفع فيه على شخصية الحاكم فقد شب على صهوة جواده ودان له الملك بحد سيفه ولذلك كان معروفا أن تيمور كثير التنقل وأن أكثر مكان عاش فيه هو ظهر حصانه.

إن الرجل الذى حنكته التجارب وصنعته الأحداث الهائلة ظهر على مسرح التاريخ بسيفه وعقله فبهر الأنظار واجتذب تقدير المؤرخين والمراقبين بعظيم مزاياه وجلائل أعماله، وقد عاشت عاصمته سمرقند سنوات ذهبية تنعم بترف الانتصار وملاذ الحضارة وخيرات التجارة العالمية التى كانت تمر بها من كل حدب وصوب، وهى البلدة المتواضعة التى تسلمها تيمور صغيرة بسيطة بيوتها من الخشب والطين، ففتح فيها الشوارع والميادين، وأقام المبانى وأنشأ الحدائق، وجملها وزينها، فصارت درة البلاد الآسيوية وكبرى مدن العالم، وجلب لها الصناع والفنيين والكتاب والعلماء، وشيد الدور العمومية والمجامع ومراكز الاستعلام ومراصد الفلك، ولم تلهه فتوحه وغزواته عن التقدم المدنى فحمل الرقى إلى بلاده والخير والجمال لعاصمته، والمدنية والحضارة لشعبه والذكرى الخالدة لبطولته وفطانته وخططه وأعماله.

ثورات وغزوات (١)

لم تكن حياة تيمور سهلة فى أية مرحلة من مراحلها ولم يكن ميسورا أن يستقر الأمن والسلام بعد أن امتدت أطراف امبراطوريته ولكنه كان مولعا بالصعب معتادا على المشقة لا تكاد الثورة تنشب هنا أو هناك حتى يطير إليها وسرعان ما يقضى عليها ويشتد فى عقاب مضرميها.

فلما حدثت الشاه منصور نفسه أن يشق عصا الطاعة على تيمور ويرفع علم الثورة فى فارس ويأخذ بزمام ملكها تحرك الجيش إلى البلاد الثائرة فلجأ الشاه إلى حصنه الحصين «القصر الأبيض» حيث أعد عدته لإقامة مديدة ودفاع لا قبل لأحد بتحطيمه، فقد كان القصر بمثابة حصن منيع فى قلب الجبال يصعب الوصول إليه لصعوبة المرتقى وضيق المسلك وتعذر استخدام أدوات الحصار، كما أنه كان مزودا بالمؤن والمياه وأسباب الحياة، مما يجعله يصمد عدة سنوات، وكانت الحامية التى تدافع عنه شديدة البأس واسعة الخبرة بشئون الدفاع وفنون القتال.

ودارت المعركة بين المهاجمين والمدافعين وأخذت قوات تيمور تدور حول القصر الحصين تختبر مسالكه وتكشف موانعه وتتلقى بين الحين والحين دفعات قوية من سهام المدافع يمطرونهم بها فى دقة وكثرة حتى تعرض الهجوم للإخفاق لولا دورة جديدة من دورات تيمور الموسمة بالجرأة والاندفاع، ظهرت على أثرها ثغرة تدفقت منها القوات بغزارة، فانهارت معنويات المدافعين واضطرب نظامهم وسقطت خطتهم واستسلم القصر بمن فيه وقبض تيمور على الشاه منصور فقتله وقضى على رءوس الفتنة وعادت بلاد فارس إلى قبضته القوية.

وأصبح تيمور على حدود البلاد العربية !

---

(١) القائد الرهيب تيمور لنك ـ السيد فرج .

وكانت أخباره قد سبقته إليها، وأحس امراؤها بالخطر الداهم، فراحوا ينشدون الوحدة ويبحثون وسائل دفع الغزو التترى الفظيع الذي اقترب بخيله ورجله وأصبح على الأبواب، وكان أول اتفاق ابرم بين مصر وبغداد، واستطاع هذا المحور أن يضم إلى صفوفه الثائرين على التتار كالتركمان والقبائل التى دخلت الحدود لائذة طالبة الغوث واستعد صاحب بغداد -الذى كان فى وجه العاصفة- فجمع أمواله وكنوزه وبعث بها إلى مصر وكانت جميع هذه المحاولات والمؤامرات تبلغ تيمور عن طريق عيونه وجواسيسه.

دخلت قوات تيمور بغداد فلم تلق مقاومة تذكر فقد فر السلطان هاربا إلى مصر وترك البلاد بغير قيادة فاستسلمت واجتمع كبارها فأعربوا عن خضوعهم لعاهل التتار، وصار يدعى له فى الجوامع.

وأرسل تيمور إلى سلطان مصر ينبئه بما وصل إلى علمه من أنباء المؤامرات وأنه من الصواب التسليم بالأمر الواقع حقنا للدماء وحتى يكون هناك أمل فى التفاهم والوفاق والسلام بين المملكتين.

عندما وصلت رسل تيمور إلى مصر تحمل إلى سلطانها رسالة العاهل التترى لم يأبه السلطان بهذا التهديد وأساء استقبال المبعوثين وأمر بقتلهم فضربت أعناقهم، ثم تقدمت القوات المصرية بمساعدة العرب والمماليك والتركمان والأتراك فدخلت بغداد وجعلتها تابعة لمصر.

وكان تيمور فى ذلك الوقت ينهب الطريق فى غزوة مظفرة إلي الهند. فتل مائة ألف ونهب الذخائر والكنوز التى اشتهرت بها دلهى وجلب معه الفيلة والخيرات والصناع، وعاد من الهند عام ١٣٩ ... وفى رأسه فكرة غزو العالم العربى.

تقدير الموقف

كان تيمور يطرح الفكرة أما ناظريه ويرى الموقف من عدة جهات :

١- حالة الجو : الفصل المناسب للعملية.

٢- الماء والكلأ : ليضمن تموين قواته.

٣- الطريق المأمون : الذى يوصله إلى الفرض دون أن يتعرض لأعداء آخرين.

٤- قوة خصومه : كيف يفرقها ويقضى على قسم بعد آخر.

وقد رأى تيمور أن خصومه هم : الترك، والتركمان، والعرب، وأهل جورجيا، إذا سار إلى بغداد تعرض لهجوم الترك من ناحية، ومصر من الناحية الأخرى .. وراح يعمل بالحكمة قبل الحربة.

كتب إلى بايزيد - سلطان الترك - يناشده الوقوف على الحياد فى حربه ضد التركمان والعرب ويحذره فى الوقت نفسه، فرد عليه بايزيد بكتاب قال فيه :

« ليس من عادة الأتراك أن يتخلوا عن رجل طلب مساعدتهم، فأرسل إليه تيمور منذرا ومهددا، وبينما كانت الرسائل متبادلة كانت قوات تيمور قد اجتاحت «سيواس» وقضت على سكانها الأرمن وأبقت على المسلمين .. ثم حول عنان جواده فلم يمض للقاء الترك وإنما فاجأ الحدود السورية عام ١٤٠١.

وكتب تيمور إلى والى حلب : «اننا وصلنا فى العام الماضى إلى البلاد الحلبية لأخذ القصاص من قتلة رسلنا، ثم بلغنا موت السلطان الظاهر برقوق -. وبلغنا أمر الهند وما هم عليه من الفساد فتوجهنا إليهم وأظفرنا الله بهم ثم رجعنا إلى الكرج فأظفرنا الله بهم، ثم بلغنا قلة أدب هذا الصبى ابن عثمان - يقصد السلطان بايزيد - فأردنا عرك أذنه فشغلنا بسيواس وغيرها من بلاده كما بلغكم ونحن نرسل الكتب إلى السلطان بمصر فلا عود جوابها فنعلمهم أن يرسلوا قريبنا «أكلمش» الذى أسروه فان لم يفعلوا فدماء المسلمين فى أعناقهم والسلام».

ومثلما حدث فى مصر، حدث فى حلب: ضربت أعناق رسل تيمور.

وأخذت حلب تستعد وتتحصن وامتلأ أهلها وحاميتها حماسة لدفع الخطر المقبل، ومهما يكن من أمر هذه الاستعدادات فقد كان واضحا أن معلومات أمير حلب عن تيمور كانت ناقصة وأن تقدير الموقف لم يكن صحيحا إذ سرعان ما أطبقت القوات التترية على حلب فدمرتها وقضت على حاميتها وجعلت عاليها سافلها، وانتهكوا حرماتها وداسوا مقدساتها.

جاء فى «كنوز الذهب» : (أن جيش تيمور لما دخل إلى حلب نهب وأحرق وسبى وقتل وصاروا يأخذون المرأة ومعها ولدها الصغير على يدها فيقتلونه من يدها و ....[1] فلجأت النساء عند ذلك إلى الجامع ظنا من أن هذا يقيهن أيدى الكفرة، وصارت المرأة تطلى وجهها بطين أو بشىء حتى لا ترى بشرتها من حسنها فيأتى الجندى من التتار ويغسل وجهها و .... !)

واستسلم ذوو الشأن فى حلب، ومع هذا قتلهم تيمور جميعا وأحرق المدينة بعد أن ظفر بكنوزها وذخائرها، وأقام فيها نحو شهر وجنوده ينهبون ويخربون ويسرفون فى القتل والنهب والاعتداء .. وبنى من رءوس القتلى عشر مآذن .. ويقال أنه قضى على عشرين ألف رجل فى هذه الغزوة النكراء.

وفعل التتار بأهل حماة ما فعلوا بأهل حلب من قتل وتدمير وسبى ونهب، واستسلمت حمص بغير قتال، وسجل تيمور على رخامة بالجامع الأموى بحماة العبارة الآتية : (إن الله يسر لنا فتح البلاد والممالك حتى انتهى استخلاصنا إلى بغداد فجاورنا سلطان مصر والشام فراسلناه لتتم بيننا المودة فقتلوا رسلنا وظفرت طائفة من التركمان بجماعة من رجالنا فسجنوهم فتوجهنا لاستخلاص قريبنا من أيدى مخالفينا...)

---

(١) .... : يغتصبونها .

التتار .. والنار والدمار

اجتاح التتار الشام وأطبقوا على دمشق، وكان ملكها قد بارحها لائذا بالفرار إلى مصر فلما أرسل تيمور إلى نائب دمشق رسولا قتله نائب الملك قبل أن يستمع إلى رسالته مثلما فعل نائب حلب من قبل .. وكان الثمن فادحا .. القضاء على أعظم مدينة وأجمل عاصمة فى ذلك العهد.

ذكر ابن إياس : أنه كان بين أهل دمشق وبين جنود تيمور فى أول يوم موقعة عظيمة قتل فيها من جند تيمور ألف إنسان فأرسل تيمور يطلب من أعيان دمشق رجلا من عقلائهم، يمشى بينه وبين أهل دمشق فى الصلح، فلما أتى رسول تيمور بهذه الرسالة تشاور أهل دمشق فيمن يرسلونه إلى تيمور فوقع اختيارهم على القاضى تقى الدين بن مفلح بن الحنبلى، لأنه كان إنسانا طلق اللسان يعرف التركية والعربية، فأرخوه من أعلىٰ السور ومعه خمسة من أعيان دمشق، فغاب عند تيمور ساعة ثم رجع من عنده، فأخبر بأن تيمور تلطف معه فى القول، وقال له :

«هذه بلد فيها الأنبياء وقد عتقها لهم» .. وشرح من محاسن تيمور شيئا كثيرا، وجعل يخذل أهل الشام عن قتاله ويرغبهم فى طاعته، فصار أهل البلد فرقتين، فرقة ترى ما رآه هذا القاضى، وفرقة ترى محاربته، وكان أكثر أهل البلد يرون مخالفة القاضى ومحاربة تيمور، ثم غلب رأى القاضى وجماعته فقصد أن يفتح باب النصر فمنعه من ذلك نائب القلعة وقال لهم :

– إن فعلتم أحرقت البلدة جميعها.

ولكن نائب القلعة لما رأى عين الغلبة سلم إليهم القلعة بعد تسعة وعشرين يوما.

ثم قبض على القاضى وجماعته وأودعهم الحديد!

وذكر غيره : أنه لما قدم الخبر على أهل دمشق بأخذ حلب نودى فى الناس بالرحيل من ظاهرها إلى داخل المدينة والاستعداد لقتال العدو، فأخذوا فى ذلك ثم قدم عليهم المنهزمون من حماة فعظم خوف أهلها، وهموا بالجلاء فمنعوا من ذلك، ونودى من سافر نهب، فعاد إليها من كان خرج منها.

وحصنت دمشق، ونصبت المجانيق على قلعة دمشق ونصبت المكاحل على أسوار المدينة استعدادا للقتال، ثم نزل تيمور بجيشه فى قطنة فملأت جنوده الأرض كثرة، وصار بين جند دمشق وبين جند تيمور موقعة لم يتمكن بها تيمور من اقتحام المدينة، ثم هرب السلطان إلى مصر لما بلغه أن هناك مؤامرة ضده.

وكان قد اجتمع فى دمشق خلائق كثيرة من الحلبيين والحمويين والحمصيين وأهل القرى ممن خرج جافلا من تيمور، ما عدا الجند الذين فى دمشق، ولما أصبحوا وقد فقدوا سلطانهم وأمراءهم أغلقواأبواب دمشق، وركبوا أسوار البلدة ونادوا بالجهاد، فتهيأ أهل دمشق للقتال وزحف عليهم تيمور بعساكره فقاتل الدمشقيون من أعلى الأسوار أشد قتال، وردوا التتار عن السور والخندق، وأسروا منهم جماعة حاولوا اقتحام باب دمشق، وأخذوا من خيولهم عدد كبيرا، وقتلوا منهم نحو الألف، وأدخلوا رءوسهم إلى المدينة، ولما أعيا تيمور أمرهم جعل يخادعهم فأرسل يريدالصلح.

وطلب تيمور أولا تسعة أصناف من المأكول والمشروب والملبوس وغيره، وهذه هى عادته فى كل بلد يفتحها، فأجابه الدمشقيون إلى ما طلب باقتناع القاضى كما قدمنا.

وتقرر أن يجبى تيمور من دمشق ألف ألف دينارو وفرض المبلغ على الناس فقاموا به من غير مشقة عظيمة، ولكن تيمور عاد يقول أنه يطلب عشرة أضعاف هذا المبلغ، فنزل بالناس باستخراج هذا منهم ثانيا بلاء عظيم. ثم

فرض عليهم تيمور أن يسلموه أموال الذين انهزموا وأسلحتهم ففعلوا ذلك، ثم طلب جميع ما فى دمشق من السلاح جليله وحقيره فأخرجوه كله فلما فرغ من ذلك قبض على القاضى وجماعته وألزمهم أن يكتبوا له جميع خطط[1] دمشق وحاراتها وسككها، فكتبوا ذلك ودفعوه إليه ففرقه على أمرائه وقسم البلد بينهم فساروا إليها بجنودهم وحواشيهم وأخذ كل منهم مقامه فى محلة من المحلات وألزموا أهلها باخراج كل ما عندهم ودام هذا البلاء عدة أيام، ثم أمر تيمور رجاله بالدخول وسيوفهم مشهورة، فنهبوا ما قدروا عليه وساقوا الأولاد والرجال وتركوا من الصغار من عمره خمس سنين فما دونها، وساقوا الجميع مربوطين فى الحبال ثم طرحوا النار فى المنازل والدور والمساجد وكان اليوم عاصف الريح فعم الحريق البلد حتى صار لهيب النار يناطح السحاب.

وعملت النار فى البلد ثلاثة أيام بلياليها، ثم رحل تيمور عنها بعد أن قام ثمانين يوما، وقد احترقت كلها وسقطت سقوف جامع بنى أمية من الحريق، وزالت أبوابه، وتفطر رخامه ولم يبق غير جورة قائمة، وذهبت مساجد دمشق ودورها وقياسرها وحماماتها وصارت أطلالا بالية ورسوما خالية ولم يبق فيها غير الأطفال.

وفوق ذلك كله ومع ما منيت به دمشق من قتل سكانها، واحراق مصانعها وبيوتها. واستخراج أموالها وطرائفها، أصابتها من تيمور لنك مصيبة لا تقل عن تلك، أصابت منها الصميم فلم تبق ولم تذر.

قال ابن عربشاه فى تفصيل هذا الهول (وبينما كان رجال تيمور يحاصرون قلعة دمشق، أخذ هو يطلب الأفاضل وأصحاب الحرف والصنائع[2]، وأرباب الفضل، واستمر نهب عسكر تيمور لدمشق ثلاثة أيام، وارتحل وجيشه،

(١) أحياء.

(٢) فعل السلطان سليم العثمانى مثل هذا الفعل بعد ذلك مقلداً هذا المجرم.

وقد أخذ من نفائس الأموال فوق الطاقة والإمكان، وتحملوا عدا ذلك ما عجزت عنه قوة استطاعتهم فجعلوا يطرحون ذلك فى الدروب والمنازل، ويلقونه شيئا فشيئاً، فى أوعر المراحل، وذلك لكثرة الحمل وقلة الحوامل، وأصبحت القفار والبرارى والجبال والصحارى من الأمتعة والأقمشة كأنها سوق أو معرض وكأن الأرض قد فتحت خزائنـها وأظهرت من المعادن وغيرها كامنها، وأخذ تيمور من دمشق أرباب الفضل وأهل الصنائع وكل ما هو صاحب فن من الفنون، أو بارع من النساجين والخياطين والحجارين، والنجارين، والاقباعية، والبياطرة، والنقاشين، والقواسين، وبالجملة أهل كل فن وصناعة، ولم يترك الفقهاء، والعلماء، والأفاضل، وحافظى القرآن، والعبيد، والنساء، والصبيان بما لا يسعه الضبط والوصف.

وجاء فى الضوء اللامع : أن تيمور كان يسلك الجد من القريب والبعيد، ولا يحب المزاح، ويلعب الشطرنج وله فيه اليد الطولى ومهارة فائقة حتى أنه زاد فيه جملا وبغلا، بحيث لم يكن يلاعبه فيه إلا أفراد.

وكان ذا رأى صائب، ومكايد فى الحروب عجيبة وفراسة قل أن تخطىء، عارفا بالتواريخ لادمانه على سماعها لا يخلو مجلسه من قراءة شىء منها سفرا وحضرا، مغرما بمن حوله معرفة بصناعة ما إذا كان بارعا فيها، حاذقا باللغة الفارسية، والتركية، والمغولية الخاصة، ويعتمد قواعد جنكيز خان أصلا[1].

---

(١) عليه وعلى جنكيزخان لعنة الله.

مع التاريخ

رحل تيمور عن دمشق، وقد أصبحت أطلالا لا مال فيها ولا رجال، ولا مساكن، ولا حيوان، صار من بقى فيها من عسكر السلطان ومن أهلها يجتمعون ويترافقون ويخرجون من دمشق إلى الديار المصرية فيخرج عليهم العربان والعشير وينهبون، فجرى من العربان والعشرية مالم يجر عليهم من جنود تيمور، فذهبت حرمة المملكة، وعزم السلطان الناصر على العودة إلى دمشق، ثم بلغه أن تيمور رحل عنها وهو مريض فعدل عن حملته، وأرسل تيمور إلى صاحب مصر (سودون) نقيب قلعة دمشق يعتذر له ما قد جرى ويطلب قريبه الذى كان أسر فى أيام الملك الظاهر برقوق، وأنه إذا أطلقه يطلق ما عنده من الأسرى، فأطلقه وكساه وأحسن إليه،

فلما وصل جماعة السلطان ومعهم قريب تيمور إلى معسكره، أكرمهم واعتذر مما وقع منه وقال : هذا كان مقدرا .

وقد رحل تيمور عن دمشق ولم يتعدها إلى فلسطين، فسلمت سورية الجنوبية من شره.

وكانت أكثر المدن الصغرى فى أواسط سورية قد خضعت له بحكم الطبيعة ومنها طرابلس وقد أحضر له منها مال، واجتاح بعلبك ونهبها، ولما وصل إلى حلب حرقها مرة ثانية، وهدم أبراج القلعة وأسوار المدينة والمساجد والجوامع والمدارس وقتل أمراء كل من وجدهم فى طريقه وأخذ من كان فى قلعة حلب من المعتقلين وترك بعضهم، والواقع أن تخريبات تيمور فى البلاد السورية، لا يتأتى وقوع مثلها فى عشرات الأعوام، عملها بجيشه الجرار فى عشرات من الأيام(١).

(١) العجيب أن هذا السفاك المجرم كان يزعم أنه مسلم والإسلام منه برئ .

قال تيمور : أن ما فعله كان مقدرا، فكأنه شعر بعظم تبعته على عادة الفاتحين والسفاكين بيد أنه كان مغرما بغزو البلاد الإسلامية كما يظهر لأنه لم يترك قطرا إسلاميا إلا تناوله بالبلاء والمحق حتى أنه كان يريد غزو افريقية كما فتح آسيا، يقال : أنه لما اجتمع بابن خلدون المؤرخ المغربى المشهور سأله :

أين بلدك .

فقال ابن خلدون : بالمغرب الجوانى.

فقال : وما معنى الجوانى فى وصف المغرب.

فقال : هو فى العرف معناه الداخلى أى الأبعد.

فقال له تيمور: أريد أن تكتب لى بلاد المغرب كلها أقاصيها وأدانيها وجبالها وأنهارها وقراها وأمصارها .

فكتب له ابن خلدون ما طلب، فدفعه تيمور إلى أحد رجاله لترجمته إلى اللسان المغربى، ثم هرب ابن خلدون إلى مصر ناجيا بنفسه مخافة أن يأخذه معه إلى بلاده.

بغداد بعد دمشق

نقطة سوداء فى جبين الفاتح التترى أضاعت سمعته كجندى وشوهت تاريخه كبطل، فهو لم يعرف فى حربه حدود الحرب، ولم يرع تقاليد القتال، وإنما كانت خطته القتل والتدمير والخراب، لم يحارب الجنود فحسب، وإنما أجرى سيفه على النساء والأطفال ولم يدمر المواقع وحدها ولكن دمر المدن وهدم البيوت وأشاع الفوضى والخراب.

لم يعتمد على البراعة الحربية وإنما أدار القتال بروح السفاكين الهمج وترك كل خطة حربية مفتوحة بعد النصر ليتيح لرجاله ما كانوا عليه من إجرام وفسق وسلب ونهب.

الذين دافعوا عن تيمور قالوا: انه مد فى حبال الوحشية ليخيف خصومه، وقضى بالتنكيل والعذاب لأعدائه حتى يعلم مصيره كل من تحدثه نفسه بقتاله أو الخروج عليه.

ولكن الجندية الحق تبرأ من أفعال تيمور وقومه التتار، وستظل النقطة السوداء فى تاريخه وتاريخهم تعمهم وتحط من شأنهم، فالقوة وحدها بغير الحق، والنظام - مآلها الزوال.. ولهذا دالت دولة التتار عقب موت عاهلهم تيمور... ولم يعد يذكر سوى وحشية تيمور وهمجيته.

وقد ساعد تيمور على إحراز النصر وتقويض العروش وتدمير الشعوب أن خصومه كانوا غير منظمين فلو قدر للبلاد العربية الاتحاد والتضامن لوقفت فى وجه الطاغية وردته على أعقابه مهما كانت قوته وشدته، إن الذى فتح الباب على مصراعيه للتتار هو عدم الاتحاد، ولهذا صرع التتار خصومهم دولة بعد دولة[1].

---

(١) وهذا هو حال البلاد العربية والإسلامية الآن ، والتاريخ يعيد نفسه .

لم يكن فى مصر أو الشام رجل قوى بعيد النظر يستطيع أن يدفع هذه البلاد إلى الاتحاد فى مواجهة الخطر، وأن يعد جيشا قويا موحدا يضم إليه فلول الثائرين والهاربين والناقمين، ويوطد صلاته بالأتراك فتكون ثمة خطة واحدة تضغط على قوات التتار من أكثر من ناحية فتصمد لها وتودى بها وتقضى عليها.

لقد كان معروفا أن التتار لا يتركون بلادا تنعم بالسلم وتزدهر بالخيرات حتى تهبط عليها جحافلهم تقتل وتسبى وتدمر وتخرب.. فكيف قابل المسلمون فى الشام ومصر وتركيا هذا الخطر؟.. كان بايزيد ملك الترك معتزا بسطوته وقوة جيشه، وانه وحده كفيل بالقضاء على التتار فلم يتحرك حين دهم التتار دمشق وبغداد، وظل ملتزما حلمه حتى هزمت دمشق ثم بغداد، وأخيرا دارت عليه الدائرة.

أما صاحب بغداد - السلطان أحمد - فكان قد فكر فى الخطر المرتقب، وكانت خطته أن يبارح بغداد مع صفوة جيشه إلى حيث يلتقى بالجيش التركى وينضم إليه فى قتال التتار.. كانت الخطة متأخرة، وعرف تيمور بها، فقد كانت مخابراته واسعة الحيلة وجواسيسه تعمل فى كل مكان، وتأتيه بأدق الأخبار، وبتفاصيل الخطط.

غادر تيمور البلاد السورية إلى ضفاف الفرات سنة ١٤٠١، وأراد أن يعمل بسرعة فقد كان عليه أن يقضى على بغداد فى أيام قليلة ليحول وجهته إلى الترك الذين كانوا يستعدون لمحاربته.

بعث تيمور إلى نائب حاكم بغداد يخيره بين التسليم، أو التدمير. فرفض التسليم، ونادى على قومه بالجهاد، واحتمى خلف الحصون والأسوار فضيع على التتار فرصة الغزو بلا حرب، والفتح بلا مشقة وخاصة أن تيمور كان

يتطلب انتصارا عاجلا، وغزوا سهلا بعد عناء المسير عدة أميال ... وذلك فى الوقت الذى كانت كثرة من جيوشه تتأهب فى تبريز لمعركة ضد الترك.

وفكر تيمور فى ترك بغداد إلا أن موقعها أغراه، ومركزها الأدبى شده إليها، فقد كانت مفتاح الموقف فى الشرق العربى، والحصن الأخير الذى يعتد به، فأراد أن يجعل منها الضربة قبل النهائية التى يدوى صداها عند الترك فتحدث الأثر المعنوى المنشود.

وأخذ التتار يعدون العدة لحصار بغداد واقتحامها فأرسل تيمور إلى ابنه (شاه روك) أن يأتى إليه فى عشر فرق، ومعه أدوات الحصار، وأرسل إلى ابنه سليمان أن يأتى إليه ببعض الفرق من سمرقند.. وذلك لمواجهة معركتين فاصلتين حان موعدها.

ولما جاء (شاه روك) بجنده أمر رجاله، وكان عددهم يبلغ المائة ألف نسمة بالمظاهرة حول أسوار المدينة لعل فى هذه المظاهرة ما يحمل سكان بغداد على طلب الصلح والتسليم، ولكن شيئا من هذا لم يقع، وظل سكان بغداد يعتصمون بأسوارهم، فأغضب ذلك تيمور، وراح ينصرف إلى محاصرة المدينة بشدة وقوة وحمق.

ونضبت آلات الحصار، وأخذت الحجارة تندفع نحو الأسوار فتهدم بعضها حينا، وترتد مدحورة حينا آخر، حتى تمكن التتار من فتح ثغرة فى جانب من السور، ولكنهم وجدوا أن البغداديين أقاموا وراء السور الخارجى سورا آخر، وقد أخذوا مكانهم فى أعلاه، يدفعون عن مدينتهم عادية الغزاة، ويرمونهم بالحجارة والأقواس.

وكان الحر شديدا لاهبا لا يستطيع المرء معه أن يقضى فى الشمس المحرقة برهة من الزمن، حتى لقد كانت الطيور تسقط من الجو لا حراك بها،

وكان يضطر التتار أنفسهم ما بين حاشيتى النهار إلي الاختباء فى الظل، لا يظهرون للعيان إلا فى أول النهار وآخره.

ولكن تيمور لم يضرب ضربته القاضية إلا فى ضحوة النهار، وفى منتصفه، وهو الوقت الذى ينصرف فيه البغداديون عادة للراحة ظنا منهم أن أحدا لن يهاجمهم فى مثل هذه الساعة المحرقة، وبذلك تمكن تيمور من افتتاح أحد جانبى السور، وعندئذ أمر رجاله كلهم بالهجوم، وكانت ساعة يشيب من هولها الأطفال، فأصبحت دار السلام دار الدم والضنك والقتل والسلب والنهب، وأما القتلى فلا يمكن أن يعدهم حاسب، ولا يستطاع لهم حصر، ولقد أخبر مؤرخو تيمور نفسه أنهم يبلغون تسعين ألف نسمة، وأن مائة وعشرين سارية من رءوس القتلى نصبت فى الأرض الفضاء.

أما الأسوار فقد دمرت، وكذلك المنازل أحرقت، ولم يترك تيمور فى بغداد غير بعض المساجد، وكذلك كانت نهاية بغداد عاصمة العباسيين، ومفخرة البلاد العربية فى ذلك الحين.

وقد أعيدت عمارة بغداد بعد ذلك العهد إلا أنها أضاعت مكانتها السابقة العالمية التى كانت تتمتع بها، وتفخر بها على المدن والعواصم وأصبحت مدينة عادية لا شأن لها فى سياسة العالم العربى، ولم يكتف تيمور باحراق المدينة والفتك بسكانها بل راح يبعث بخبر سقوط عاصمة العباسيين إلى جميع المدن والحواضر فى مملكته، وإلى بايزيد ملك العثمانيين أيضا.

سقطت بغداد، وقضى التتار على كل عرق فيها ينبض بالحياة، وبارحها تيمور ومعه كنوزها وخيراتها، ولوى عنان جواده إلى تبريز لمحاربة الترك، وبذلك نجت مصر من شره، وانتهت معاركه فى البلاد العربية .. وكانت بغداد خاتمة الأهوال.

ولم يقف المؤرخون طويلا عند الحديث عن هذه المعارك، فلم يكن للفن الحربى نصيب من العناية وإنما كان إجماع المراجع وصفا إجماليا مليئا بالدعاية مشحونا بالحديث عن فظاعة التتار، واندفاعهم الخطير إلى القتل والتدمير والسلب والنهب، ولهذا يصعب على دارسى التاريخ العسكرى التحقق من التفاصيل والوصول إلى خطط الفريقين، والوقوف على التقدير الصحيح للمواقف المختلفة.

غير أن البحث فى شتى المراجع للملمين بمبادئ الحرب ينتهى بعدة نتائج حاسمة كلها تدل على ما كان يتمتع به تيمور لنك من موهبة حربية فذة، ومبادئ ونظم استنها لنفسه وطبقها فى معاركه فكان له النصر دائما فى كل حرب خاضها، وفى أية معركة أدار رحاها.

ومن أهم المبادئ التى جرى عليها تيمور لنك :

١- المعلومات : سبق تيمور لنك أهل عصره فى استخدام الجاسوسية والطابور الخامس، ولعله جرى فى ذلك مجرى جنكيز خان، فكلاهما كانت له مقدرة فذة فى استخدام عناصر الاستطلاع والجاسوسية، وحقق بذلك قدرا وافرا من المعلومات الوافرة [١].

٢- الحشد : كانت قوات التتار أكثر من الخصوم فى أية معركة، وكان تيمور لنك يعتمد فى سرعة إنهاء المعركة على جيوش جرارة تربو على عدد خصومه فكان له التفوق العددى فى ساعة المعركة الحاسمة.

وكان يسير على تعبئة كاملة واستعداد تام لأى طارئ فى القتال المرتقب.

٣- القتال الهجومى : وكان الهجوم الميزة الغالبة على أعمال التتار

---

(١) وكذلك تفعل أمريكا الأن فى العراق حيث نهبت آلاف القطع الأثرية والبترول وغير ذلك والمسلمون لا يحركون ساكنا لا حول ولا قوة إلا بالله.

فحروبهم كانت سلسلة من الغارات والهجمات الشديدة ولم يعرف عن خططهم الحربية غير وسيلة واحدة : الهجوم.

٤- خفة الحركة : وكان التتار يفوقون سواهم فى خفة الحركة فهم أبناء الصحراء وفرسان التنقل العاجل، وأصحاب الغارات التى تعتمد على السرعة والجرأة وقد اعتادت خيلهم العدو السريع وانطبعت نفوسهم بالاندفاع الخاطف.

٥- الروح المعنوية :لا غرو أن معنويات التتار كانت أقوى بكثير من غيرهم فهؤلاء الهمج الذين لا يعرفون الحياة إلا أنها غزو وقتل وتدمير الذين استمروا يندفعون فى غزوة بعد أخرى كانوا لا يعبئون بالمشقة ولا يعرفون للهزيمة معنى .. فليس هناك ما يخشون عليه الخسران.

٦- النصر بالرعب(١) : كانت أخبار التتار تفتح لهم أبواب المدن قبل وصول الجيوش وتهزم روح العدو قبل اللقاء، ولهذا كان تيمور لنك يتعمد أن تذاع أخبار فتوحه وما جرى لخصومه من مصائب وويلات حتى تهتز لهذه الأنباء قلوب الملوك والأمراء، فإذا هم التتار بمهاجمتهم عرفوا سلفا ما سوف يحل بهم، وبذلك تكون الهزيمة المعنوية فاتحة الهزيمة المادية.

---

(١) وهذا هو الواقع الآن مع الولايات المتحدة الأمريكية.

أسباب تفوق تيمور لنك

وبهذا يمكن تلخيص أسباب انتصارات تيمور لنك إلى العوامل الآتية :

١- التفوق العددى.

٢- المعلومات.

٣- الروح الهجومية.

٤- الروح المعنوية.

٥- الدعاية.

٦- كفاية الناحية الإدارية.

وليس بوسع قائد عالمى حديث أن يجئ بأكثر مماجاء به تيمور لنك .. الذى سبق بخمسمائة سنة ! والفضل للمتقدم، كما يقولون.

الفرس(١)

١- ذو قار :

كان للعرب مع الفرس موقعة قديمة وقعت أيام رسول الله عليه الصلاة والسلام.. اسمها «ذو قار» وقد وصفها أبو الفرج الأصفهانى صاحب الأغانى وصفاً رائعاً، وقال إنها وقعت ما بين غزوتى بدر وأحد وكانت أنباء ظهور الإسلام قد ازعجت كسرى، وأقلقته، لذلك رغب فى إثارة المتاعب للمؤمنين بدين الله : الإسلام .. والمعروف أن الفرس كانوا من عباد النار ..

وقد عبأ العرب قواتهم صفوفاً وقسموها إلى كتائب، وجعلوا الميمنة – أى الجيش الذى يقف إلى اليمين – من قبيلة بنى عجل .. والميسرة – أى الجيش الذى يقاتل فى اليسار– من قبيلة بنى شيبان.. أما القلب فكان من قبائل بنى بكر بن وائل وقد جعلوا حملة السيوف والرماح فى الوراء، ليحموهم بقلوبهم، وهم بمثابة القاعدة التى يتم تموين الجيش منها فى يومنا هذا ومده بالمقاتلين والذخيروالطعام..

وكان من أساليبهم أنهم لا يقدمون الصفوف للقتال دفعة واحدة، لكى لا تصيبهم سهام الأعداء، فتفتك بهم، لكنهم كانوا يزحفون فرادى، ومن أماكن متناثرة كطلائع، تهاجم ببسالة قوات الأعداء .. وإذا ما تقدم هؤلاء أطبقت عليهم قوات الميمنة والميسرة ..

ولم تكن موقعة «ذى قار» كبيرة لكنها كانت محاولة من الفرس لتخويف العرب، خاصة وأن كسرى حين وصله كتاب الرسول ﷺ يدعوه فيه إلى الإسلام مزق الملك الرسالة وكتب إلى عامله على اليمن –أى حاكمها– أن يبعث باثنين من الرجال الأقوياء إلى الحجاز ليحضرا له هذا الرجل الذى يقول إنه

(١) خالد بن والوليد – عبد التواب يوسف – عالم الكتب .

نبى، وأن يحملا الرسول صلوات الله عليه وسلامه - إليه موثوق اليدين بالسلاسلوالحبال.

وذهب مبعوثا كسرى لأداء المهمة فاستقبلهما رسول الله ﷺ بالترحاب، وتلطف معهما فى الحديث وشرح لهما دعوة الإسلام، وفى تلك الأثناء جاءت الأنباء من فارس أن ابن كسرى ثار على أبيه، وخلعه عن العرش وتولى مكانه، ولم يكتف بذلك، بل تخلص منه ومن ثمانية عشر أخاً له لكى ينفرد بالحكم.. وعندما تحقق الرجلان من الخبر أعلنا إسلامهما.

وسمع كسرى الجديد بما حدث، وأراد أن ينتقم من العرب والمسلمين، فبعث إليهم بجيوشه، فتصدوا لها، في شجاعة وبسالة واستطاعوا أن ينزلوا بها الهزيمة، ونجحوا فى ردها على أعقابها إلى أرض السواد أو العراق.

وعندما وصلت أنباء النصر العربى على الفرس إلى مسامع رسول الله، قال : «إن هذا لأول يوم .. انتصفت فيه العرب من العجم .. وبى نصروا» !

٢- السباق :

بعد وفاة الرسول ﷺ ، تولى أبو بكر الخلافة، وبعث بالمثنى بن حارثة قائداً لقوات المسلمين لتأمين الجزيرة العربية من دسائس الفرس ومؤامراتهم وحماية العرب الذين استقروا فيما بين النهرين.. وانتصر المثنى، لكن انتصاراته لم تكن بالحاسمة، لذلك بعث الخليفة بجيش على رأسه سيف الله خالد بن الوليد وأمره بالزحف على فارس من الجنوب،

كما بعث بقائد آخر هو عياض بن غنم للزحف على الفرس من الشمال، وعقد الخليفة سباقاً رائعاً بين القائدين : خالد يزحف على (الحيرة)، وعياض يتجه إليها شرقاً من (دومة الجندل، والذى يسبق صاحبه إلى الحيرة يكون هو القائد ويصبح الآخر من جنده.

وكانت فى الحيرة إمارة عربية، قبل الإسلام، واستطاع الأكاسرة.. أن يمدوا أذرعتهم الطويلة من بلادهم فى فارس لكى تقبض أيديهم على هذه الإمارة الحرة «الحيرة» وعلى عاصمتها التى كانت تحمل نفس الإسم .. ويذكر التاريخ أن وحداً من أمرائها العرب رفض أن يزوج ابنته من ولى لعرش كسرى، وفارس.. وذلك على الرغم من أن حاكم الحيرة كان فى فترات طويلة يأتى من هناك.

والعرب -كما تعرفون- كانوا فى تلك الفترة محاطين بامبراطوريات ثلاث: امبراطورية للأحباش فى اليمن والحبشة .. وامبراطورية للرومان فى الشام ومصر .. وامبراطورية لفارس فى أرض الرافدين وفارس .. وخرج العرب من جزيرتهم الصحراوية يرفعون أعلامهم، ويحملون سيوفهم لكى يحطموا هذه الامبراطوريات.

وكان من نصيب خالد بن الوليد أن بعث به الخليفة لكى يقاتل مع «المثنى بن حارثة» وجنوده الأبطال ضد عباد النار فى امبراطورية الفرس.

قسم خالد جنوده إلى ثلاث فرق ..

الفرقة الأولى قائدها المثنى .. تنطلق فى البداية تجاه الفرس.

والفرقة الثانية قائدها عدى بن حاتم الطائى، تمضى بعد الأولى بيوم.

الفرقة الثالثة على رأسها خالد نفسه تسير بعد الثانية بيوم.

وكان أمير هذه المنطقة هو القائد هرمز.. وكانت له قلنسوة ثمنها مائة ألف درهم.. أى أنه كان من أكبر القادة وقد بعث خالد إلى هرمز بانذار يقول فيه :

«أما بعد- .. فأسلم تسلم، .. أو اقبل الجزية، وإلا.. فلا تلومن إلا نفسك».

٣- ذات السلاسل :

ما أن تسلم هرمز الانذار حتى أسرع يبلغ به الملك «أردشير» الذى أمر أن يربط جنوده بالسلاسل، حتى لا يفكروا فى الهرب من المعركة.. وأسرع الفرس يستولون على مصادر المياه، وعندما نقل الجنود العرب إلي قائدهم خالد انهم بلا ماء، قال لهم ..

«هيا نقاتلهم من أجله ..

إنه سيكون لأصبر الفريقين

وأكرم الجندين».

وخرج «هرمز» من وسط جنوده، إلى يمينه القائد قباذ وإلى يساره القائد الأشجان .. وصاح هرمز..

– أين خالد؟ فليبرز لى، كى يبارزنى.

وكان هرمز قد دبر مؤامرة لقتل خالد، إذ أمر جماعة من جنده أن يتربصوا به، وما أن يخرج من بين الجنود العرب حتى يهاجموه ويقتالوه.. وكان البطل العربى «القعقاع بن عمرو» يرقبهم كالصقر، وتمهل خالد وهو ينزل من فوق حصانه، وفجأة انقض على هرمز، ووثب عليه كالأسد ، واستطاع فى لمح البصر أن يقضى عليه..

وحين تحركت جماعة المؤامرة لم ينتظر القعقاع، وقفز إليهم يشتت شملهم بسيفه البتار.. واندفع الأبطال العرب يقاتلون ببسالة منقطعة النظير، وفى شجاعة لا مثيل لها.. واضطر الفرس إلى الهرب، والفرسان المسلمون يطاردونهم إلى أن حل الظلام ولم يتركهم «المثنى»، بل ظل يلاحقهم، وهم يفرون مهزومين..

ولجأ بعضهم إلى قلعة على الطريق كانوا يسمونها (حصن المرأة)، وقد

أمر المثنى شقيقه بمحاصرة هذا الحصن الذى يقيم فيه أميرة فارسية، بينما حاصر المثنى بنفسه القلعة التى أغلقها زوجها على نفسه، وهاجمها بعنف إلى أن استسلمت له.. فقضى على من فيها..

وعندما علمت الأميرة بما حدث، أمرت جنودها بأن يفتحوا أبواب الحصن للعرب الذين أحسنوا معاملتها .. فأسلمت وتزوجها شقيق المثنى !.

وغنم العرب الكثير.. نال كل جندى ألف درهم .. غير الأسلحة، واستولوا على حديد السلاسل الذي كان يزن الأطنان، واستطاع أن يحوله إلى سلاح يقاتل به ضد الفرس في معاركهم التالية.

وما أن تحقق النصر حتى قسم خالد ما غنمه المسلمون، وبعث بجزء من خمسة أجزاء إلى الخليفة أبى بكر الصديق فى المدينة المنورة، أما الباقى فقد وزعه على المقاتلين الشجعان الذين خاضوا المعركة وكان مما بعث به خالد إلى المدينة قلنسوة هرمز المحلاة بالجواهر الثمينة وفيل ضخم استولى عليه العرب كغنيمة حرب.. ولم يكن العرب قد شاهدوا فيلاً من قبل، إلا فيل أبرهة الحبشى الذى حاول أن يهدم به الكعبة فى ذات العام الذى ولد فيه الرسول ﷺ ..

وقد سارت الغنائم فى شوارع المدينة فى مظاهرة رائعة.. كانت معرض غنائم يتحرك، والناس تتجمع من حوله تشهد هذا الحيوان الضخم الذى ليس لهم به سابق معرفة، وقد سبقته الطبول تدق..

بل لقد أطلت النساء من وراء النوافذ تتطلع إلى هذه الأعجوبة، وتجمع حوله الأطفال فى خوف، ثم فى حذر.. وبعد قليل ألفوه، وتجرأوا على الاقتراب منه، والإحاطة به، وكثر عددهم حتى صاروا جمعاً كبيراً.. وكان يقود الفيل عربى مسلم اسمه (زر بن كليب)، والناس تنظر إليه فى إعجاب شديد.. بل لقد تصور البعض أنه من صناعة فارس، وتصايح آخرون.

- يا سبحان الله.. أمن خلق الله هذا؟

ولم يرض أبو بكر عن هذا الذى يجرى، وضاق به.. فنادى قائده (زر وأمره أن يعود بالفيل إلى العراق، فقد يستعين به خالد فى الحرب، إن كان يصلح لها.. ورغم عودة الفيل إلي خالد إلا أنه ظل لفترة طويلة حديث الأطفال والناس الذين شاهدوه، ولم ينسوه قط.

ولم يفت أبو بكر الصديق أن يرد إلى خالد «قلنسوة » هرمز التى كانوا يقدرون ثمنها بمائة ألف درهم.. فما كانت بهم حاجة بها فى المدينة المنورة.. حيث الزهد والتقوى.

انتصارات

١- السبق :

لقى هرمز قائد الفرس مصرعه على يد البطل خالد بن الوليد، الذى حقق انتصاراً رائعاً فى معركة «ذات السلاسل»، لكنه يعرف أنهم يتربصون به وبجنوده، ويريدون أن يثأروا لهزيمتهم، خاصة وقد تولى «أردشير» عرش كسرى وأعد جيشاً كبيراً، استعان فيه بالكثيرين من الأعراب الذين كانوا يعيشون فى هذه المنطقة، وجعل من «قارون» قائداً لهذا الجيش، وانضم إليه «أبو شجان» و«قباذ» من بين قادة جيش هرمز المهزوم.

وعند «ثنية» أو منحنى النهر عبر الفرس لملاقاة العرب الذين استعدوا لهم، وترصد خالد وجنوده القادة الثلاثة، وقتلوهم.. وإذا بجيش الفرس يصبح فى فوضى، وراح جنودهم يهربون والعرب يتعقبونهم، ويعملون فيهم السيوف.. وغرق كثيرون وهم يحاولون عبور النهر، متراجعين .. فى هذه الموقعة التى سميت «الثنية» نسبة إلى ثنية النهر، أو المذار نسبة للمكان الذى وقعت فيه.

اشتد غضب أردشير لهذه الهزيمة، فأعد جيشين لقتال العرب المسلمين .. وتجمع الجيشان عند مكان اسمه (الولجه)، وإذا بخالد يضع خطة يهاجم فيها الأعداء من الجناحين، ومن الخلف.. وتأخر هجوم هؤلاء، خلال المعركة التى استبسل فيها العرب إلى أن انقض جنودهم وفق الخطة الموضوعة، كالصاعقة، وأبادوا الفرس، الذين هربوا كالفئران.. حتى أن قائدهم هرب إلي الصحراء حيث مات عطشاً !

وتكرر استغاثة الفرس ببعض الأعراب فقاتلهم خالد فى عنف فى معركة اسمها (نهر الدم) لأن دم الأعداء سال كالنهر.. وقد كان خالد قاسياً عليهم كل القسوة، لأنه رأى فى موقفهم خيانة لقومهم وقوميتهم .. وقد فاجأهم وهم

يجلسون إلى موائد الطعام، لم يفرغوا منه.. وعندما استولى عليها جند العرب.. وجدوا أمامهم رقائق الفطير.. فقالوا لهم : قد رأوها من قبل بل ظنها بعضهم (ورقا) لونه أبيض، فقالوا لهم :

- هذه رقائق الخبز.

وسمى ذلك اللون من الخبز رقاقاً إلى اليوم.

بعث خالد بن الوليد إلى ملوك فارس، وإلى كل مرزبان فى مدينته رسالة، وقال فى هذه الرسائل..

«الحمد لله الذى حل نظامكم

ووهن كيدكم

وفرق كلمتكم

ولو لم يفعل ذلك بكم، كان شراً لكم

فادخلوا فى أمرنا ندعكم وأرضكم

ونجوزكم إلى غيركم

وإلا كان ذلك وأنتم كارهون.

على أيدى قوم يحبون الحرب كما تحبون الحياة»

أما الجنود العرب فخاطبهم خالد بن الوليد قائلا:

«لا تتعرضوا للفلاحين بسوء.

دعوهم فى شغلهم آمنين

إلا أن يخرج بعضهم لقتالكم

فأنئذ قاتلوا المقاتلين».

الأسطول

كان خالد يريد أن يصل إلى «الحيرة» فى سباقه مع «عياض» .. وبعث البطل بمن يأتيه بالأخبار.. عادوا ليقولوا: هناك أسطول نهرى كبير عند بلدة اسمها (مغيشيا).

فكر خالد فى الاستيلاء على هذه السفن ليستخدمها في فتح الحيرة، لكن البلدة منيعة.. كما قالوا له.. لقد ابتسم البطل، وهمس لنفسه.

– ما من بلدة «منيعة» عليك يا خالد.

ونادى الأبطال .. ازحفوا، وارتجفت البلدة، وإذا بأهلها يفرون منها تاركين كل شىء .. وكان الأسطول هو ما يريده خالد.. غير أنه أدرك أنه إذا ما بقيت المدينة فسوف يعود أهلها إليها، وسيكونون شوكة فى ظهره.. والحل أيها القائد العبقرى ؟.. فلنجعلها غير قابلة للسكنى، ولا تصلح لكى يقيم فيها أحد.. وقد كان...!

وعلمت الحيرة بما حدث فاستعدت للدفاع عن نفسها.. كانت بها أربعة حصون قوية، تحمى المدينة، وسكانها، وقد تجمع فيها الفرس وبعض الأعراب.. ورتبوا أنفسهم لمعركة طويلة، يصمدون فيها، بل ويردون العرب المسلمين بعيدا.. وقد وجد خالد أن السبيل إلى الحيرة هو أن يركب جنوده السفن فى نهر الفرات وينطلق بها شمالاً إلى الحيرة، لأن الصحراء شاسعة، والطريق طويل.. طويل. ولعل العرب يستخدمون السفن فى نقل جنودهم لأول مرة، وربما كان هذا أول «أسطول» عربى فى تاريخه. وكانت هذه هى البداية، وبلغوا القمة فيما بعد فى معركتهم البحرية «ذات الصوارى» بعد سنوات.

سمع المرزبان –أى القائد والحاكم– «أزاذن» بأخبار جيش خالد بن الوليد، وبأنه فى طريقه إلى الحيرة فى سفن تمر بنهر الفرات، فما كان من

المرزبان إلا أن أمر ابنه بأن يسد القناطر المقامة على نهر الفرات، لتقل المياه فيه، وتعجز السفن عن السير.

كان الجو طيباً، والريح تدفع بالسفن ومن فوقها الجنود العرب ينطلقون إلى الحيرة، وفجأة جنحت هذه السفن، وبدأت تصطدم بقاع النهر، وهذا يعنى أن الجنود العرب لن يكون فى مقدورهم أن يصلوا إلى هدفهم، ولن يتمكنوا من قتال المرزبان وقواته.

وفكر خالد بن الوليد فيما يجب عليه أن يصنعه.. وجاءته الفكرة.. وترك سفينته، وأخذ معه مجموعة من الأبطال، وانطلقوا على ظهور الخيل، إلى أن وصلوا إلى حيث يعسكر ابن المرزبان، عند القناطرالتى أغلقها .. وفاجأه البطل خالد، وهاجمهم بعنف، ففروا هاربين.. وفتح العرب القناطر، وتدفقت المياه فى مجرى النهر، وعادت السفن تبحر فيه من جديد، حاملة الصناديق.. بينما بقى خالد مع كتيبته يحرس القناطر حتى تظل المياه منسابة، ووصلت السفن إلى «الخورنق» حيث نزل الجيش العربى، واستعد لقتال الفرس.

الحيرة

استعد الجيش العربى الباسل بقيادة خالد بن الوليد لقتال الفرس .. وقسم البطل جيشه إلى أربع فرق، مهمة كل فرقة أن تهاجم واحداً من الحصون.

وكان المرزبان قد أعلن فى الحيرة أنه سيسحق سكان الصحراء القادمين إليه، وأن المعركة لن تستغرق إلا لحظات .. لكن ابنه نقل إليه ما فعله به خالد بن الوليد حين هاجمه عند القناطر، وما كان الابن يتصور أو يخطر فى باله أن العرب سيتنبهون إلى ما فعل، فلا خبرة لهم بالأنهار والسفن.

بل ظن أنهم سوف يؤثرون السلامة حين تتوقف مراكبهم فى الفرات، وأنهم سيعودون من حيث أتوا، لكن قدوم خالد إلى القناطر كان مفاجأة كبيرة، هرب الابن على أثرها لكى يبلغ أباه بما حدث، وإذا بالمرزبان هو الذى يؤثر السلامة ويفضلها، فما كان يدافع عن وطن أو دين، بل كان كل همه أن يستمتع بالمال والسلطة.. ولذلك هرب، تاركاً الحيرة، وأهلها لمواجهة زحف الأبطال العرب.

وشعر أهل المدينة بالقلق الشديد، وراحوا يتحصنون فى قلاع المدينة، ويختفون وراء أسوارها، استعداداً للدفاع عنها.. وكانت في الحصون آلات ترسل قذائف بعيدة المدى أسماها القدماء (الجزازيف).

وكان خالد -كعادته- قائداً إنساناً، فأنذرهم.. وعندما لم يستجيبوا لإنذاره، أمر جنوده أن يحتموا بالأديرة، ثم استولوا عليها، وذعر الرهبان من هذا الزحف، وإذا بالفرس يتساقطون كالذباب.. وإذا بالصناديد العرب يقاتلون ببسالة منقطعة النظير، وينتصرون انتصارات حاسمة، وصرخ أهل البلدة يسألون البطل خالد أن يكف عنهم جنوده.. فاستقبل زعمائهم.. الذين وصلوا للاتفاق على الصلح.

– هل أنتم عرب أو عجم ؟!.. إ كنتم عرباً، فما خوفكم منا؟ وإذا كنتم من العجم فلماذا تخافون العدل والانصاف ؟!

قالوا: نحن عرب عاربة، وأخرى متعربة. وها أنت ترى أنه ليس لنا لسان إلا العربية.

قال : كفوا عن الحرب فقد أتيتكم برجال هم أحرص على الموت منكم على الحياة.

وقبل أهل الحيرة دفع الجزية، وكانت مائة وتسعون ألف درهم.. وعقدوا معاهدة بذلك مع (خالد).. وحملوا إليه الكثير من الهدايا الثمينة والغالية وتقديرا لسماحته، فما كان منه إلا أن بعث بها إلى (المدينة).. وعندما تلقاها أبو بكر الصديق قبلها على أن تخصم من الجزية.

دخل خالد وجنوده الحيرة .. دخولها مهللين مكبرين .. ووقف خالد إماماً للأبصال يصلى بهم صلاة الفتح. انها ثمان ركعات متوالية لا يسلم فيها، وعندما أتم الصلاة قال لأصحابه.

– لقد قاتلت يوم مؤتة، فانقطع فى يدى تسعة أسياف،

وما لقيت قوماً كمن لقيت اليوم!

واتخذ خالد من الحيرة مركزاً للقيادة.. وترك أمور البلدة لأهلها، فشعروا بالأمن والاطمئنان وعملوا على نشر الهدوء والسكينة فيها، فاقبل كل سكان غرب الفرات علي خالد يعلنون عروبتهم ويرضون بدفع الجزية كما فعل أهل الحيرة.. وفرضت عليهم عشرة آلاف دينار.. وأعلن القائد الذى لا يهزم قط أن هذه الجزية مقابل حمايتهم ضد الفرس، وغير الفرس .. وأنه ملزم بردها إذا هو لم يدافع عنهم..

واشترط عليهم أن يكونوا عادلين فى جمعها، فيأخذون من كل فرد حسب ما يملكه، ولا يتقاضون من الفقراء إلا أقل القليل أما كسرى وأتباعه فإنهم لم يقبلوا الصلح، على الرغم من أن سيطرة العرب امتدت حتى تجاوزت نهر دجلة.. وبقى خالد فى الحيرة ينظم جنوده ويعد قواته ويستعد لمعركة فاصلة مع هؤلاء الذين ظنوا أن فى مقدرتهم أن يقاتلوا الأبطال العرب، وحسبوا أن امبراطوريتهم قادرة على الصمود فى وجه هذا الإيمان الزاحف عليها.

انتصارات

١- الفراض

انتصر خالد فى «الحيرة»، وكان لذلك النصر فرحة كبيرة عند العرب، فقد اشتهرت قبل الإسلام، وعرفها الناس بلدة النعمان، كما أنهم تناقلوا قصائد شاعرها الكبير : النابغة الذبيانى وغيره من أبنائها.

ولم يقبل أبو بكر خليفة المسلمين من خالد أن ينطلق أبعد مما ذهب إليه، فقد خشى كثافة جند الفرس، وهو آمن بجنده فى أرض النهرين، خاصة وقد انضم بعض المهزومين إلى الروم فى الشام، وخاف أبو بكر من أن يزحف الروم عليهم، فيصبح المسلمون بين نارين، وعلى هذا فلابد من الاستيلاء على دومة الجندل قبل أن تمضى جيوش المسلمين نحو عاصمة فارس.

وكان فى شمال العراق أرض يقال لها «الفراض»، اجتمع فيها بعض عرب البادية، ومعهم جيش من الروم، وكاد الفرس أن ينضموا إليهم عندما وثب إليهم سيف الله فى هجمة مفاجئة، زلزلت كيانهم.. وكان النهر ما بين جيش المسلمين وجيش الروم، وقالوا لخالد :

– أما أن تعبروا إلينا وأما أن نعبر إليكم !

ورد الداهية : اعبروا أنتم إن شئتم.

وعبرت جيوش الروم يساندها بعض أعراب البادية، ولم يتنبهوا إلى أنهم قد أصبحوا محصورين محاصرين : البحر من ورائهم، والمسلمون من أمامهم، وما أن تم عبورهم حتى بدأ خالد فى ارسال فرسانه إليهم، يعزلونهم بعضهم عن بعض، ويقطعون عليهم الطرق، ويضيقون المسالك.. وما أن تحتدم المعركة حتى ينجح أبطال المسلمين فى الايقاع بهم، وحصدهم حصداً، وإبادتهم.

وأمن خالد بذلك جبهة الشمال.

ولعلنا نتساءل :

– وأين عياض فى كل ذلك ؟

٢- الجندل

كان عياض ما زال يقاتل فى دومة الجندل .. وقد جاءت أوامر الخليفة إلى خالد أن يغيث جيش عياض، ويعينه، لذلك رأى خالد أن يسير شمالاً إلى كربلاء ليؤمن الحيرة وفيها مضى إلى «الأنبار» التى ضرب أهلها حولها خندقاً عميقاً.. ولم يكن لهم خبرة كبيرة بالحرب، فأمر خالد جنوده أن يصوبوا سهامهم عبر الخندق إلى عيون سكان البلدة، فأصيب كثيرون منهم، حتى تناقل الناس عبارة شهيرة تقول :

– ذهبت عيون أهل الأنبار!

وقد أعلنوا عن رغبتهم فى الصلح، لكن شروطهم لم تعجب البطل خالداً.. فاقتحم الخندق بعد أن أقام عليه جسراً.

واستسلمت المدينة فى هذه المعركة التى سميت (ذات العيون).

مضى خالد، وجيشه إلى حافة الصحراء، مرة أخرى.. لم يتجه إلي فارس، كان كالذى يرجع للوراء قليلاً ليقفز عبر حاجز مرتفع، أو حفرة عميقة.. وسار إلى (عين التمر).. وكانت فى ذلك الوقت عاصمة بنى تغلب وإيا، وقال أعراب هذا المكان لحلفائهم من الفرس :

– أتركونا نقاتل العرب القادمين.

العرب أعلم بقتال العرب !

وابتهج الفرس لذلك، وتركوا (عقة) قائد القوم يواجه جيش البطل خالد. وينتظرون هم نتيجة المعركة : إذا انتصر (عقة) فقد أراحهم من القتال، وإذا ضعف تدخلوا لمساعدته.

وتقدمخالد.

وحين يتقدم خالد، بجيشه، فهو العاصفة التى تقتلع كل ما يقف فى طريقها.. وأنزل بجنود عقة هزيمة ساحقة، واستطاع أن يأسر (عقة) نفسه، بينما بقى حصن (عين التمر) يقاوم.. أمر خالد أن يضرب عنق (عقة) أمام أسوار الحصن، تحت بصر جنوده وسمعهم.. وما أن شاهدوا هذا المنظر حتى انهارت مقاومتهم، واقتحم الجيش العربى الإسلامى الموقع، وخفقت من فوقه أعلامهم.

ولم يصبر خالد، بل انطلق بعد ذلك إلى «دومة الجندل» ليساعد (عياض) بناء على أوامر الخليفة .. فقد طال قتاله للأعداء هناك.. واستطاع خالد فى وقت قصير أن يوقع بهم الهزيمة وأن يقتلع حصونهم.. وأصبح الطريق بعد ذلك مفتوحا أمام جنود العرب المسلمين إلى عاصمة الفرس.

وعندما وصلت الأخبار إلى أبى بكر الصديق قال عبارته الشهيرة.

- يا معشر قريش

عدا أسدكم خالد

على أسد فارس فغلبها ..!

٣- معاهدات

عقد خالد مع أهل الحيرة معاهدة صلح.. جاء فيها.. « هذا ما عاهد عليه خالد بن الوليد

نقباء أهل الحيرة، ورضى بذلك أهل الحيرة،

وأمروهم به..

عاهدهم على مائة وتسعين ألف درهم.

تقبل فى كل سنة

وان غدروا بفعل أو قول

فالذمة منهم بريئة».

وكانت كتابة هذا العهد فى شهر ربيع الأول سنة اثنتى عشرة هجرية.

وساد الأمن والأمان الحيرة، وترفق القائد البطل بالفلاحين المظلومين، وحفظ لهم غلاتهم، وأنصفهم من حكامهم ومستغليهم، واستمع إلى شكاواهم، وأنصف الضعاف من الأقوياء، وتكفل - كحاكم - بالمسلمين وغير المسلمين وبالعبد إذا تحرر والغنى إذا افتقر وبالعائلة إذا انقطع عنها ربها.

وكانت الحرب مع الحيرة، والفرس، قد أكلت الأخضر واليابس، ولقى الناس فى أرض العراق مشقة كبيرة فى احتمال القتال.

ترى ماذا يفعل خالد ؟!

يقول :

«إنى دعوتهم إلى الله وإلى رسوله

فأبوا أن يجيبوا.

فعرضت عليهم الجزية والحرب.

فقالوا: لا حاجة لنا بحربك

ولكن صالحنا على ما صلحت عليه غيرنا.

من أهل الكتاب، فى إعطاء الجزية..

وشرطت عليهم عهد الله وميثاقه..

ألا يخالفوا ولا يعينوا كافراً على مسلم

من العرب ولا من العجم..

وان خالفوا لا ذمة لهم ولا أمان.

وجعلت لهم أيما شيخ ضعف عن العمل.

أو أصابته آفة من الآفات

أو كان غنياً فافتقر

وصار أهل دينه يتصدقون عليه

طرحت جزيته.

وعيل من بيت مال المسلمين وعياله

ولهم كل ما لبسوا من الزى

إلا زى الحرب

من غير أن يتشبهوا بالمسلمين فى لباسهم

وأيما رجل منهم وجد عليه شىء من زى الحرب

سئل عن لبسه ذلك

فإن جاء منه بمخرج

وإلا عوقب بقدر ما عليه من زى الحرب..

وشرطت عليهم جباية ما صالحتهم عليه

حتى يؤدوه إلى بيت المسلمين

فإن طلبوا عونا من المسلمين أعينوا به

ومؤنة القواد من بيت مال المسلمين».

كانت تلك المبادئ هى التى صالح عليها خالد بن الوليد أهل العراق، وامبراطورية الفرس.. معاهدات فيها من أخلاقه الشىء الكثير.. لقد غرس فيها الإسلام حب الإنسانية، والعدالة.

٣- المسيرة

قال أبو بكرالصديق وهو يختار خالد بن الوليد لقيادة جيش المسلمين فى الشام:

«لأنسين الروم .... وساوس الشيطان .... بخالد بن الوليد .....»

وكان أمام خالد قرابة الألف كيلومتر- بحسابنا اليوم- فى أرض صحراء جرداء، تتربص فيها وحوش جيوش كثيرة : الطبيعة، والحيوانات، والأعداء.. لكن متى خاف خالد كل هذا؟! متى تقاعس عن أمر يأتيه؟..

مما لا شك فيه أن رحلته السريعة إلى مكة كانت ماثلة فى ذهنه، لقد اتجه فيها إلى الجنوب الشرقى، وهاهو يتجه شرقاً، وسط بحار الرمال، والماء فيها شديد الندرة وليس أيسر من أن يضلوا الطريق.. وهو ليس مسؤولا عن نفسه فحسب، بل هو مسؤول عن جيش المسلمين وعدته عشرة آلاف، لذلك كان لابد وأن يحسن اختيار الطريق..

كان هناك أكثر من سبيل للوصول من العراق إلى الشام.. هناك ما هو سهل، قصير، يسير، به ماء وعشب لخيوله وإبله.. لكن هذا الطريق عليه حراس شداد، قد يقاومون جيشه، وينقضون على أطرافه، ويعوقون مسيرته، وهو يريدها سريعة خاطفة.. وهناك طريق ثان غير أنه طويل، يحتاج لوقت طويل.. وطريق ثالث قال عنه الدليل، العجوز، ضعيف البصر ..

«انك لن تطيق ذلك بالخيل والأثقال،

والله ان الراكب المفرد ليخافها على نفسه،

وما يسلكها إلا مغرور، انها خمس ليال جياد

لا يصاب فيها ماء، مع مضلقها».

هو طريق، مخيف، لا يتوقع أحد أنه يسلكه، وهو فى حاجة إلى مفاجأة

عدوه، وإلى اختصار الوقت، لذلك قال خالد..

«ان القوة تأتى على قدر النية

وأن المؤمن لا ينبغى له أن يكترث بشىء يقع فيه ، مع معونة الله».

ويضحك الجند والدليل ينصحهم بأن يكثروا من حمل الماء، ومن كان قادراً على أن يحتفظ بشىء منه فى أذن ناقته، فليفعل.. وانطلق خالد بجيشه على بركة الله.. مسرعاً، كالبرق.

ومضت أيام، ولم يبق غير يوم واحد، وفجأة يصيح الدليل:

- ضللنا الطريق!

- ماذا ؟!

- مفروض أن تكون هنا شجرة، بجوارها ماء.. إذا لم تجدوها فقد هلكنا جميعاً..

ويفتشون عن الشجرة وسط بحر الرمال، فلا يجدونها.. وينزل الأمر عليهم كالصاعقة.. ويناشدهم الدليل أن يحسنوا البحث، ويرتفع صوت واحد من الجند..

- هاهو جذر الشجرة.. يبدو أنها قطعت!

وهلل الدليل، والجند، إذ عثروا على الماء.. واستكملوا المسيرة الطويلة فى ثمانية عشرة يوماً، وهم يجتاحون كل شىء أمامهم، ويسكتون كل مقاومة.

وكان لقاء خالد وأبو عبيدة فيه فرحة ما بعدها فرحة.. خاصة وأبو عبيدة لم يكن يتوقع وصول الجند فى هذه الفترة القياسية، لذلك هلل الجند، وراحوا يكبرون وجيش الشام يقدم التهنئة للقادمين على هذا الإنجاز الكبير.. هم يعرفون كم هى طويلة وقاسية هذه الصحراء..

الـــــروم

١- الاستعداد

كان للمسلمين أربع معارك سابقة فى حربها مع الرم..

* غزوة مؤتة، واستشهد قادتها الثلاثة، وعاد خالد بالجند.
* غزوة تبوك، ولم يلتحم فيها الجيشان.
* جيش أسامة، ولم يحدث قتال يذكر بين الجيشين.
* جيش خالد بن سعيد، الذى لم ينتصر.

وكان لابد لحرب الروم أن تمضى وتستمر، لذلك وجه أبو بكر إلى الروم فى الشام أربعة جيوش، كل منها ما بين ستة آلاف وثمانية آلاف.

* جيش على رأسه يزيد بن أبى سفيان يتجه إلى دمشق.
* جيش ثان يقوده شرحبيل بن حسنة فى طريقه إلى الأردن.
* جيش ثالث مع عمرو بن العاص يمضى إلى فلسطين.
* جيش رابع بقيادة أبى عبيدة بن الجراح.

ووراء هذه الجيوش كان عكرمة بن أبى جهل فى جيش صغير يحمى ظهورهم، ويحرس المؤخرة، وينجد من يحتاج إلى النجدة.. وقد تقدمت الجيوش الأربعة بنجاح فى بعض الجبهات، وفى بطء فى جبهات أخرى، والروم يتصورون أن العرب مشغولون بحربهم مع فارس، وليس من السهل عليهم أن يحاربوا أعظم دولتين – فى ذلك الحين – فى وقت واحد.

واستعد هرقل قيصر الروم لملاقاة العرب بجيشين : واحد عند أنطاكية عدته قرابة ربع مليون جندى، والثانى قرب بيت المقدس فى سبعين ألف.. كان

الروم أكثر عدداً وعدة.. ورغم ذلك اقترح القيصر مصالحة المسلمين ودفع الجزية. واستقبل الروم وفداً من المسلمين، استقبله تيودور- شقيق هرقل- وهو قائد جند الروم، ودعاهم إلى خيمة تبدو مظاهر الثراء فى كل ركن منها..

كان قد صنع لنفسه خيمة من حرير، وذهب إليه وفد المسلمين ليعرض : الإسلام، الجزية ، الحرب.. وللروم أن يختاروا.. وكان أن رفض الوافد دخول الخيمة، ان دينهم يأمرهم بألا يفترشوا الحرير، فما بالكم بخيمة كاملة منه.. كما أن الروم لم يقبلوا شروط المسلمين.

وبدأ الجانبان يستعدان لمعركة حامية حاسمة.. وكان وصول جيش خالد بن الوليد بعد المسيرة الطويلة مفاجأة ضخمة للمسلمين، وكانت بشرة خير أن يأتى هذا المدد الكبير، وعلى رأسه سيف الله خالد بن الوليد، الذى لم يهزم فى معركة قط.

ومع وصول جيش خالد وصلت رسالة من أبي بكر الصديق ينصح جنده قبيل المعركة.. كانت الرسالة منهاجاً عظيماً لحرب عنيفة يخوضها المسلمون ضد أكبر امبراطورية فى تلك الفترة التالية .. قال الخليفة فى رسالته :

« اجتمعوا ..

فتكونوا عسكراً واحداً

والقوا زحوف المشركين بزحف المسلمين

فإنكم أعوان الله

والله ناصر من نصره

وخاذل من كفره

ولن يؤتى مثلكم من قلة

وإنما يؤتى العشرة آلاف والزيادة على القوة آلاف.

إذا أتوا من تلقاء الذنوب

فاحترسوا من الذنوب

واجتمعوا باليرموك

متساندين

وليصل كل رجل منكم بأصحابه».

وأتم كل من الجيشين استعداده.. ولقد اختار خليفة رسول الله ﷺ :
اليرموك لتكون هى المعركة والموقعة.

٢- اليرموك

وصلت رسالة الخليفة إلى خالد بن الوليد، فقرأها على القادة والجند، ثم قال لهم : وهذا يوم من أيام الله

لا ينبغى فيه الفخر ولا البغى

اخلصوا جهاركم

وارضوا الله بعملكم

ولقد علمت أن الدنيا خرفت بينهم .. فالله الله.

ان تأمير بعضكم لا ينقصكم عند الله

ولا عند خليفة رسول الله..

هلموا، فإن هؤلاء قد تهيئوا

وهذا يوم له ما بعده

ان رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردهم

وان هزمونا لن نفلح بعدها

فهلموا، فلنتعاور الامارة

فليكن عليها بعضنا اليوم، والآخر غداً والآخر بعد غد حتى يتأمر كلكم

ودعونى أقيم اليوم».

ويوافق القادة والجنود على أن يتولى خالد بن الوليد زمام القيادة، ويبدأ يوزع جنده : كان فى القلب أبو عبيدة ومعه عكرمة والقعقاع، وعلى الميمنة عمرو بن العاص، وعلى الميسرة يزيد بن أبى سفيان.. ومن خلف هذه الجيوش وقفت النساء.. ولهن دور.. ما أن يحاول مسلم أن يتقهقر حتى تنهال عليه الأحجار

منهن، وترفع الواحدة طفلها، وهى تهتف :

- قاتل عن أهلك.. وعن الإسلام.

بل لقد أمرهن خالد بقتل كل من يحاول الهرب من المعركة.

وألقيت الكلمات الحماسية، وانشدت القصائد، ودقت الطبول، وارتفعت أعلام المسلمين وخرج من بين الروم قائد يقول لخالد بن الوليد :

- لقد علمنا أنكم خرجتم من بلادكم بسبب الجوع والفقر، فإن أردتم أعطينا كل واحد منكم عشرة دنانير، وثوبا، وطعاماً.. وترجعون إلى بلدكم، وفى العام القادم نرسل لكم بمثلها.

ولا يغضب خالد، بل يرد فى حزم وقوة.

- ما أخرجنا الجوع من بلادنا، لكننا خرجنا لنؤدى الرسالة، ونحمل الأمانة، ونشر الإسلام - دين الحق والعدل - فى كل أرجاء الدنيا.

وخرج قائد آخر يسأل سيف الله..

- هل حقاً أنزل الله على نبيكم

سيفا من السماء فأعطاه ك

إذا قاتلت به انتصرت؟

- لا..

- لماذا سماك سيف الله المسلول؟

- تبعته عليه الصلاة والسلام ، وقاتلت

من أجل الإسلام، فقال لى: أنت سيف.

من سيوف الله، سله الله على

المشركين.. ودعا لى بالنصر.

ومنذ ذلك الحين أصبحت أحمل هذا اللقب.

وعاد كل إلى صفوفه.

وفجأة علا صوت خالد بن الوليد بكلمة السر، وهو يرفع راية المسلمين عالية خفاقة.. هتف قائلاً :

– الله أكبر.. هبى يا رياح النصر!

وبدأت المعركة.

تقدم الروم بجحافلهم، وضغطوا بأعدادهم الكثيرة على جيش المسلمين، وكان من الطبيعى أن يتراجع هؤلاء قليلا، وهنا صاحت بهم النساء :

– إلى أين يا حماة الإسلام وطلاب الشهادة؟

ويصمد الفرسان، ويكرون هاجين على الروم بعنف ما بعده عنف، وقوة ما بعدها قوة، ومما لاشك فيه أن كثيرين منهم قد تذكروا كلمة الرسول ﷺ بعد معركة مؤتة :

– انهم الكرار، بإذن الله !

لقد كروا على أعدائهم وتساقط الشهداء الأبطال ومنهم عكرمة وولده، لكن ذلك لم يفت فى عضد المسلمين، بل اندفعوا كالقذيفة نحو جيش الرورم يوقعون به أكبر هزيمة لقيها فى تاريخه.

وتراجع هرقل هارباً، إلى بيزنطة، مودعاً الشام وداعاً لا لقاء بعده، وراحت المواقع والحصون تنهار تحت ضربات الأبطال، وارتفعت أصوات المسلمين تسبح بحمد الله، أن جاء نصر الله والفتح، ورأوا الناس يدخلون فى دين الله أفواجا.

وفقد خالد قلنسوته يوم اليرموك، فأمر جنده بالبحث عنها، وقد أضناهم ذلك، إلا أنهم لم، يعثروا عليها.. ولكنه ألح فى أن يواصلوا البحث والتنقيب والجميع فى دهشة لهذه القلنسوة البسيطة، والتى يمكنه أن يستعيض عنها بغيرها من الغنائم الكثيرة التى فاز بها بعد النصر، لكن سيف الله أصر على أن يجدوا له هذه القلنسوة، واستمر البحث إلى أن وجدوها وقد بليت وتمزقت، وأصبحت غير صالحة لأن يلبسها.

وقد تهلل خالد عند العثور عليها، وأجاز من وجدوها بجائزة كبيرة، والجميع فى دهشة، لكنه أزال دهشتهم بقوله :

- اعتمر النبى ﷺ

فحلق رأسه فابتدر الناس بشعره

فسبقتهم إلي ناصيته فجعلتها فى

هذه القلنسوة فلم أشهد قتالاً

وهى معى إلا تبين لى النصر.

٣- الجندى

كانت معركة اليرموك محتدمة مشتعلة، وخالد يقود أبطالها إلى النصر المؤزر حين وصلت من المدينة رسالة تحمل خبراً محزناً.. لقد ودع أبو بكر الصديق خليفة رسول الله ﷺ الحياة، وتولى من بعده عمر بن الخطاب.

وكان فى بريد المدينة قرار للخليفة الجديد بتنحية خالد ابن الوليد عن قيادة جيوش المسلمين، وأن يعود أبو عبيدة فيتولاها من جديد.

أدرك خالد بن الوليد أن هذين الخبرين من الممكن أن يضعفا من موقف المسلمين فى معركتهم، لذلك أخفى أمر البريد عن المقاتلين، بل طلب من حامل الرسائل ألا ينطق بكلمة واحدة، أو يتصل بأحد من الجند، وواصل البطل إدارة المعركة ببسالة ورباطة جأش، والله وحده يعلم كيف كانت تجيش نفسه بالحزن على أن أبى بكر الصديق، كما أن أحداً لا يمكنه أن يتصور ماذا يدور فى خلده بالنسبة لأمر إبعاده عن القيادة، ولا كيف يتصرف بعد أن تلقى الرسالة.

ويتحقق النصر، وهو نصر كبير.

وتنتهى المعركة، ويعلن خالد ما جاء بالرسالتين .. ويتقدم باللواء إلى أبي عبيدة بن الجراح. ويسلمه القيادة، ويعلن أنه قد أصبح واحداً من جنوده لا أكثر ولا أقل، وهو الذى انتصر فى المعركة منذ لحظات قصيرة.. ويتساءل الناس :

- كيف يحدث هذا؟ ولماذا؟

ويرد خالد عليهم :

- لا يعنينى أين أكون فى المعركة

ما دمت أقاتل فى سبيل الله وحده

ويهتز الجند للرد، ويتساءلون

- لما فعل الخليفة هذا؟

ويأتيهم الرد من المدينة.

- إن الخليفة يخاف أن يظن الناس أن الإسلام قد انتصر بخالد، وليس بإذن الله !

ويطول الأخذ والرد.. ويرتفع صوت:

- وهل ينتصر خالد إلا بإذن الله؟

ويخلد القائد المنتصر إلي الصمت.. ويطول صمته.. وينطلق محارباً : جنديا فى جيش أبى عبيدة !

قنسرين

دخل جيش يزيد بن أبى سفيان دمشق، بعد أن استسلم أهلها، مؤثرين السلام، راضين بدفع الجزية.. وتوسط لهم أبو عبيدة بن الجراح، حتى لا يعاملوا معاملة المنهزمين المقهورين فتصادر أموالهم، وتسبى نساؤهم.. وكان أن نزل خالد بن الوليد على رأى أبى عبيدة .. قائد الجيوش!

وكان الروم يتربصون بالمسلمين، ووجد القائد توذر أن الفرصة سانحة له لكى يهاجم جيش يزيد، هجوماً مفاجئاً، بيت له بالليل، ورتب أموره.. لكن عين الصقر خالد لا تغفل، ولا تنام.. انه يرقب تحركات الروم، وما أن بدءوا الزحف على دمشق حتى كان مع أبى عبيدة من ورائهم يقتفى أثرهم.. وأبلغ «يزيد» بالأمر، وإذا بجيش الروم قد حوصر بين نارين، وهزمه المسلمون شر هزيمة، وتخلصوا من توذر إلى الأبد.

وكانت هناك جيوب للروم في المناطق التى فتحت أبوابها للمسلمين، وبقيت هذه الجيوب تقاتل، وتتآمر، ومن بينها حصون كانت فى (قنسرين).. وقد حاصرها خالد بن الوليد، وقاومت مقاومة شديدة، ورفضوا أن يستسلموا، فما كان من سيف الله إلا أن أنذرهم..

«لو كنتم فى السحاب ... لحملنا الله إليكم ... أو لأنزلكم إلينا !».

وعندما اشتدت المعركة ورغب رجال هذه الحصون وقادتها فى الصلح، ورفض خالد ذلك، وأبى إلا أن يدك هذه الحصون، ويخرب المدينة، لكى تعرف المدن الأخرى المصير الذى ينتظرها إذا هى استمرت فى المقاومة.

واختير خالد بن الوليد حاكما للمدينة.

من الذى ساعد فى نشأة
الولايات المتحدة الأمريكية(١)

يظن كثير من الناس أن أمريكا هى الراعية الأولى لإسرائيل، وأن إسرائيل هى الولاية الحادية والخمسون من الولايات المتحدة الأمريكية.. وأن أمريكا هى الدولة الأم للصهيونية ..!!

كل ذلك ظن ووهم ..!!

ولكن ماهى الحقيقة ؟!

الحقيقة ياسادة أن إسرائيل هى التى ساعدت بل هى التى خططت ونفذت لقيام الدولة الأمريكية بشكلها الحالى.. وأن أمريكا هى نفسها إسرائيل، وإسرائيل هى أمريكا.

ودعونا نقرأ التاريخ كى نتعلم !!

فإسرائيل كدولة ليست حديثة الولادة بل هى دولة قديمة، ظهرت ودمرت ثم ظهرت ثم دمرت، ثم ظهرت بشكل آخر مختلف عن سابقتيها، وكما أقامت إسرائيل أمريكا على أرض لا تملكها بل هى ملك للهنود الحمر، فإن إسرائيل أقامت دولتها القديمة على حساب شعوب أخرى وهم العماليق «الشعب الفلسطينى» ونعود إلى القصة من بدايتها.

الأرض المقدسة :

العرب هم أول من عمر الأرض التى تدعى إسرائيل اليوم أنها أرضها المقدسة التى وعدها الرب لإسرائيل «يعقوب -عليه السلام» كان أول الذين سكنوها هم قبائل عربية من الجزيرة العربية هاجرت إليها بسبب نقص المياه

---

(١) نهاية ودمار أمريكا وإسرائيل - منصور عبد الحكيم - م. التوفيقية

فى أرضهم، قبل الميلاد بنحو ثلاثة آلاف عام، وجاء غيرهم من القبائل العربية وجاوروهم فيها، وأشهر تلك القبائل هم الكنعانيون الذين استقروا على ضفاف نهر الأردن وسميت الأرض باسم أرض كنعان.

وعلى الساحل المطل على البحر المتوسط وهى أرض فلسطين المحتلة.. الآن استقرت قبائل تسمى فلستين من جزيرة كريت، واختلطوا بالكنعانيين وعاشوا معا وغلب على نسلهم الدم العربى.

وأما بنو إسرائيل والذين هم أبناء سيدنا يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن - عليه السلام-، وكان موطنه أرض العراق، الذى ينسب إلي الأشوريين، فقد هاجر مع أهله وذريته إلى أرض كنعان وسموا بالعبرانيين لعبور نهر الأردن.

وعاش أبناء يعقوب -عليه السلام- الاثنا عشر فى هذه المنطقة منعزلين عن باقى السكان، فى عهد إسرائيل «يعقوب -عليه السلام-» هاجر هو وذريته بنو إسرائيل إلى مصر حيث كان ابنه يوسف -عليه السلام- الذى كاد له إخوته من أبيه أن ينفوه من الأرض، وأراد الله به خيراً أن جعله وزيراً مطاعاً لدي ملك مصر وقتها، وأرسل فى طلب أهله فجاءوا إليه وعاشوا ردحاً من الزمان فى مصر حتى كثر عددهم، وحدث ما حدث لهم فى مصر الدولة الفرعونية، بعد انتهاء احتلال الهكسوس لمصر، واضطهد فرعون مصر بنى إسرائيل لأنهم ساعدوا الهكسوس المحتلين لبلاد مصر فى عصر يوسف - عليه السلام- ، وأرسل الله إليهم موسى -عليه السلام- كى يخلصهم من عذاب واضطهاد فرعون لهم كما يحكى القرآن الكريم فى كثير من آياته الكريمة :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ

(٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ (٦٠) فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ (٦٤) وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٦٦) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦٨) ﴾ [الشعراء].

وقيل إن عدد بنى إسرائيل حين خرجوا من مصر ستمائة ألف رجل مقاتل غير الذرية، وكان عددهم حين جاءوا مصر زمن يوسف -عليه السلام- بصحبة أبيهم يعقوب -عليه السلام- قليل لا يتجاوز أولاد يعقوب العشرة وأولادهم ويوسف وأخيه بنيامين وعاشوا فى مصر نحو أربعمائة سنة وستا وعشرين.

وخرج موسى -عليه السلام- ببنى إسرائيل من مصر، وتوجه تلقاء بيت المقدس وكان بها قوم جبارون من الحيثيين والكنعانيين وغيرهم.

وأمرهم موسى -عليه السلام- بدخول الأرض المقدسة ومقاتلة من فيهم لأن الله وعدهم بتلك الأرض، ولكن رفضوا وسلط الله عليهم الخوف، وقالوا لموسى -عليه السلام- : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون، وهذا ما حكاه القرآن الكريم قال تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ (٢٠) يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ

فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢) قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٣) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٦) ﴾ [المائدة].

وهكذا رفض بنو إسرائيل الاستجابة لأمر الله، وجاء حكم الله عليهم بالتيه أربعين سنة، ولم يدخل من كان منهم رجل شاب الأرض المقدسة، حتى أنقضت الأربعون عاماً وهم يتيهون فى صحراء سيناء، ودخلت الذرية من بنى إسرائيل الأرض المقدسة بقيادة نبى الله يوشع بن نون - عليه السلام- بعد وفاة موسى وهارون - عليهما السلام-.

وعاش بنو إسرائيل فى الأرض المقدسة فترة من الزمان حتى أفسدوا فى الأرض وعادوا عصيان أوامر الله، فسلط الله عليهم العماليق فهزموهم وقتلوا منهم خلقاً كثيراً وسبوا أبناءهم، وانقطعت فيهم النبوة حتى بعث الله فيهم شمويل -عليه السلام-، وكان بين موت يوشع وبعثة شمويل أربعمائة سنة.

وجاء بنو إسرائيل إلى نبى الله شمويل -عليه السلام- يطلبون منه أن يختار لهم ملكاً منهم يقاتلون معه فى سبيل الله أعداءهم وجاء ذكر تلك المرحلة فى القرآن الكريم فى سورة البقرة قال تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ

ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٤٨) فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١) ﴾ [البقرة].

واختار الله لهم طالوت بن أقيش بن أفيل وهو من نسل بنيامين بن يعقوب بن إبراهيم -عليهم السلام-، وقبل بنو إسرائيل طالوت ملكاً عليهم بعد جدال مع

نبيهم لأنه كما حكى القرآن أرادوا ملكا ذا مال ومن سبط يهوذا، لأن النبوة فيهم كانت من سبط لاوى والملك من سبط يهوذا.

وكان طالوت فقيراً لا مال له ولكن الله زاده بسطة فى الجسم والعلم، بالإضافة إلى أنه اختيار الله سبحانه وتعالى، وقبل بنو إسرائيل طالوت ملكا عليهم وعلى مضض كعادتهم وعهدهم مع أوامر الله وأنبياء الله.

وكانت آية الملك لطالوت أن جاءهم تابوت السكينة، الذى سلب منهم وكانوا ينصرون به على أعدائهم، وبقية مما ترك آل موسى وهارون، قيل كان فيه رضاض الألواح وشىء من المن الذى تنزل عليهم من السماء فى فترة التيه تحمله الملائكة، وكان ذلك آية الملك لطالوت.

ولكن الأمر لم ينته عند ذلك فقد عصوا أمر ملكهم الذى قال لهم حين أراد أن يعبر بهم النهر فقال لهم : إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فإنه منى إلا من اغترف غرفة بيده، كان هذا هو الامتحان الأول قبل لقاء الأعداء، ولم ينجح فيه بنو إسرائيل.. فشربوا منه إلا قليلا منهم، وكان الجيش مكوناً من ثمانين ألف مقاتل شرب منه ستة وسبعون ألفاً، وأطاعه أربعة آلاف فقط، قال السدى وهذا القول فيه نظر، لابن البراء ابن عازب قال : كنا أصحاب محمد ﷺ نتحدث أن عدة أصحاب بدر على عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر ولم يجاوز معه النهر إلا بضعة عشر وثلثمائة مؤمن. وهذا هو الرأى الأصوب.

وثبت مؤمنو بنى إسرائيل الطائعون لأمر الله، وقالوا حين رأوا كثرة عدد جيش جالوت : كم فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين.

وهكذا تحقق النصر لهم قال تعالى : ﴿ فهزموهم بإذن الله ﴾ بل وقتل جالوت قائد جيش العدو على يد داود -عليه السلام- الذى أصبح فيما بعد الملك النبى لبنى إسرائيل بعد موت طالوت.

نشأة دولة بنى إسرائيل الأولى

حين رفض بنى إسرائيل الامتثال لأوامر الله بدخول الأرض المقدسة، ودعا موسى ربه أن يحكم بينه وبين هؤلاء القوم الضالين الذين عصوا أمره، فجاء حكم الله عليهم بالتيه أربعين سنة، وتوفى هارون -عليه السلام- فى فترة التيه قبل موسى -عليه السلام-، وتوفى بعده موسى -عليه السلام-.

وقاد يوشع بن نون - عليه السلام - بنى إسرائيل إلى الأرض المقدسة، فذكر أهل التاريخ أنه قطع بنى إسرائيل نهر الأردن وانتهى إلى أريحا، وهى أحصن المدائن سوراً وأعلاها قصوراً، وأكثرها أهلاً، فحاصرها ستة أشهر، ثم أحاطوا بها يوما وضربوا بالأبواق وكبروا تكبيرة رجل واحد فسقط سورها ودخلوها وانتصروا على ملوك الشام، وقيل إن حصارها انتهى يوم الجمعة بعد العصر، فلما غربت الشمس أو كادت تغرب، ويدخل عليهم السبت الذى شرع لهم إجازة لا عمل فيه، قال لهم نبيهم يوشع بن نون -عليه السلام- أى للشمس- : إنك مأمورة وأنا مأمور، اللهم أحبسها على، فحبسها الله عليه حتى تمكن من فتح البلد.

وأمرهم يوشع بن نون أن يدخلوا من باب المدينة أن يدخلوها سجداً أى ركعاً متواضعين شاكرين لله عز وجل ويقولوا: حطة، أى حط عنا يارب خطايانا التى سلفت منا. ولكنهم خالفوا أمر الله أيضا وبدلوا فدخلوا المدينة يزيحفون على استاهم وهم يقولون ، حنطة فى شعر أو حبة فى شعر.

﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٦٢) ﴾ [الأعراف].

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٥٩) ﴾ [البقرة].

قال ﷺ : «دخلوا الباب الذى أمروا أن يدخلوا فيه سجداً وهم يزحفون على أستاهم وهم يقولون : حنطة فى شعيرة».

وقال أيضا : « قيل لبنى إسرائيل : ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم» فبدلوا فدخلوا يزحفون على استاههم وقالوا: حبة فى شعرة».

وعاش يوشع بن نون بين أظهرهم يحكم بكتاب الله التوارة حتى توفاه الله وهو ابن مائة وسبع وعشرين سنة.

وعاشت بنو إسرائيل في الأرض المقدسة وأرض الشام، وانتصروا علي أهلها، ثم عصوا أوامر الله وعظمت منهم الخطايا وقتلوا الأنبياء فسلط الله عليهم ملوكا منهم جبارين ظالمين، وانتصر عليهم أعداؤهم وهزموهم وأخذوا منهم التابوت الذى كانوا ينتصرون به فى معاركهم، ومات ملكهم كمداً وحزناً على ما أصابهم من هزيمة وتشريد فى الأرض.

فكانت فترة ملكهم فى الشام من وفاة يوشع بن نون إلى شمويل عليهما السلام أربعمائة سنة وستين، ولذلك طلبوا من شمويل أن يختار لهم ملكا يقاتلون معه ويدخلوا الأرض المقدسة مرة أخرى كما أوضحنا فكانت الفترة السابقة على حكم طالوت هى فترة حكم الملوك والتى سبقها حكم الأنبياء فيهم وانتهت فترة حكم الملوك بطردهم من الأرض المقدسة والشام حتى بعث الله عليهم شمويل الذى ذكرناه وتم دخولهم مرة أخرى الأرض المقدسة فى عهد النبى شمويل بقيادة الملك الجديد المختار من الله طالوت.

فترة حكم

داود وابنه سليمان

ذكرنا أن الذى قتل جالوت قائد العمالقة هو داود - عليه السلام- كما أخبرنا بذلك القرآن الكريم:

﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١) ﴾ [البقرة].

وكان داود -عليه السلام- هو أول الأنبياء الملوك، وقد آتاه الله من فضله الكثير قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١) وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (١٣) ﴾ [سبأ]

وكان داود -عليه السلام- يصوم يوماً ويفطر يوماً، وأعطي فقها فى الدنيا، وكان يصل معظم الليل.. قال ﷺ عنه : «أحب الصلاة إلى الله صلاة داود وأحب الصيام إلى الله صيام داود، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً ولا يفر إذا لاقى».

وقال ابن عباس ومجاهد : «إن الجبال كانت تسبح معه عند آخر النهار وأوله» فقد كان ذا صوت شجى عظيم، فتشاركه الطير فى التسبيح لله.

وعظم أمر داود -عليه السلام- فى بنى إسرائيل وخضعوا له قال تعالى :

﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٢٥﴾ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [ص].

وكان اليهود فى زمن النبى ﷺ يقولون عنه : «انظروا إلى هذا الذى لا يشبع من الطعام ولا والله ماله همة إلا إلى النساء». حسدوه لكثرة نسائه وعابوه بذلك فقالوا: «لو كان نبياً ما رغب فى النساء» وكان أشدهم فى ذلك حيى بن أخطب، فأكذبهم الله وأخبرهم بفضل الله وسعته على نبيه ﷺ فقال :

﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ ﴾ [النساء]

فقد كان لداود مائة امرأة وابنه سليمان ألف امرأة.

ومات داود - عليه السلام وقد بلغ مائة عام، وورثه فى الحكم والنبوة أبنه سليمان - عليه السلام-. قال تعالى :

﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦) ﴾ [النمل : ١٦].

والمراد بالميراث هنا ميراث النبوة والملك، لأن الأنبياء لا تورث فى المال، فما تركوه صدقه، وهذا ما أفتى به الخليفة أبو بكر الصديق حين طالبته السيدة فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ بميراث أبيها فقال لها سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا نورث، ماتركناه صدقة».

وهب الله سليمان -عليه السلام- ملكا لم يكن لأحد من بعده، وذلك استجابة لدعائه الذى دعا به الله :

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (٣١) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢) رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (٣٣) وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (٣٤) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ (٣٥) فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٣٨) هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩) ﴾ [ص].

وكان من جنوده الطير والحيوانات والجن والشياطين، الكل يعمل تحت إمرته ورأيه من يعصه فى أمر من الأمور يذقه من العذاب فى الحال.

لقد كان ملك سليمان -عليه السلام- ملكا عظيما، كما كان لأبيه أيضا ذلك الملك، وامتد ملك سليمان -عليه السلام- حتى شمل ملك الأرض كله، فقد ملك الأرض أربعة من الملوك، اثنان مؤمنان هما سليمان وذو القرنين، وكافران هما النمرود وبختنصر ويملكها خامس مؤمن هو المهدى المنتظر عليه السلام آخر الزمان.

وسخر الله لسليمان -عليه السلام- الريح، فكان يأمرها أن تحمل البساط الذى صنعه من الأخشاب وهو يسع حمل جميع ما يحتاج إليه من الدور والقصور والخيام والأمتعة والخيول ومن الأحياء الإنسان والجن والحيوانات والطيور فإذا أراد سفراً أو قتال عدو أمر الريح أن تحمل البساط بمن عليه إلى المكان الذى يريده، بحيث إنه كان يرتحل فى أول النهار من بيت المقدس فتغدو الريح به فتضعه فى بلاد تبعد عنه مسيرة شهر سفراً ثم يعود آخر النهار إلي بيت المقدس.

قال تعالى : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (١٣) ﴾ [سبأ]

وقال الحسن البصرى -رحمه الله- : كان يغدو من دمشق فينزل بأصطخر فيتغدى بها ويذهب رائحاً منها فيبيت بكابل وبين دمشق وأصطخر مسيرة شهر وبين أصطخر وكابل مسيرة شهر

وقال ابن كثير : قد ذكر المتكلمون عن العمران والبلدان أن أصطخر بنتها الجان لسليمان وكان فيها مملكة الترك قديماً، وكذلك غيرها من البلدان شتى كتدمر وبيت المقدس وباب حبرون وباب البيد اللذين بدمشق على أحد الأقوال، والقطر الذى ذكر فى الآية الكريمة هو النحاس كما قال ابن عباس وغيره. لقد كان ملك سليمان -عليه السلام- ذا شأن عظيم، ولذلك فإن اليهود حديثا يسعون إلى إقامة مثله ولكن هيهات أن يكون لهم مثل ذلك. واستمر ملك سليمان -عليه السلام- قرابة الأربعين عاماً.

انتهاء مملكة بنى إسرائيل

وتذكر الأخبار أن سليمان -عليه السلام- قال لملك الموت : إذا أمرت بى فأعلمنى، فأتاه فقال يا سليمان قد أمرت بك قد بقيت لك سويعة.. فدعا سليمان الشياطين فبنوا له صرحاً من قوارير ليس له باب. فقام يصلى فاتكأ على عصاه. فدخل عليه ملك الموت فقبض روحه وهو متكئ على عصاه ولم يصنع ذلك فراراً من ملك الموت، وظلت الجن والشياطين تعمل بين يديه وهم يحسبون أنه حى، حتى بعث الله دابة الأرض تأكل من عصاه حتى أكلت جوف العصا وثقل عليها فخر على الأرض، ورأته الجن وعلمت بموته، وعلم الناس الذين كانوا يعتقدون أن الجن تعلم الغيب أنهم على خطأ فى ذلك.

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾ [سبأ].

وهذا الخبر ذكره ابن كثير عن أصبغ بن الفرج وعبدالله بن وهب، وروى عن جماعة من المسلمين مثل ذلك، وما ذكره الطبرى فى تاريخه حول موت سليمان -عليه السلام- فيه من الإسرائيليات التى لا تصدق ولا تكذب.

فى عهد سليمان -عليه السلام- تم بناء بيت المقدس وجاء على ملك بنى إسرائيل من بعد ابنه «رصبعام بن سليمان» فحكم بنى إسرائيل سبع عشرة سنة.

وانقسم بنو إسرائيل بعد موت سليمان -عليه السلام- إلى قسمين، أحدهما بايع رصبعام بن سليمان على الملك، والآخرون بايعوا ابن سليمان الثانى «يربعام» على ملك بنى إسرائيل.

وحين اشتد الخلاف بينهما، اتفقوا على تقسيم مملكة بنى إسرائيل إلى

دولتين، الأولى مملكة الجنوب وعاصمتها القدس ومملكة إسرائيل وعاصمتها نابلس.

وعاد بنو إسرائيل إلى سابق عهدهم من الفساد وقتل الأنبياء، فسلط الله عليهم أعداءهم فدمر ملك الإغريق «سرجوس» مملكة الشمال عام ٧١٢ق.م. ودمر فرعون مصر عام ٦٠٨ق.م. مملكة الجنوب وأراد احتلال مملكة الشمال فتصدى له بختنصر ملك بابل الجديد وقتها وهزم جيش المصريين واحتل مملكة الشمال والجنوب، ودمر الهيكل الذى بناه سليمان -عليه السلام، وقتل من قتل من بنى إسرائيل، وأخذ من تبقى أسرى معه إلى بابل سبايا، وسميت تلك الفترة فى التاريخ اليهودى بعصر السبى البابلى وفيها كتب اليهود التلمود. وتفرقت بنو إسرائيل منذ ذلك الزمان فى البلاد، فمنهم من عاش بالحجاز ويثرب ومصر، وقد طلب ملك بابل بختنصر من ملك مصر رد اليهود الهاربين عنده فرفض، فتقدم إليه بختنصر فى جيشه وغلبه وسبى اليهود الذى فروا إلى مصر، ووصل إلى أرض المغرب ثم عاد إلى بلاده ومعه سبى كثير من أرض المغرب ومصر واليهود.

وتحكى كتب التاريخ والسيرة أن بختنصر قدم بيت المقدس فصالحه ملك اليهود من آل داود وأخذ منه بختنصر رهائن ورجع، فلما بلغ طبرية علم أن بنى إسرائيل ثاروا على ملكهم وقتلوه لأنه صالح بختنصر، فقتل من معه من الرهائن وعاد إليهم فدمر مدينة القدس وقتل من قتل منهم وأخذ البقية أسرى وسبايا.

وكان فى بنى إسرائيل زمان هذا الخراب والدمار نبى لهم هو «أرميا» الذى أمره الله أن يعظ وينصح بنى إسرائيل حين تفشى ظلمهم وطغيانهم وارتكابهم المعاصى، وفى نفيهم أمر الله وكتابه، فكذبوه وسجنوه، وحين سلط عليهم الله بختنصر فهزمهم وأخزاهم، أخرج نبى الله أرميا من السجن وقص عليه أرميا ما حدث منهم له فقال له بختنصر لبئس القوم قوماً عصوا رسول الله، وخلى سبيله وأحسن إليه.

عمارة بيت المقدس مرة أخرى

بعد هلاك بختنصر ملك بابل، وفى عهد الملك قورش الأخمينى (ملك الفرس) استطاع اليهود العودة مرة أخرى إلى بيت المقدس وإعادة بناء المدينة عام ٥٣٨ق.م.

ويذكر ابن كثير فى قصصه وتفسيره أن بناء بيت المقدس وعمارتها بعد هلاك بختنصر والملك الذى بعده وهو لهراسب وجاء بعد ولده بشتاسب وعلم أن المقدس قد سكنها السباع والحيوانات، ولا يوجد بها إنسان حى يعيش فيها، نادى فى بابل وبنى إسرائيل أن من شاء أن يرجع إلى الشام، وملك عليهم رجلاً من نسل داود عليه السلام، وعاد البعض إلى الشام لعمارة بيت المقدس ويقى البعض فى بابل وهم ما يسمون يهود الجمهوريات الروسية ويهود إيران.

وذكر ابن كثير قول من قال إن النبى أرميا عليه السلام هو المقصود فى قوله تعالى :

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩)﴾ [البقرة].

وأن القرية هى القدس وأن أرميا نام مائة عام ثم بعثه الله وفى زمنه أعيد بناء مدينة القدس مرة أخرى.

ولكن ابن كثير لم يرجح هذا القول، وأيد ما اشتهر عن السلف وغيرهم

من الصحابة أمثال ابن عباس وعبدالله بن سلام من أن المقصود فى الآية هو العزير النبى الذى أعاد كتابة التوراة بعد أن بعثه الله مں نومه مائة عام مرة أخرى، واعتقد اليهود فيما بعد أنه ابن الله

ولكن المعلوم تاريخيا كما ذكرنا أن القدس تم إعادة بنائها فى عصر الملك قورش الأخمينى وظلت تحت الحكم الفارسى.

أما عن بناء هيكل سليمان مرة أخرى فقد تم فى عهد حكم الرومان لبلاد الشام عام ٦٣ق.م. فى عهد الحاكم الرومانى «هيرودس»[1] الذى أعاد بناءها استرضاءلليهود.

وبعد بعثة المسيح عليه السلام، ومحاولة اليهود قتله وصلبه فقد أخبرهم بهدم المدينة والهيكل فيما جاء فى إنجيل متى ١/٤٤ «فقال لهم يسوع أما تنظرون جميع هذه، الحق أقول لكم : إنه لا يترك ههنا حجر على حجر لا ينقض».

وقد حدث ما ذكره المسيح – عليه السلام– عام ٧٠ ميلادياً، وذلك على يد «طيطس» الرومانى، ودمرت المدينة وهدم الهيكل، وتم طرد اليهود نهائياً منها عام ١٣٥م على يد «أدريانوس». ولم يعد إليها إلا فى هذا العصر الحالى بعد وعد بلفور الشهير، ولكنهم لم يقوموا ببناء الهيكل وذلك اعتقادا منهم أن بناء الهيكل يكون مع ظهور المسيح المنتظر الذى يقودهم لحكم العالم أجمع، وهذا ما يخططون له منذ الأسر البابلى لهم، ولذلك لم يعترفوا بالمسيح بن مريم رسولاً من الله، لأنه لم يحقق أحلامهم وآمالهم فى السيطرة على العالم، ومازالوا ينتظرون المسيح الملك المنتظر الذى هو المسيخ الدجال الذى أخبرنا عنه النبى ﷺ، والذى سيظهر آخر الزمان لتكون نهاية اليهود بعد خروجه بإذن الله تعالى.

---

(١) عامل قيصر الروم على فلسطين

خلاصة القول:

يتضح لنا جليا أن اليهود ليسوا سكان فلسطين قديما؟ وإنما قصدوا إليها بعد هروبهم من مصر، وكانوا فى مصر لاجئين من الصحراء عددهم بسيط أى أسرة واحدة مكونة من الأب يعقوب «إسرائيل» وأبنائه الاثنى عشر وأولادهم، والفترة التى أقاموا فيها دولة أو مملكة هى فى عهد داود وسليمان عليهما السلام، وهى فترة قصيرة، ثم انقسمت مملكة سليمان -عليه السلام- بعد وفاته وأصبحت ممالك صغيرة مثل القرى، أو القبائل، ولم تدم تلك الممالك الصغيرة طويلا حتى هدمها «سرجوس» وبختنصر ولم يستطع اليهود بناء دولة أو مملكة بعد ذلك إلا فى القرن العشرين بعد تخطيط دام منذ فترة الأسر البابلى حتى عام ١٩٤٨م.

أسباب نهاية
اليهود وهلاكهم الأخير

١- نقض العهود والمواثيق :

لقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل فقال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٢) ﴾ [المائدة].

فهذا هو الميثاق الذى أخذه الله عليهم، والميثاق يتطلب الوفاء، وهم لم يوفوا بالعهود ولا بالميثاق الذى أخذه الله عليهم، بل نقضوا المواثيق، فلعنهم الله،

قال تعالى : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ ﴾ [المائدة]

والنقض ضد العقد والإبرام، فقد خرجوا عن شريعة الله ومنهجه الذى ارتضى لهم. ومن نقضهم عهد الله تحريف التوراة.

قال تعالى :

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣) ﴾ [المائدة].

قال تعالى أيضا: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩) ﴾ [البقرة].

٢- تكذيب الرسل وقتل الأنبياء :

لقد جاء إلى بنى إسرائيل أنبياء ورسل كثيرون، وهذا ليس تكريماً لهم بل لأن مخالفتهم لمنهج الله كثيرة وعصيانهم أكثر، فكان الله يرسل إليهم الرسل، كى يعودوا إلى المنهج القويم الذى رسمه الله لهم قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (٨٧) ﴾ [البقرة].

وهذه الآية توضح أن الله لم يترك الأمر لبنى إسرائيل من بعد موسى -عليه السلام-، ولكن اتبع ذلك بالرسل حتى عيسى -عليه السلام-، فكثرة الأنبياء والرسل فى بنى إسرائيل شهادة حق عليهم وليس لهم.

فانظر إلى أسماء بعض أنبيائهم بعد موسى -عليه السلام- يوشع وشمعون ودانيال داود وسليمان وأرميا وحزقيل وإلياس واليسع وزكريا ويحيى وعيسى -عليهم السلام-، كل هؤلاء وبنى إسرائيل فى غيهم وطغيانهم إلا قليلاً منهم.

واستكبار بنى إسرائيل على منهج الله أنهم شرعوا لأنفسهم ما لم يأت به الرسل من قبل الله عز وجل، ثم قتلوا أنبياء الله بغيا وعدوانا، ولكنهم لم يستطيعوا قتل الرسل أمثال عيسى ابن مريم -عليه السلام.

٣- إدعاء الباطل والافتراءات على الله :

قال تعالى : ﴿ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦١) ﴾ [النساء].

لم يقف تحديهم لمنهج الله على هذا الحد وإنما تجاوزوه إلي الافتراء والكذب على الله سبحانه وتعالى، فحرم الله عليهم الطيبات لذلك قال تعالى :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا (١٦٠) ﴾ [النساء].

لقد تجرءوا على ربهم فحرم عليهم الطيبات وهذا حق الله خالق كل شيء، فالذي يحلل هو الله والذي يحرم هو الله.

وحيثيات حكم الله بتحريم أشياء كانت حلالا لبني إسرائيل كثيرة، وحين يحرم الله شيئاً فمن المؤكد أنه محدود بالنسبة للمحلل، بالمحرم قليل، وبقية ما لم يذكره الله فهو حلال. وهكذا ظلم اليهود أنفسهم، فحرمت عليهم بعض الطيبات التي كانت حلالا. ومن المحرمات التي ارتكبوها «الربا» قال تعالى :

﴿ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦١) ﴾ [النساء].

تلك عادة اليهود إتيان المحرمات واستحلالها، فالمرابون اليهود أشاعوا الفساد في الأرض، وكثرة القصص والروايات حول المرابين اليهود، ولكن الواقع المرير الذي يشهده العالم من جراء العمليات الربوية لليهود ملموس، وشاهد على جرمهم وإفسادهم.

وأكل أموال الناس بالباطل جريمة أخرى من جرائمهم المالية واللاأخلاقية، بالرشاوى والسرقات والغش في التجارة والصناعة من صنع اليهود.

ومن ادعاءاتهم الباطلة أنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة قال تعالى:

﴿ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨٠) ﴾ [البقرة].

وقولهم إن الله فقير ونحن أغنياء !! قال تعالى : ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (١٨١) ﴾ [آل عمران].

وسبب نزول تلك الآية قوله تعالى : ﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤٥) ﴾ [البقرة]

فسخروا من ذلك وقالوا لرسول الله ﷺ «يا محمد أفتقر ربك فسأل عباده القرض؟

هكذا كانت افتراءاتهم على الله، ومن ثم وعدهم بالهلاك آخر الزمان.

نهاية الإفساد :

أول تلك البشارات لنهاية اليهود، هو دمار تلك الدولة التى صنعوها كى يتم لهم السيطرة على العالم من خلالها وهى الدولة الأمريكية.

فالنهاية الحقيقية لهم تأتى بعد دمار الولايات الأمريكية، وبالتالى يتقلص دور اليهود فى عهد المهدى عليه السلام فيدخلون الخلة، وهى مكان من الأرض بالشام وبعد طردهم من المسجد الأقصى وأرض فلسطين على أيدى عباد الله من المسلمين بقيادة الخليفة الثانى عشر المهدى - عليه السلام-.

ولكل شىء نهاية حتمية ونهاية بنى إسرائيل الحتمية جاء فى القرآن الكريم ، وأعلمهم الله بها قال تعالى :

﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً ۝ ﴾ [الإسراء].

وقال المفسرون إن الذى جاس خلال الديار هو بختنصر البابلى، وهناك رأى آخر من المفسرين فى عصرنا الحالى ومنهم الشيخ محمد متولى الشعراوى رحمه الله، الذى قال وبعض الناس يقولون : إن هذا الكلام كان أيام بختنصر، ونقول لهم افهموا قول الحق : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا ﴾ وكلمة وعد لا تأتى لشىء يسبق الكلام بل الشىء يأتى بعد ذلك. إذن فلم يكن ذلك زمان بختنصر فـ «إذا» الموجودة أولا وهى ظرف لما يستقبل من الزمان، أى بعد أن جاء هذا الكلام ثم هل بختنصر يدخل فى عباد الله؟ إن قول الحق ﴿ عِبَادًا لَّنَا ﴾ مقصود به الجنود الألمان، وبختنصر كان فارسياً مجوسياً.

وهذا القول الحكيم يشير إلى الفساد الأول مع رسول الله ﷺ بعد العهد الذي أعطاه رسول الله ﷺ لهم، ثم أجلاهم، وهل تقتصر الآية على هذه بقول الحق سبحانه :

﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً ۝ ﴾ [الإسراء].

ولنا أن نسأل : هل لم يفسد بنو إسرائيل فى الأرض إلا مرتين ؟ لا .. لولا أنهم لم يفسدوا فى الأرض سوى مرتين، لكان ذلك بالقياس إلى مافعلوه أمراً طيباً، فقد أفسدوا أكثر من ذلك بكثير.

ولابد أن يكون إفسادهم فى الأرض المقصود هو الفساد الذى صنعوا بالأرض التى كانت فى حصانة الإسلام، وسبحانه قد قال : ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ مادام يوجد «عباد الله» خالصوا الإيمان، وأعدوا العدة فلابد أن يتحقق وعد الله، لكن إذا ما تخلى الناس عن هذا الوصف فعلى الناس الذين يعانون من إفساد بنى إسرائيل أن يتلقوا ما قاله الله :

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا (٦) ﴾ [الإسراء].

وهكذا كان هذا التفسير للآيات أيضا لا يتعارض مع غيره، وهو الأقرب إلي الصواب والله أعلم. وقوله :

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا (٦) ﴾

هذا ما هو حادث وواقع لهم الآن، هم أكثر مالا وسلاحا وجنوداً، ولكن هل يستمر هذا العلو لهم؟ بالطبع لا.. لأنه سبحانه وتعالى قال :

﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا (٧) ﴾ [الإسراء].

وهذا دليل على دخول المسلمين آخر الزمان المسجد الأقصى وتحريره من أيدي المغتصبين اليهود، ولا يعود لهم مرة أخرى، رغم خروج الدجال ومحاولتهم استعادته بواسطته، لأنه محرم عليهم دخول ثلاث مدن هى مكة، والمدينة المنورة، والقدس، وحين دخل المسلمون المسجد الأقصى أول مرة كان فى عهد

عمر بن الخطاب -رضى الله عنه-، وكان المسجد ومدينة القدس تحت الاحتلال الرومانى، وهل نحن عباد الله الذين يدخلون المسجد الأقصى لثانى مرة كما جاء فى القرآن الكريم . بالطبع لا.. فالحال الذى عليه المسلمون الآن لا يبشر بذلك؟ إلا فى حالة عودة المسلمين إلى كتاب الله ومنهجه الذي ارتضى لهم، فإذا عادوا إلى سابق عهد سلفهم الذين دخلوا المسجد أول مرة، كانوا عباداً لله، وكانوا هم الذين عناهم الله بقوله : ﴿ عِبَادًا لَّنَا ﴾ فيدخلون المسجد مرة أخرى ثانية مصداقا لقوله تعالى :

﴿ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾

ولن يحدث ذلك إلا فى عهد المهدى المنتظر محمد بن عبد الله، وقد جاءت البشارات بقرب حدوث ذلك من خلال الآيات التى جاءت فى سورة الإسراء، وتجمع اليهود فى دولة إسرائيل الحالية.

وسقطت بغداد

وسقط طه ياسين رمضان(١)

سنستخدم كل الطرق لقتل عدونا على أرضنا بل وسنتعقب العدو إلى أرضه هذه مجرد البداية وستسمعون المزيد من الأخبار السارة تباعا..

كان هذا جانبا من آخر تصريحات طه ياسين رمضان نائب الرئيس العراقى المخلوع صدام حسين قبيل ذوبانه «كفص الملح» هو ورفاق الحكم بعد أيام الصمود والأمل والوعود البراقة!

وقبل أيام سقط طه ياسين رمضان فى أيدى العدو حيث اعتقل فى شمال العراق وتم تسليمه للقوات الأمريكية، وقد صرح مسئول فى الاتحاد الوطنى الكردستانى الذي يتزعمه جلال طالبانى أن مسلحى الحزب تمكنوا من اعتقال رمضان فى الموصل شمال العراق -بحسب تقارير الـ (بى. بى. سى) البريطانية»- وذلك يوم الإثنين حيث كان يرتدى زى فلاح بسيط.

ويرد اسم طه ياسين رمضان فى قائمة العراقيين الخمسة وخمسين المطلوبين لدى أمريكا من نظام الحكم العراقى اسابق ويعد رمضان -المولود عام ١٩٣٨ فى الموصل- من أكثر المتشددين فى الدائرة المقربة لصدام حسين. وقد بدأ طه ياسين رمضان حياته كموظف فى بنك قبل أن يلتحق بالجيش، ثم بحزب البعث عام ١٩٥٦حيث التقى بصدام حسين وتزاملا منذ ذلك الحين.

ورأس رمضان محكمة الثورة العراقية فى عام ١٩٧٠ والتى أعدمت ٤٤ ضابطا بتهمة التخطيط لقلب نظام الحكم ثم أصبح نائبا لرئيس الوزراء فى الثمانينات، وقد تقلد منصب نائب الرئيس العراقى فى عام ١٩٩١ وكان معروفا

---

(١) مجلة نصف الدنيا العدد ٧٠٦ - ٢٤ أغسطس ٢٠٠٣ .

بالولاء الشديد لصدام حسين فضلا عن الطاعة العمياء لأوامره مهما تبلغ قسوتها ومنها بعض المذابح ضد الأكراد.

ومن الطرائف التى ترويها وكالة «أسوشيتدبرس» في هذا المجال أن صدام حسين فى نهاية الحرب العراقية الايرانية صرح بأن المسئولين العراقيين يزدادون سمنة، بينما أبناء العراق يقاتلون على الجبهة، وقام صدام بنشر «أوزان» وزرائه كما هى والأوزان التى يراها مناسبة.

وأمهلهم شهرا لانقاص أوزانهم.. وعلي أثر ذلك وجد طه ياسين رمضان نفسه مطالبا بانقاص ٦٠رطلا من وزنه. وقد أطاع الأوامر!

وقد اتهم رمضان بقتل الأكراد فى الشمال فى ١٩٨٨، كما اتهم بسحق انتفاضة الشيعة فى الجنوب فى ١٩٩١.

ولا ينسى الأمريكيون لطه ياسين رمضان قوله قبيل الأزمة الأخيرة أن على الرئيس الأمريكى جورج بوش والرئيس العراق صدام حسين أن ينهيا خلافاتهما عن طريق مبارزة بالسيف !!

وقد قام طه ياسين رمضان مع طارق عزيز وناجى صبرى بجولات مكوكية قبيل الغزو الأمريكى للعراق بين الدول العربية فى محاولة لتجنب الحرب وكانت تصريحاته فى هذا الصدد دائما بأن « تهديدات أمريكا لن تخيفنا». وبسقوطه قرعت قوات الاحتلال الطبول فى محاولة لادعاء النصر رغم الخسائر والهزائم اليومية للقوات الأمريكية فى العراق، وبعدها بأيام سقط صدام حسين.

لماذا خطف عيدى أمين الأميرة الأوغندية
وكيف قتل زوجته الثانية(١)

كل شيء له ثمن في دول إفريقيا إلا الإنسان.. المجاعة والجهل.. الحرب والإيدز.. الأوبئة والمشاكل .. الرشوة والمحسوبية .. حتى التواجد الصهيوني، عناصر عديدة شكلت وقوداً لبركان يكاد ينفجر بين لحظة وأخرى، وكأنه لم يكن ينقص هذه الدول غير وجود الديكتاتور الأوغندي الأسبق عيدى أمين الذى حكم بلاده لمدة ثماني سنوات تميزت بوحشية قل نظيرها، ذاعت شهرته كشخص خطر لا يمكن توقع أفعاله، وعرف بهوسه وأطواره الغريبة التي غزت الصحافة الدولية، فقد كانت إحدى أهم هواياته أن تكون أنباؤه في صدر الصفحات الأولى من صحف العالم. توقفت هذه الأنباء وتلك الأحاديث ولم تعد الصحف تذكر شيئا عنه، حيث غيبه الموت خلال الأيام الماضية في منفاه بأحد مستشفيات مدينة جدة بالمملكة العربية السعودية، ربما كان عيدى أمين الذى حكم أوغندا من ١٩٧١ إلى ١٩٧٩ ونمط حياته قبل توليه الرئاسة وأسلوب تعامله مع شعبه وأسرته وأعضاء حكومته خلال رئاسته نموذجا فريدا من بين الرؤساءالأفارقة.

:

وقد دار جدل كبير في شأن الممارسات الدموية لنظامه الذى أطيح عام ١٩٧٩، وصفه معارضوه بأنه «جزار إفريقيا» ، ففي خلال السنوات الثماني من حكمه قتل أو فقد ما بين ٣٠٠ ألف إلي ٤٠٠ألف أوغندي، وتعرض عدد مماثل للسجن والتعذيب، وقد أسهبت شهادات وشائعات عديدة في الحديث عن هذه الفضائع وفقا لتقديرات مختلفة.

---

(١) المصدر السابق – محمد العزبى .

ومن بين الذين قتلهم وزير فى حكومته وأسقف ومئات من ضباط الجيش، وكان يتلذذ شخصيا بقطع رؤوس من يتجرأ على معارضته، واتهمه منفيون أوغنديون بالاحتفاظ برؤوس مقطوعة فى الثلاجة، وأنه كان يلقى بالجثث إلي التماسيح وحمل النيل منها جثثا كثيرة.

ويؤكد بعض خصومه أنه جلس ذات مرة إلى مائدة عشاء دعا إليها عددا من أصدقائه الذين فوجئوا برأسين لشخصين معروفين لديهم ووضع كلا منهما على المائدة التى جلس إليها الضحيتان قبل بضعة أيام وانتقدا أمين ، وتردد كثيرا أنه كان يأكل لحوم البشر وعندما سئل ذات مرة عن ذلك أجاب «إن اللحم البشرى كثير الملوحة».

تزوج عيدى أمين من خمس نساء على الأقل وقتل زوجته الثانية ثم قطع أعضاءها ووضعها فى كيس ثم أمر بإعادة وصف الأعضاء كى يراها أولاده منها. انجب عيدى أمين أكثر من ٤٣ ولدا، ثار جدل بين ٢٨ ابنا حول الخيارات المتاحة لدفنه ما بين مكة المكرمة وجدة أو مسقط رأسه فى أوغندا ولكن استقر الرأى على دفنه فى مدينة جدة السعودية.

ولد أمين دادا الملقب بـ «بيغ دادى» أو الأب الأكبر فى عام ١٩٢٥ على ضفاف النيل وسط قبيلة «كاكواس» المسلمة فى منطقة «وست نايل» النائية إحدى القرى الحدودية المتاخمة لجنوب السودان فى منطقة «عروة»، وقد ولد لأب مسلم وأم مسيحية من قبيلة «لوغبارا»، وهما قبيلتان سودانيتان فى غرب النيل متداخلتان فى أراضى البلدين.

شارك عيدى أمين فى قمع اضطرابات قبائل «الماو - الماو» التى أدمت كينيا فى عام ١٩٥٢.

وبعد أن كان مساعد طباخ فى الكتيبة البريطانية المعروفة باسم «بنادق

الملك الأفريقية» وحارب مع القوات البريطانية فى بورما فى الحرب العالمية الثانية ثم أصبح ضابطا إبان استقلال أوغندا فى عام ١٩٦١ وساهم فى تشكيل وحدات الخدمة العامة واختار بنفسه القصر الجمهورى ووصل إلى منصب قائد قوات الدفاع الأوغندية فى عام ١٩٦٦.

وفى عام ١٩٧١ قام بطل الملاكمة الأوغندى السابق من فئة الوزن الثقيل ١٩٥١-١٩٦٠ بانقلاب أطاح بنظام «ميلتون أوبوتى» بعد أن ساهم شخصيا فى حملة على تولى مقاليد الحكم فى البلاد.

وقد كشفت وثائق حكومية بريطانية أن صعود عيدى أمين إلى السلطة دبرته دول أجنبية لمنع سلفه ميلتون أوبوتى من مواصلة عمليات التأميم الوطنية التى استولت فيها الدولة أنذاك على ٦٠٪ من المصالح الأجنبية والشركات التى يملكها أوغنديون من أصل آسيوى، وكان لافتا اعتراف بريطانيا بنظامه بعد أسبوع واحد من انقلابه العسكرى فى ٢٥ يناير١٧١.

ويعتقد أن عملية تهيئة عيدى أمين للسلطة بدأت فى عام ١٩٦٦ بعد أربع سنوات على استقلال أوغندا فى ١٩ اكتوبر ١٩٦٢ لكن الخطط البريطانية لإيصاله إلى السلطة بالتنسيق مع إسرائيل والولايات المتحدة بدأت فعليا فى عام ١٩٦٩ عندما أطلق «أوبوتى» برنامجه للتأمين ونفذت هذه الخطط خلال وجود أوبوتى فى سنغافورة لحضور مؤتمر الكومنولث ، إذ استولى عيدى أمين على كل النقاط الاستراتيجية فى البلاد فى ٢٤، ٢٥ يناير ١٩٧١ وتسلم السلطة، وألغى كل قرارات التأمين لعدد من الشركات البريطانية وتلقي مباشرة بعد الانقلاب عشرة ملايين جنيه استرلينى معونة اقتصادية إضافة إلى ٥٠ سيارة مصفحة ومعدات عسكرية.

الغريب واللافت للنظر أن عيدى أمين انقلب على من أوصلوه إلي السلطة

وهم بريطانيا والولايات المتحدة وإسرائيل، وهذا ما أكدته افتتاحية صحيفة «الجارديان» البريطانية فى عام ١٩٧٦، حيث تحدثت عن عيدى أمين فى أسلوب عتاب شديد اللهجة وقالت : إن بريطانيا هى التى دربته وعلمته، فإذا به ينقلب عليها وعلى إسرائيل.

وتذكر الصحيفة عيدى أمين بأنه كان من المقرر أن تكون أوغندا موطن اليهود، ولكن بريطانيا منعت حدوث ذلك وكانت فلسطين هى المكان الذى اختير لليهود.

وأضافت الصحيفة قائلة الجنرال عيدى أمين رجل نود جميعا أن نكرهه، وتلك الدراما اللامتناهية التى تدور تحت شمس إفريقيا هلى هى مأساة أم مهزلة ؟ وهل يجب علينا أن نظل نراقبها؟ وفى بعض الأحيان يبدو وكأنه يستحوذ على شعورنا ويقلقنا، كما نحن نستحوذ على شعوره ونقلقه، وإن لم يكن من الأصدقاء أو النسباء فهو مطبوع فى مخيلتنا نحن الذين دربناه وثقفناه، ونحن الذين نتحمل مسئولية المحيط السياسى الذى نشأ فيه، وقد خدم فى الجيش البريطانى ووجوده يعد بمثابة تأنيب مستمر لنا وتذكار يومى لأخطاء الجهاز الاستعمارى، وأضافت جريدة «الجارديان» قائلة : إن البريطانيين قد أوجدوا الكثير من المشاكل التى كان عليه أن يتعامل معها.

لقد وضعوا الحدود الأوغندية وزرعوا البلاد بالمهاجرين من شبه القارة الهندية، ولو قدر لتيودور هيرتزل أن ينال ما يريد، ولو كان جوزيف تشامبرلين أكثر تحمسا لانتقل يهود أوروبا الشرقية إلى غندا وليس إلى فلسطين، ولكن على الأقل أعفيت أوغندا من ذلك، ولكن الطريق إلي جهنم ملىء بالنوايا الطيبة.

وعيدى أمين الذى حكم بلاده ثمانى سنوات قام فى عام ١٩٧٢ بطرد نحو ٧٠ ألفا من الأوغنديين المنحدرين من أصول أسيوية وكانوا يشكلون عبأ

على الاقتصاد، وقد عرف عنه أنه كان مفتونا بهتلر فكتب فى العام نفسه برقية إلى الأمين العام للأمم المتحدة يقول : « إذا كان هتلر أرسل ستة ملايين يهودى إلى غرف الغاز فهذا لأنه كان يعلم أن اليهود ضد مصالح شعوب العالم».

وقد كان أمين غريب الأطوار، حيث إنه غير قناعته بأن هتلر كان محقا فى تصرفه وعدل فى آخر المطاف عن إقامة نصب تخليدا للزعيم النازى، وخص القوة الاستعمارية البريطانية السابقة بتصريحات عديدة تنم عن التهكم فاقترح إرسال موز لهم بالطائرة إذا كانوا يفتقرون إلى الغذاء.

ولم يتوان عيدى أمين عن الاستعانة بالروحانيات ليطعم سياسته العدائية للأجانب بالدين، فحينما طرد الآسيويين قال: إنه رأى رؤيا من الله وسمعه يقول: «إذا أردت إنقاذ أوغندا فمن الضرورى طرد كل الأجانب من البلاد».

ولأنه متقلب الأطوار فقد أدان على سبيل المثال الغارة الإسرائيلية التى وقعت على مطار عنتيبى وانفجر غضبه على الدولة اليهودية، وإذا به يعلن فجأة عن إعجابه الشديد بذلك الجنرال الذى خطط للعملية وقام بتنفيذها.

ومن هذه الأمثلة أيضا أنه كان يشجع كل ما يقوم به الطلبة فى بلاده ويؤيد اتجاهاتهم، وإذ به يقوم بمذبحة رهيبة في جامعة «كمبالا» فيأمر جيشه باقتحامها ليؤدب تلك الجماعات الطلابية التى تجرأت على أن تقول عنه رأيا اعتبره ماسا بشخصه وقتل منهم ثلاثمائة.

ليس هناك وقت لحفر القبور..

ألقوا بهم لتماسيح النيل!

لم أحب أن أكتب عن هذا الرجل حيا أو ميتاً.. ولست أعتقد أن أحداً ممن عرفوه يحب أن يذكر سنواته الثماني التى حكم فيها بالحديد والنار، فعلي الرغم من أنه عاش طويلا- ثمانين عاما- إلا أن أحداً لا يعرف سوى طغيانه ووحشيته فلم يبدأ حياته مناضلا طيبا ولم يختمها بالتكفير عن السيئات.. ليس وحده، وإنما كثيرون مثله ابتلي بهم البشر، ولكن الماريشال الحاج «عيدى أمين» يبقى درساً وعبرة ونموذجاً لا أعاده الله.

كانت نهايته فى مستشفى بمدينة جدة التى لجأ إليها فى سنواته الأخيرة.. أما بدايته فطالب فاشل لم يستهوه أى قدر من التعليم فهرب من المدارس البدائية بإحدى قرى أوغندى وانضم إلي فرق بنادق الملك الأفريقية التابعة للجيش البريطانى المحتل لكثير من دول القارة السوداء.. كان عملاقا بطلاً فى الملاكمة لايفكر كثيرا مما جعله مناسبا تماما للاشتراك فى حملة قمع ثورة «الماوماو» الوطنية فى كينيا والترقى فى رتب الجيش ليصبح رئيسا للأركان بعد تولى ملتون أوبوتى حكم أوغندا فى أعقاب الاستقلال ليقوم بانقلاب عسكرى.

وسنوات المذابح بعشرات الألوف لايهم أن كانوا خصومه أو أنصاره، فلم يسلم وزراؤه من القتل والقاء الجثث لتماسيح النيل لأنه لم يكن هناك وقت لحفر القبور!

يقولون أن ضحاياه خمسمائة ألف وربما ثلثمائة ألف، ولكن ليس أقل.. قتلهم رغم ترديده أن العناية الإلهية جاءت به لإقامة حكم حقيقى للرجل الأسود، وذلك بعد أن طرد الجالية الآسيوية المتحكمة في اقتصاد البلاد من البنوك إلى

الصناعة يستثمرون ما يساوى مليار دولار بينما عددهم لايزيد على واحد فى المائة من سكان أوغندا.

كانت قوات الاحتلال البريطانية قد جاءت بجنودهم من الهند وباكستان. الغريب بعد مضى كل تلك السنوات أن أغنى الأغنياء وأصحاب كبرى الشركات والمسيطرين على الاستيراد والتصدير مازالوا من الآسيويين الذين تقلص عددهم من ثمانين ألفا إلى خمسة عشر ألفا.

بينما بقى السود على حالهم إذ كان القتل والإرهاب والنهب يحاصرهم فلا يترك عيدى أمين الحكم مضطرا إلا بعد أن حولها إلى «خرابة» لا يسطع فى سمائها سوى صورته بملابسه العسكرية الفخمة وقد أصدر أمرا بترقية نفسه إلى أعلى الرتب «فيلد مارشال» فأصبح الشاويش مثله مثل أكبر القادة العسكريين «روميل» و«مونتجمرى».

جذوره التاريخية تشير إلى أنه صناعة بريطانية فلم يعرف عنه الاشتراك يوما فى المقاومة الوطنية وإذا كان قد تجاوز أحيانا بعد أن استبد به الغرور، فذلك أمر يعود إلى طبيعته لدرجة أن البعض يراه أيضاً مهرجاً، فهو مثلا يطالب بعرش «اسكتلندا» وينصب نفسه ملكا عليها إلى جانب كونه رئيساً لجمهورية أوغندى مدى الحياة ... وعلى الرغم من تلقيه تدريبات عسكرية فى «تل أبيب» وحرصه على ارتداء ما يشير إلى ذلك، فقد كان معجبا بأدولف هتلر لأنه قتل ستة ملايين يهودى ... وعندما وقع حادث اختطاف طائرة فرنسية فى مطار «عنتيبى» واحتجاز الفلسطينيين ما يزيد على مائة راكب معظمهم من اليهود، وهى العملية التى انتهت بانزال قوات إسرائيلية خاصة فى المطار الأوغندى نجحت فى تخليص الرهائن، لم تكن أصابع الاتهام بالتآمر بعيدة عن عيدى أمين الذى أبدى بعد ذلك تعاطفا مع العرب فى مقاطعة إسرائيل.

أثار الخلاف مع جارته تنزانيا ورئيسها «جوليوس نيريرى»[1] بعد أن قال عنه فى إحدى خطبه إنه جبان وامرأة وعاهر ثم أعقب بأنه مع ذلك يحبه ولو أنه امرأة لتزوجها!! وأثار غضب زعيم «زامبيا» كينيث كاوندا عندما وصفه بعميل للاستعمار لاعق للأحذية مما جعل تنزانيا ترفض حضور اجتماع لمنظمة الدول الافريقية لأنه يعقد على شاطئ بحيرة فيكتوريا فى أوغندا ويرأسه عيدى أمين ويعتبر الرئيس التنزانى ذلك مهزلة فكيف يجتمع القادة الأفريقيون لإدانة الاستعمار والعنصرية والفاشية فى بلد هى معقل القتل والإرهاب والفاشية السوداء.

أما «كاوندا» فقد وصف الرئيس الأوغندى بأنه مجنون ومهرج، ولكن الصحفى البريطانى كريستوفر مونيون وقد عاش مراسلا للديلى تلجراف فى العاصمة الأوغندية «كمبالا» يقول إنه من السذاجة وصفه بأنه معتوه والاستناد إلى ذلك فى التجاوز عن أقواله وأفعاله ، فهو إذا كان متقلباً متهوراً بذئى اللسان يعرف جيداً ما يدبره من جرائم وكان «مونيون» نفسه واحداً من ضحاياه إذ أدخله السجن مع آخرين رآهم بعينيه وهم يقتلون على يد الحراس يضربهم بالمطارق الحديدية ...

كذلك دخل سجون «أمين» مراسل التليفزيون البريطانى «ساندى جال» الذى كتب مقالا عن تجربته المريرة بعنوان «الخوف والدم» نشرته صحيفة «الأوبزرفر» بعد إعلان وفاة عيدى أمين ... كذلك روى «دينيس هيلز» أحد الناشطين فى قضية حقوق الإنسان الحكم عليه بالإعدام بتهمة حيازة أوراق وصف فيها عيدى أمين بأنه سفاح ولم ينقذه من الموت إلا تدخل «جيمس كالاجان» وكان وزيراً لخارجية بريطانيا وقتها.

---

(١) كان سفاكا يشن حملات إبادة على المسلمين فى تنزانيا .

وقد اضطر للسفر بنفسه إلى كمبالا فى رحلة مهينة لاسترضاء الحاكم الأوغندى ... وكلهم محظوظون ربما لأنهم ليسوا مواطنين أفريقيين فلاقل كثيرا من تلك التهم قتل الألوف بغير محاكمة.

وكانت هناك مصطلحات خاصة بالعقاب والتعذيب فعندما يقول الزعيم «يعامل معاملة الرجال المهمين» يعنى ذلك موته وإذا قيل للحراس : «اذهبوا معه حيث ينام» أو «قدموا له الشاى» يعنى ذلك ضربه بالسياط أو قطع يده أو رجله..

وكان قطع الأوصال عقوبة شائعة لحقت بإحدى زوجات عيدى أمين.. أما الاحتفاظ بجماجم الضحايا من نوى الحيثية وأكل لحم الأصدقاء والوزراء ومن يغضبه عدم ولائهم واعتلال مزاجه، فأمر لم يكذبه عيدى أمين عندما سأله الصحفى الايطالى «ريكاردو أوريزيو» عن اتهامه بأكل لحوم البشر قال : «إننى لا أحبه فطعمه حادق»!!

وريكاردو» واحد من الصحفيين العالميين القلائل الذين تابعوا والتقوا بعيدى أمين فى منفاه الأخير بمدينة جدة، مثلما التقى مع آخرين من أمثاله ليقدم كتاباً متميزاً أسماه «حديث مع الشيطان لقاء مع سبعة من الطغاة».. يقول إنه بعد عشرين سنة وأكثر مازال الرجل يتحدث وكأنه يحكم على الرغم من أنه خلع الأوسمة العسكرية ولبس الجلابية البيضاء وتحولت متعته إلى التسكع والتسوق فى سوبر ماركيتات السعودية..

الواقع أن حياته اليومية كما يرويها الصحفى الايطالى تشير إلى أنه يستمتع فهو ينزل حمام السباحة فى الهيلتون صباحا ويذهب للتدليك فى الانتركونتيننتال فبعد ذلك يتناول غداءه فى فندق ثالث بعيدا عن الفيلا التى يعيش فيها لاجئا بالسعودية والتى يملؤها صراخ الأطفال وحواديث الزوجات ورائحة الطبيخ.. لا يقلقه سوى الحنين للوطن لذلك بعث أسرته برسالة لحكومة أوغندا

تطلب منها السماح له بالعودة فكان جواب الرئيس «يورى موسفينى» هو أنه إذا جاء حيا لابد من محاكمته، أما إذا مات فلا بأس ...

ولكنه بعد أن مات لم يعد يشغله الحنين إلى أرضه ودفن فى السعودية ... وهو محظوظ إذ لم يطالب أحد بمحاكمته بعد أن تفتحت شهية العالم لحساب وعقاب الطغاة حتى بعد عزلهم مثلما حدث مع رئيس شيلى الدكتاتور «أوجيستو بينوشيه» ومطاردته فى لندن حيث كان يقيم ويتلقى العلاج ...

ولكن عيدى أمين ظل بعيداً عن الحساب مثله مثل آخرين يعيشون فى سلام حتى الآن من بينهم رفاقه الأفارقة «مانجستو ماريام» دكتاتور اثيوبيا[1] الذى يعيش فى زيمبابوى و«حسين حبرى»[2] حاكم تشاد السابق ويعيش فى السنغال ... لذلك يقولون أن قتل واحد يقود إلى المنشقة، وعشرين إلى مستشفى المجانين أما عشرين ألفا فيوفر حق اللجوء السياسى.

وإذ كان عيدى أمين قد أخذ زوجاته الخمس وأولاده الثلاثين أكثر أو أقل.. إلى ليبيا فى أعقاب الاطاحة به ثم إلى العراق لفترة محدودة فإن استقراره فى السعودية أتاح له الأمان والرفاهية..

يبقى من جنونه أنه وصف «هنرى كيسنجر» بأنه قاتل وجاسوس وأضاف أنه غبى إذ لم يحاول الاستعانة به إذا أراد النصح والحكم.. وعندما اشتد الخلاف بين الاتحاد السوفيتى والصين الشعبية تساءل فى دهشة لماذا لا يسعى إليه كل من ماوتسى تونج وليونيد بريجنيف ليصلح ما بينهما.

أما ملكة انجلترا فله معها حكايات، ربما كانت هى الدليل على هوسه، فقد بعث برسالة إليها يقول سمعت أن بلادها تعانى من مشكلات اقتصادية

(١) كان يشن حملات إبادة على المسلمين فى أثيوبيا وارتريا.

(٢) قالوا : بأنه مجرم حرب.

وسوف أرسل لكم سفينة من الموز شكرا لكم على أيامكم الجميلة أثناء استعماركم لنا.. ورسالة أخرى بمناسبة الاحتفال بالعيد الفضى لجلوسها على العرش يطلب فيها هدية من الملكة قطعة من ملابسها الداخلية يكون عمرها خمسة وعشرين سنة بقدر سنوات حكمها.. ورسالة ثالثة أكثر وقاحة يبلغها فيها بأنها إذا أرادت.. وقد خاطبها باسم «عزيزتى ليز».. أن تتعرف على رجل بمعنى الكلمة فعليها أن تحضر إليه فى كمبالا.. وبالمناسبة أقام حفل زواج رمزياً ساخراً العروس فيها صورة كرمية للملكة اليزابيث الثانية!.. وفى فيلم تسجيلى سمح عيدى أمين لمخرجته السويسرية باربيت شرويدر أن تلتقط صورة وأهمها مجموعة من المواطنين البيض يحملون الطاغية إلى عرشه ويركعون أمامه.

بوش .. إلى أين ؟!!

هل يكرر بوش الابن نفس خطأ والده.. سؤال مهم لم تعد إجابته خافية على أحد.. فالابن اختار طريقه واتخذ من نهج أبيه هادياً ونبراساً ولذلك يراهن الخبراء والمراقبون على أنه كتب نهايته بنفسه وأنه يسير بخطى سريعة باتجاه الهاوية!!

استطلاعات الرأى فى الشارع الأمريكى تبدد فرص الرئيس بوش فى التجديد له والبقاء فى البيت الأبيض لفترة ثانية.. ليس لسقوطه المروع فى العراق وتصاعد حدة المقاومة ضد الجنود الأمريكيين وارتفاع معدلات الخسائر البشرية فى صفوف الجيش.. وإنما بسبب انهيار الاقتصاد الأمريكى فى عهد بوش وزيادة معدل البطالة وتدهور مستوى الخدمات الصحية والتعليمية المقدمة للمواطن الأمريكى.

وحسب أحدث استطلاع.. تراجع التأييد الشعبى للرئيس بوش بنحو تسع نقاط لأول مرة منذ توليه الرئاسة حيث بلغت نسبته ٥٢٪.. وأكد استطلاع آخر تدنى نسبة التأييد إلى أقل من ٥٠٪.. أقول .. إن بوش يعيد كتابة التاريخ مرة أخرى ويكرر تجربة والده فى بداية التسعينيات حيث ركز بوش الأب على مغامراته الخارجية وفتوحاته العنترية وترك اقتصاد بلاده يحارب طواحين الهواء.. ورغم انتصاراته المتعددة بدءاً من تحريره للكويت وطرد قوات صدام من الخليج .. ثم تفكك الاتحاد السوفييتى السابق إلى دويلات وجمهوريات صغيرة منزوعة السلاح.. وبذلك اختفى للأبد غريم أمريكا وعدوها اللدود ودانت السيادة لأمريكا وحدها على المجتمع الدولى.. كل هذا لم يغفر لبوش وسقط فى أول انتخابات عامة أمام «القادم من المجهول» بيل كلينتون الذى رفع شعار

---

(١) المرجع السابق - على هاشم .

«الاقتصاد.. ياغبى !!» وطبعا بوش لم يع الدرس وترك الساحة الداخلية خالية أمام كلينتون فظفر الأخير بتأييد شعبى كاسح وخرج بوش الأب من البيت الأبيض غير مأسوف عليه !!

والواضح أن بوش الابن سلك نفس الطريق.. طريق الحسرة والندامسة.. وورط جيشه فى حرب غير مبررة ومرغ كرامة جنوده فى وحل العراق.. وتوهم بوش أن شعاره « الحرب ضد الارهاب» سوف يضمن له التأييد الشعبى إلى الأبد وأن اعتماده على سياسة التخويف والإرهاب التى يمارسها على شعبه منذ أحداث ١١ سبتمبر الدموية ستبقى على مفتاح البيت الأبيض فى يده لفترة ثانية!!

لقد ضحك بوش على شعبه والعالم فى حربه غير المشروعة على العراق.. وزعم امتلاك نظام صدام حسين لترسانة ضخمة من أسلحة الدمار الشامل تكفى لتدمير العالم وحرق الشعب الأمريكى والقضاء على الحضارة والرفاهية الأمريكية.. ولما فرغ من ضرب العراق بالقنابل العنقودية والانشطارية المحرمة دولياً حيث سقط الضحايا الأبرياء بالآلاف والملايين.. ولم يعثر على أسلحة الدمار الشامل.. انكشف أمام شعبه وشعر المواطن الأمريكى بالإهانة والعار لأن الرئيس بوش كذب على الأمة.. فى الوقت الذى تمضى الأمور الداخلية من سيىء إلى أسوأ.. معدل النمو الاقتصادى يتراجع.. ونسبة التضخم فى تصاعد مستمر.. وميزان المدفوعات ينهار.. والخدمات سيئة.. وغول البطالة يستشرى.. ولذلك فالمواجهة المرتقبة بين الناخب الأمريكى والرئيس بوش فى نوفمبر ٢٠٠٤.. ستكون حادة وشرسة وترجح التوقعات أن النتيجة لن تكون فى مصلحة بوش الابن .. فالناخب يهمه بالدرجة الأولى تحسين حياته ومستوى الخدمات الاجتماعية والصحية.. وليذهب العالم كله إلي الجحيم!!

وفى يقينى .. أن المعسكر الديمقراطى يستعد للقفز إلى البيت الأبيض على جثة جورج دبليو بوش والذى تقف كل الظروف فى وجهه ويحتاج إلى معجزة للنجاة من السقوط المروع الذى ينتظره..

أقول إن بوش إذا كان قد ضحك على شعبه والعالم مرة .. فلن يضحك على طول الخط.. وسيأتى اليوم الذى يعض فيه على أنامله حسرة وندما على ما اقترفه من جرائم فى حق الإنسانية.. غزوه الآثم للعراق.. وانحيازه السافر لإسرائيل على حساب الحقوق الفلسطينية.

على أى الأحوال .. يجب أن يكون بوش عبرة للجميع.. ودرسا يستفاد منه.. وكيف أن الشعب - أى شعب - يمكن أن يسحب ثقته من حاكمه طالما أنه تجاوز الخطوط الحمراء أو أنه كذب عليه وبرر حربا لا فائدة منها!

الفهرس

تابع الفهرس

تابع الفهرس

تابع الفهرس